

توجيهات ومواقف أخلاقية

إعداد الدكتور

عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى

ح

عبد العزيز عبد الله الحميدي ، ١٤٣٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحميدي ، عبد العزيز عبد الله

توجيهات ومواقف أخلاقية. عبد العزيز عبد الله الحميدي - ط ٢.

- مكة المكرمة ، ١٤٣٢ هـ

ردمك ٧-٨٠٨٤-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والارشاد ٢- التربية الإسلامية أ. العنوان

١٤٣٢ / ٧٧٤٧

ديوي ٢١٣

رقم الإيداع : ١٤٣٢ / ٧٧٤٧

ردمك : ٧-٨٠٨٤-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

توجيهات
ومواقف أخلاقية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ
بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن
يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبد الله
ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى
يوم الدين .

وبعد : فإن لمكارم الأخلاق منزلة عليا في الإسلام ، وقد
جاءت فيه توجيهات ربانية ونبوية كثيرة، ولست الآن في مقام الحصر
لما ورد في ذلك ، فإن هذه الكتاب لم يكتب لجمع أطراف هذا
الموضوع الجليل ، وإنما تم رصد مواقف لمجموعة من أعلام المسلمين
من الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم ، فرأيت من المناسب
أن أصدر هذا الكتاب بنبذة من التوجيهات النبوية، حيث كان رسول
الله ﷺ هو قدوة المسلمين جميعا في جميع أمور الدين .

ومما جاء عنه ﷺ في بيان فضل مكارم الأخلاق ومنزلتها من
الدين ما أخرجه الإمامان مالك وأحمد رحمهما الله من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إنما بعثت لأتم صالح الأخلاق»^(١) .

ففي هذا الحديث وأمثاله بيان أهمية الأخلاق الكريمة في الإسلام، فلقد قصر النبي ﷺ رسالته على إتمام مكارم الأخلاق ، والاهتمام بالأخلاق يأتي مباشرة ، وذلك بالحث على مكارم الأخلاق كالوفاء والصدق والأمانة ، ويأتي بالمقاصد الشرعية ، فإن من المقاصد الشرعية في العبادات كالصلاة والزكاة والحج ما يترتب على أدائها من مكارم الأخلاق كالصبر والتواضع والمواساة .

فالصلاة مثلا قال الله تعالى عنها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ومفهوم ذلك أن الصلاة تأمر بالمعروف والإحسان ، وذلك لأن الصلاة الكاملة تقوي الإيمان بالله تعالى ، وتعمق في نفس المصلي تعظيمه سبحانه والخوف من عذابه ورجاء ثوابه، وإذا تعمق هذا الشعور الإيماني في قلب المسلم فإنه يتكوّن لديه الوازع الديني الذي يدفعه إلى الفضائل ، ويردعه عن

(١) مسند أحمد ٢/ ٣٨١ ، موطأ مالك ٢/ ٩٠٤ ، حسن الخلق .

الذائل ، وبالتالي يكون حاكمًا على تصرفاته وسلوكه في هذه الحياة ،
ومن ذلك بلوغه قمة عليا في الاستقامة على مكارم الأخلاق والبعد
عن مساوئها .

وفي بيان درجة مكارم الأخلاق في الدين يقول رسول الله ﷺ :
«إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» أخرجه أبو داود
رحمه الله من حديث عائشة رضي الله عنها ^(١) .

وإذا كان المؤمن بحسن خلقه سيدرك درجة العبّاد الكثيرين من
نوافل العبادة فما أعظم مكارم الأخلاق !

ويعدُّ النبي ﷺ أصحاب مكارم الأخلاق أكمل المؤمنين إيماناً
حيث يقول : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخيارهم خيارهم
لنسائهم» أخرجه أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله من حديث أبي
هريرة رضي الله عنه ^(٢) .

وهذا يبين لنا فضيلة أصحاب الخلق الحسن ، الذين يعاملون

(١) سنن أبي داود، رقم ٤٧٩٨ ، الأدب (١٤٩/٥) .

(٢) مسند أحمد ٢/٢٥٠ .

إخوانهم المسلمين بلطف وسماحة، ويبين لنا آخر الحديث فضيلة الذين يعاملون نساءهم بالرحمة والعناية.

ويبين لنا رسول الله ﷺ منزلة حسن الخلق يوم القيامة حيث يقول: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق» أخرجه أبو داود وأبو عيسى الترمذي رحمهما الله من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ^(١).

وهكذا يظهر حجم حسن الخلق في الميزان يوم القيامة حيث توزن الأعمال، وذلك يعطي حسن الخلق مزية كبرى بين الأعمال الصالحة .
فيا لسعادة من حسن خلقه مع المسلمين ولم يعاملهم بقسوة وفضاظة! وهذا يبين لنا خسارة من يسيئون أخلاقهم مع المسلمين ، لأنهم يفقدون ثواب عمل صالح كبير ، ويوؤون بعقوبة أخلاقهم السيئة .

وقد عدَّ النبي ﷺ خيار هذه الأمة أحسنهم أخلاقا ، وفي ذلك أخرج الشيخان رحمهما الله من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا ، وإنه

(١) سنن أبي داود رقم ٤٧٩٩ ، الأدب (١٤٩ / ٥) سنن الترمذي رقم ٢٠٠٢ ، البر (٣٦٢ / ٤) .

كان يقول : «إن خياركم أحسنكم أخلاقاً» وفي رواية أخرى للبخاري من حديث عبد الله بن عمرو : أن النبي ﷺ قال : «إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً»^(١) .

فالمتفوقون في أخلاقهم قد ظفروا بالخيرية على هذه الأمة، وبمحببة رسول الله ﷺ.

ولقد كان حسن الخلق هو وصية رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه كما أخرج الإمام مالك رحمه الله من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : «كان آخر ما أوصاني به النبي ﷺ حين وضعت رجلي في الغرز أن قال : يامعاذ أحسن خلقك للناس»^(٢) .

فهذه وصية من رسول الله ﷺ لمعاذ حينما بعثه إلى اليمن داعياً ومعلماً ، وإنما أوصاه بذلك لأن مكارم الأخلاق من الدعائم القوية في التأثير على الناس واجتذابهم إلى الهداية.

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٠٣٥ و ٣٧٥٩ ، الأدب وفضائل الصحابة (١٠/٤٥٦)

و (٧/١٠٢) ، صحيح مسلم رقم ٢٣٢١ ، الفضائل (ص ١٨١٠) .

(٢) الموطأ ، كتاب حسن الخلق ، باب ١ رقم ١ (٩٠٢) .

**توجيهات ومواقف
في
الحلم والعفو**

مثل من حلم رسول الله ﷺ وعفوه :

سبق ذكر أمثلة مما كان يتصف به رسول الله ﷺ من الحلم والعمو في كتاب «وقفات مع السيرة النبوية»، وهذا مثل من حلمه وعفوه كان سببا في دخول أحد أبحار اليهود في الإسلام، وذلك فيما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني بإسناده من خبر محمد بن حمزة بن يوسف ابن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: إن الله عز وجل لما أراد هدى زيد بن سعة^(١) قال زيد بن سعة: إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولايزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله.

قال: فخرج رسول الله ﷺ يوما من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله إن قرية

(١) هو أحد علماء اليهود، واختلف في اسم أبيه فقبيل سعة بالنون وقيل سعية بالياء والأول أشهر.

بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، فكنت حدثتهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً ، وقد أصابتهم سنةٌ وشدةٌ وقحوطٌ من الغيث : وإني أخشى يارسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً ، فإن رأيتَ أن ترسل إليهم بشيءٍ تعينهم به .

قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى رجلٍ إلى جانبه أراه علياً فقال :

ما بقي منه شيءٌ يارسول الله ^(١) ، قال زيد بن سعدة : فدنوت إليه فقلت :

يا محمد هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان ^(٢) إلى أجل

كذا وكذا ، فقال : لا يا يهودي ولكن أبيعك تمراً معلوماً إلى أجل كذا

وكذا ولا أسمى حائط بني فلان ^(٣) ، قال : فقلت : نعم فبايعني ،

فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهبٍ في تمرٍ معلومٍ إلى أجل

كذا وكذا ، فأعطى الرجل ، وقال : أعجل عليهم وأغثهم بها .

قال زيد بن سعدة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة

(١) يعني فهم على أن رسول الله ﷺ يسأله عن مال معين .

(٢) الحائط هو البستان .

(٣) يعني لأنه قد لا يثمر الحائط المذكور فلا يمكن الوفاء منه .

وخرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر
وعثمان في نفر من أصحابه رضي الله عنهم، فلما صلى على الجنازة ودنا
من جدار ليجلس عليه أتته فأخذت بجوامع قميصه وردائه ،
ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت: ألا تقضيني يا محمد حقي فو الله
ما علمتكم يا بني عبد المطلب إلا لمُطل^(١) ، ولقد كان لي بمخالطتكم
علم .

قال : فنظر إليَّ عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه
كالفلك المستدير ، ثم رماني بطرفه وقال : يا عدو الله أتقول لرسول الله
ﷺ ما أسمع وتفعل به ما أرى ! فو الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر
فوّته لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون
وتؤدة ، وتبسّم ثم قال: أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ،
أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التّباعة^(٢) ، اذهب يا عمر
فاقضه حقه وزده عشرين صاعا مكان ما رُعتّه .

(١) يعني لا تؤدّون الحقوق .

(٢) أي طلب الحق .

قال زيد : فذهب بي عمر فقضاني حقي وزادني عشرين صاعا
من تمر ، فقلت : ماهذه الزيادة ؟ فقال : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك
مكان ما رُعتك ، فقلت : أتعرفني يا عمر؟ قال : لا ، فقلت : أنا زيد بن
سعنة ، قال : الحبر ؟ قلت : الحبر ، قال : فما دعاك أن تقول لرسول الله
ﷺ ما قلت وتفعل ما فعلت ؟! قال : يا عمر، كل علامات النبوة قد
عرفت في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما
منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد
خبرتهما ، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ،
وبمحمد نبيا، وأشهدك أن شطر مالي - فإني أكثرها مالا - صدقةٌ على
أمة محمد ﷺ ، فقال عمر : أو على بعضهم فإنك لاتسعهم كلهم ،
فقال : أو على بعضهم .

قال : فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن
لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فأمن به وتابعه ، وشهد مع
رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة^(١) .

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم / ٢٣ - ٢٤ .

وأخرج هذا الخبر من هذا الطريق الإمام الطبراني وابن حبان
والحاكم وأبو الشيخ، كما ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني وذكر أن
رجال الإسناد موثقون^(١).

فهذا الخبر يدل على اتصاف النبي ﷺ بالكمال في صفتي الحلم
والعفو ، فإنه قد واجه الإهانة القولية والفعلية من ذلك الرجل ،
فتحمل ولم يغضب ، وإنما واجه هذا الموقف بالسكون والطمأنينة ،
وأنكر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما قام به من مخاطبة ذلك
الرجل بالشدة والإرهاب ، ووجهه إلى ما يتطلبه الموقف فيما لو تكرر
ذلك المشهد ، وهو أن يكون له جُهد في امتصاص غضب أصحاب
القضية ، وذلك بتذكير كل طرف بواجبه ، وهذا من تواضع النبي ﷺ ،
لأن ذلك الرجل قد جاء يتقاضى حقه قبل موعد حلول الدين ، فليس
النبي ﷺ بحاجة إلى أن يُذكر بحسن القضاء ، ولكنه ﷺ أتخف أمته بهذا
التوجيه الحكيم لمن حضر مثل هذا المشهد حتى يمكن القضاء على
الخلافاً قبل أن يتحول إلى عدااء وخصام .

(١) الإصابة ١/٥٤٨ ، رقم ٢٩٠٤ .

ونجد في هذا الخبر أن النبي ﷺ لم يهتمّ بالدفاع عن نفسه ، ولم ينظر إلى مايجب لذاته من الاحترام والتقدير باعتباره زعيم أمة ، بل نظر إلى ماينبغي عمله في حال وقوع الخلاف بين الناس، من المبادرة إلى الإصلاح بين المتخاصمين وإيجاد التفاهم بينهم ، وانتزاع بواعث الدفاع عن النفس واعتبار الذات في سبيل القضاء على الخصومات وإصلاح أحوال المجتمع .

هذا وينبغي الإشادة بموقف عمر رضي الله عنه الذي جعل من نفسه حاميا لرسول الله ﷺ يرُدُّ عنه صولة السفهاء والجاهلين ، فهياً بذلك جواً من الهيبة يجعل الأعداء يحسبون حسابا كبيرا قبل أن يقدموا على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد أثمر توجه النبي ﷺ في سلوك الصحابة رضي الله عنهم ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبدو حليما عفواً عن من جهل عليه ، وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس ، وكان من نفر الذين يدينهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانا ، فقال

عينه لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه ، قال ابن عباس : فاستأذن بن قيس لعينه ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هِيَ يا ابن الخطاب فو الله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى همَّ به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين ، قال : والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقفاً عند كتاب الله تعالى ^(١) .

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الحلم والعفو ما ذكره السيوطي ونسبه إلى عبد ابن حميد وابن أبي حاتم من خبر ميمون بن مهران : أن أعرابياً أتى أبا بكر فقال: قتلت صيدا وأنا محرم فما ترى عليّ من الجزاء ؟ فقال أبو بكر لأبي بن كعب - وهو جالس عنده - : ماترى فيها؟ فقال الأعرابي : أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك فإذا أنت تسأل غيرك، قال أبو بكر فما تنكر ؟ يقول الله

(١) صحيح البخاري ، التفسير ، حديث رقم ٤٦٤٢ (١/٣٠٤) ، وقوله «هي»

بمعنى : تنبّه .

تعالى ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فشاورت صاحبي حتى
إذا اتفقنا على أمر أمرناك به^(١).

فهذا مثال لما كان يتصف به أبو بكر الصديق رضي الله عنه من الحلم والعفو
حيث لم يؤاخذ ذلك الأعرابي الذي أنكر عليه بشيء من الجفاء.
وفي هذا المعنى أخرج ابن جرير الطبري من خبر قبيصة بن جابر
قال: خرجنا حجاجا ، فكنا إذا صلينا الغداة^(٢) اقتدنا رواحلنا نتماشى
نتحدث ، قال: فبيننا نحن ذات غداة إذ سنح لنا ظبي أو برح^(٣) فرماه
رجل منا بحجر فما أخطأ خُشَاءه^(٤) ، فركب ردعه ميتا^(٥) قال: فعظّمنا
عليه ، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر ، فقصص عليه

(١) الدر المشور ٢/ ٣٢٩ .

(٢) يعني صلاة الفجر .

(٣) سنح أتى من اليسار و برح أتى من اليمين .

(٤) الخشاء هو العظم الدقيق العاري من الشعر الناتئ خلف الأذن .

(٥) أي خر لوجهه ميتا على دمه .

القصة، قال: وإذا إلى جانبه رجل كأن وجهه قُلبُ فضة^(١) - يعني عبد الرحمن بن عوف - فالتفت إلى صاحبه فكلمه ، قال: ثم أقبل على الرجل قال: أعمداً قتلته أم خطأ؟ قال الرجل: لقد تعمدت رمية وما أردت قتله ، فقال عمر: ما أراك إلا أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها ، وأسقِ إهابها^(٢) .

قال : فقمنا من عنده فقلت : أيها الرجل عَظَّم شعائر الله فما درى أمير المؤمنين مايفتيك حتى سأل صاحبه ، اعمد إلى ناقتك فانحرها فلعل ذاك^(٣) ، قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة : ٩٥] .

قال : فبلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدرّة^(٤) قال : فعلا صاحبي ضربا بالدرّة، وجعل يقول : أقتلت في الحرم وسفهت

(١) القلب بضم القاف وسكون اللام السوار ، أراد وصف وجهه بالبياض .

(٢) أي أعط جلودها من يدبغه ويتخذها سقاء .

(٣) يعني يجزئ عنك .

(٤) أي العصا .

الحكم ! قال : ثم أقبل علي فقلت : يا أمير المؤمنين لا أحل لك اليوم ما يحرم عليك مني !

قال : يا قبيصة بن جابر إني أراك شاب السن فسيح الصدر^(١) بين اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء ، فيفسد الخلق السيء الأخلاق الحسنة، فإياك وعثرات الشباب !^(٢) .
وهكذا أدركت الخشية أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لما ذكره قبيصة بالحلال والحرام فأمسك عن ضربه وعفا عنه ، وقد أعجب قبيصةُ عمرَ بما رأى من قوة بدنه وشجاعته وفصاحته فوعظه بهذه الموعظة التربوية التي فيها الثناء على قبيصة بما فيه من فضائل وحثه على اجتناب سقطات الشباب .

(١) أي واسع الصدر وذلك من دلائل القوة .

(٢) تفسير الطبري بتحقيق محمود محمد شاكر ٢٤/١١ ، والتعليقات مستفادة منه ، وقد ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٩/٢ ونسبه أيضا لابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وذكر أن الحاكم صححه ، وذكر الحافظ ابن حجر أن سعيد ابن منصور وصله بسند صحيح - فتح الباري - ١٣٥/١٢ - .

من مواقف عثمان رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه ابن شبة النميري من خبر عمران بن عبد الله بن طلحة : أن عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج لصلاة الغداة فدخل من الباب الذي كان يدخل منه ، فزحمه الباب فقال: انظروا ، فنظروا فإذا رجل معه خنجر أو سيف ، فقال له عثمان رضي الله عنه : ما هذا؟ قال: أردت أن أقتلك، قال: سبحان الله ، ويحك علام تقتلني؟ قال: ظلمني عاملك باليمن، قال: أفلا رفعت ظلامتك إليّ فإن لم أنصفك - أو أعديك - على عاملي أردت ذلك مني ؟ فقال لمن حوله : ماتقولون ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، عدوُّ أمكنك الله منه ، فقال: عبدُهم بذنّب فكفّه الله عني، اتّني بمن يكفل بك : لا تدخل المدينة ما وليتُ أمر المسلمين، فأتاه برجل من قومه فكفل به، فخلّى عنه^(١) .

فهذا تسامح كبير من أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث عفا عمن أراد قتله، والعفو عند المقدرة صفة من صفات الكمال في الرجال ، وهو دليل على التجرد من حظّ النفس، وتقلص الأناية ،

(١) تاريخ المدينة المنورة / ١٠٢٧ - ١٠٢٨ .

وبروز خلق الإيثار، وضعف الارتباط بالدنيا، وقوة الارتباط بالآخرة.
وهذا الخلق إضافة إلى أنه عمل صالح يرفع من درجات صاحبه
في الآخرة فإنه سياسة حكيمة في الدنيا ، إذ أن هذا الرجل الذي أراد
الاعتداء لو أنه قُتِل أو عوقب عقوبة بليغة لربما أحدث فتنة بإيغار
صدور أفراد قبيلته واستعدادهم للانتقام إذا سنحت لهم الفرصة ،
لكن العفو عنه يجعل أفراد قبيلته وأبناء بلده يعذلونه ويعنفونه على
ما حاول الإقدام عليه، وبذلك تنطفئ الفتنة قبل تصاعدها ، ويكسب
صاحب العفو قلوب الناس وولاءهم .

من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمام أحمد بإسناده :
أن أبا هريرة رضي الله عنه كانت لهم زنجية قد غمتهم بعملها، فرفع
عليها يوما السوط ثم قال: لولا القصاص يوم القيامة لأغشيتك
به، ولكن سأبيعك ممن يوفيني ثمنك أحوج ما أكون إليه، اذهبي فأنت
حرة لله عز وجل^(١).

(١) البداية والنهاية ٨ / ١١٢ .

وهكذا يوازن أبو هريرة رضي الله عنه بين قدرته على تلك الخادمة وقدرة الله تعالى عليه، فيفضل انقاء سخط الله سبحانه وعذابه على تنفيذ مقتضى سخطه هو، فيتورع عن عقوبة تلك الخادمة ويحسن إليها بدلا من إساءتها بإعتاقها لوجه الله عز وجل، وبهذا يكون قد جمع بين عدد من الأعمال الصالحة .. خشية الله تعالى ، والعفو عن المسيء ، والإحسان إليه وهذا يبين لنا عمق تصور الصحابة رضي الله عنهم للحياة الآخرة ، واستحضارهم رقابة الله تعالى وسعيهم الحثيث لبلوغ رضاه .

من مواقف معاوية رضي الله عنه :

قال الحافظ ابن كثير : وقال العتبي : رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاما له فقال له: اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه ، سواء لك !! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك ؟ والله لقد منعني القدرة من الانتقام من ذوي الإحْن ، وإن أحسن من عفا لمنْ قدر^(١) .
فهذا توجيه سديد من أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه لابنه

(١) البداية والنهاية ٨ / ٢٢٧ .

يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم .. العفو عند المقدرة ، هذا الخلق الذي يُعدُّ من أهم عناصر السيادة وسياسة الأمة ، ولقد ذكَّره بقدرته الله جل وعلا عليه ليحطَّ من تعاضمه بنفسه وليخشى الله سبحانه فيمن هم تحت يده.

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في بيان ما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من الحلم ، حيث قال: وقال بعضهم : أسمع رجل معاوية كلاما سيئا شديداً ، فقيل له : لو سطوت عليه ؟ فقال: إني لأستحيي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي ، وفي رواية قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك!! فقال : إني لأستحيي أن يكون جرم أحد أعظم من حلمي .

وقال الأصمعي عن الثوري قال : قال معاوية : إني لأستحيي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي ، أو تكون عورة لا أوارئها بستري .

قال وقال : مايسرني بذلُّ الحلم عِزُّ النصر .

قال : وقال بعضهم : قال معاوية يابني أمية فارقوا قريشا بالحلم،

فو الله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتما وأوسعته حلما،
فأرجع وهو لي صديق ، إن استنجدته أنجدني، وأثور به فيثور معي ،
وماوضع الحلم عن شريف شرفه ، ولا زاده إلا كرما ، وقال : آفة
الحلم الذل .

وقال : لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله ،
وصبره شهوته ، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم .

قال : وقال رجل لمعاوية : من أسود الناس؟ فقال : أسخاهم
نفسا حين يسأل ، وأحسنهم في المجالس خلقا، وأحلمهم حين
يستجهل .

قال : وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : كان معاوية يتمثل بهذه
الآيات كثيرا :

فما قتل السفاهة مثل حلم	يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفه وإن ملئت غيظا	على أحد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخواك عند ذنب	فإن الذنب يغفره الكريم

وقال : كتب معاوية إلى نائبه زياد : إنه لا ينبغي أن يُساسَ الناس

سياسة واحدة باللين فيمرحوا ، ولا بالشدة فيُحمَل الناس على المهالك ، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة ، وأنا للين والألفة والرحمة ، حتى إذا خاف خائف وجد بابا يدخل منه ^(١) .

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه تبين لنا شيئاً مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم ، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعيته ، أو يصارحونه - بقوة - بما يرونه حقاً وهو يخالفهم في ذلك .

وكان لتخلقه بخلق الحلم الذي لم يخالطه ضعف أثر في نجاحه في تثبيت أركان دولته ، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين ، وتحويلهم إلى الرضى والقناعة بسياسته ، وهكذا تأتي مكارم الأخلاق التي من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة .

وقد أبان في هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شيء من الذل ، كما أن النصر يخالطه شيء من العز ، ولكنه أبدى سروره بذلك الذل لما

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٣٥ - ١٣٦ .

يترتب عليه من النتائج الحميدة التي منها اكتساب الأصدقاء
والأنصار .

وفي كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التي تخيف
المتهورين الميالين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن ، ولكنها في
الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم ويريدون سلوك
طريق الاستقامة والسلامة .

ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره وذكروا
اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة خلق الحلم ، وفي ذلك يقول الحافظ
ابن كثير : وقال عبد الملك بن مروان - يوما وذكر معاوية فقال - :
مارأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه .

وقال قبيصة بن جابر : ما رأيت أحداً أعظم حلماً ، ولا أكثر سؤداً
، ولا أبعداً أناة ، ولا ألين مخرجاً ، ولا أرحب بالمعروف من معاوية .
وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : لله در ابن هند ، إن كنا
لنُفرقه^(١) وما الليث على برائته بأجرأ منه فيتفارق لنا ، وإن كنا لنخدعه

(١) أي لنخيفه .

وما ابن ليلةٍ من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا ، والله لو ددت
أنا مُتَّعنا به مادام في هذا الجبل حجر - وأشار إلى أبي قبيس - ^(١) .
وفي قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة
المسلمين وسادتهم ، فهو جريء شجاع ، ولكنه يظهر الخوف عمدا
ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين ، لأن إظهار الشجاعة يثير
عنصر التحدي لديهم ، وهو أدهى أهل الأرض في زمانه ، ولكنه
يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقيمتهم عليه ،
وهو في ذلك كله يخدم هدفا ساميا وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن
للأمة الإسلامية .

ولقد تمنى ابن الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغير
الأحوال من بعده ، ولقد قال ذلك مع أنه من الطموحين للخلافة
لأنه نظر إلى مصلحة الأمة التي تتحقق ببقاء معاوية خليفة على
المسلمين .

ويصف حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سياسة

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٣٥ - ١٣٦ .

معاوية بكلام موجز ، لكنه يعني خلاصة تفكير عميق حيث يقول :
قد علمت بِمَ غلب معاوية الناس ، كانوا إذا طاروا وقع ، وإذا وقع
طاروا^(١) .

وهذا يعني أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها ،
وإنما يفسح لها حتى تمر ، ثم يحتوي الميدان وقد زال إقبال الناس
الشديد فيتمكن مما يريد ، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله
المشهور : لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إذا جذبوها
أرختها ، وإذا أرخوها جذبتها ، رضي الله عنه وعن الصحابة جميعا .
ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في بيان ما كان يتصف به أمير
المؤمنين معاوية رضي الله عنه من مكارم الأخلاق قال : وقال الشعبي
والأصمعي : جرى بين رجل يقال له أبو الجهم وبين معاوية كلام ،
فتكلم أبو الجهم بكلام فيه غَمْرٌ لمعاوية ، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه
فقال : يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان ويأخذ
أخذ الأسد ، وإن قليله يغلب كثير الناس ، ثم أمر معاوية لأبي الجهم

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٦ .

بمال ، فقال أبو الجهم في ذلك يمدح معاوية :

نميل على جوانبه كأنا نميل إذا نميل على أينا

نُقلبه لنخبر حالتيه فنخبر منها كرمنا ولينا^(١)

وهكذا كان لحلم معاوية رضي الله عنه وحسن خلقه ومبادلته
الإساءة بالإحسان الأثر الكبير في نفس أبي الجهم فقال هذين البيتين
في شكر معاوية وبيان اتصافه بالكرم والسماحة .

ولقد كان سلوك أمير المؤمنين معاوية تطبيقاً لقول الله تعالى

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ
عَظِيمٍ ﴿ [فصلت : ٣٤ - ٣٥] .

وقال الحافظ ابن كثير : وقال عمر بن يحيى بن سعيد الأموي

عن جده قال: دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء ، فنظر إليها
الصحابة ، فلما رأى ذلك عمر وثب عليه بالدرّة فجعل يضربه بها ،
وجعل معاوية يقول : يا أمير المؤمنين الله الله فيّ ، فرجع عمر على

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٣٥ .

مجلسه فقال له القوم، لمْ ضربته يا أمير المؤمنين ، وما في قومك مثله ؟
فقال : والله مارأيت إلا خيرا ، وما بلغني إلا خير ، ولو بلغني غير
ذلك لكان مني إليه غير مارأيتم ، ولكن رأيتك - وأشار بيده -
فأحببت أن أضع منه ماشمخ^(١) .

ففي هذا الخبر موقفان : الأول صرامة أمير المؤمنين عمر رضي
الله عنه في حمل أمرائه على حياة التواضع والزهد ، ولقد لاحظ شيئا
من الترفع في معاوية في ذلك اللباس الذي لبسه ، فكان منه ذلك
التأديب التربوي الذي أراد منه الحدّ من ذلك السلوك الذي لاحظته
على معاوية رضي الله عنه .

وحيثما عدله في ذلك منْ حوله ، وذكروا فضل معاوية على قومه
أبان لهم أنه لم يغضب عليه لنقص في سياسته وإدارته ، وأنه لو كان
منه شيء من ذلك لكان له معه تصرف آخر ، ويقصد بذلك عزله عن
الولاية ، وفي ذلك دلالة على ظهور تفوق معاوية في أعمال الولاية في
السلم والحرب .

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٢٥ .

والثاني : موقف معاوية في الحلم والصبر ، حيث لم يَبْدُ منه أيُّ
تُسْحُطٍ مما حدث ، بل كان يستعطف أمير المؤمنين ليخفف من غضبه
عليه ، مع أن في ضربه أمام الناس إهانة كبيرة له ، لكنه يدرك أن أمير
المؤمنين يقصد من ذلك صيانة أخلاق الإسلام التي يجب أن تتمثل
أولاً في الولاية ليقتهي بهم عامة الناس .

ونظراً لحلم معاوية الكبير مع ما يتصف به من الشجاعة والعزة
فإن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أثنى عليه بقوله : دعوا فتى قريش
وابن سيدها ، إنه لمن يضحك في الغضب ولا ينال منه إلا على الرضا ،
ومن لا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه^(١) .

فهذا قول دقيق من عمر في وصف معاوية ، فقد وصفه بالدرجة
العالية من الحلم ، والعزة التي تجعله منيعاً لا ينال ما عنده على قهر منه ،
وهذه الصفة هي التي جعلته يبقيه أميراً على الشام لخطورة ذلك الثغر .

من مواقف الأحنف بن قيس رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال : ومن كلامه

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٢٤ .

وقد سئل عن الحلم ماهو؟ فقال: الذل مع الصبر ، وكان إذا تعجب الناس من حلمه يقول : والله إني لأجد مايجدون ولكني صبور، وقال: وأغلظ له رجل في الكلام وقال : والله يا أحنف لئن قلت لي واحدة لتسمعنَّ بدلها عشرة، فقال له : إنك إن قلت لي عشرة لاتسمع مني واحدة^(١) .

ففي هذين الخبرين يفسر الأحنف بن قيس التميمي الحلم بأنه الذل مع الصبر ، وهذا يعني أن الحلم يبدأ بالتهوين من شأن النفس وإذلالها ثم الصبر على الأذى ، وذلك بأن يُصدر العقل السليم أمرا للنفس بكبح جماحها عن سلوك سبيل الانتصار إلى الإيثار ، والصبر على مايقرع المسامع من الأذى، فالحلم يحتاج إلى قوة عظيمة في العقل لتحجيم النفس عن الاستسلام لعواطفها الجياشة والظهور أمام من صدر منه الأذى بعدم التأثر واحتواء الموقف ، فالحلم على هذا إهانة للنفس، لكنه يورث عواقب حميدة من سمو العقل وعلو المنزلة ،

(١) البداية والنهاية ٨ / ٣٢٧ .

والسلامة من الآثار السيئة للاستجابة للغضب .

ويبين الأحنف للناس أنه يجد ما يجدون من التأثر بسماع ما يؤلم النفس لكنه يكبح جماح نفسه بالصبر .

ويبين أنه كسب بالحلم أنصارًا ممن يعادونه ، وأن الذين كسب نصرتهم بإعجابهم بحلمه أكثر من الذين كسب نصرتهم بمحبتهم إياه بالأسباب الأخرى .

وفي الخبر الأخير مثل من حلمه مع الرجل الذي أغلظ له ، فقد كان ذلك الرجل متوترا ، وقد غاب عنه عقله السليم وحضرت نفسه الأمانة بالسوء ، أما الأحنف فإنه قد أمات نفسه الأمانة بالسوء وأحى عقله السليم ، فكان جوابه لذلك الرجل استجابة لنداء عقله لاختصوا لعواطف نفسه .

وقد اشتهر الأحنف بالحلم حتى أصبح يضرب بحلمه المثل كما قال الشاعر أبو تمام في مدح الخليفة المعتصم العباسي :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

والمراد بعمرو في هذا البيت عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان

مشهورًا بالشجاعة، والمراد بحاتم أبو عدي حاتم الطائي المشهور
بالساحة والكرم ، والمراد بإياس القاضي إياس بن معاوية وكان
مشهورًا بالذكاء .

ومن أخبار الأحنف بن قيس في الحلم والأناة ما ذكره المؤرخ أبو
العباس أحمد بن محمد ابن خلكان في ترجمته قال : ثم إن عبيد الله
[يعني ابن زياد أمير العراق] جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف
وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية ، فلما وصلوا دخل عبيد الله
على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق ، فقال : أدخلهم عليّ أوّلاً
فأول على قدر مراتبهم عندك ، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب
كما قال معاوية ، وآخر من دخل الأحنف ، فلما رآه معاوية - وكان
يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال : إليّ يا أبا بحر ،
فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته ، وأقبل عليه يسأله عن حاله
ويحادثه ، وأعرض عن بقية الجماعة .

قال : ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر من عبيد الله والثناء
عليه ، والأحنف ساكت، فقال له معاوية : لم لا تتكلم يا أبا بحر ؟

فقال: إن تكلمت خالفتهم ، فقال لهم معاوية : اشهدوا علي أنني قد عزلت عبيد الله عنكم ، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إليّ بعد ثلاثة أيام .

قال : فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم ، وفيهم من عيّن غيره، وسعوا في السرّ مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك ، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية ، والأحنف معهم ، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول ، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة ، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه ؟ فجعل كل واحد يذكر شخصا وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال ، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء ، فقال له معاوية : لم لا تتكلم يا أبا بحر ؟ فقال الأحنف؟ إن وليت أحداً من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدّه ، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك ، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجلس الأول في الشناء على عبيد الله من ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم .

قال : فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة : اشهدوا علي أني قد أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولي .

قال : فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل - يعني الأحنف - فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت ، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عوناً وذخراً .

قال : فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره ^(١) .

في هذا الخبر موقفان :

الأول لمعاوية رضي الله عنه حينما علم قدر الأحنف بن قيس

(١) وفيات الأعيان ٢/٥٠٣ - ٥٠٤ .

رحمه الله وأدرك رفعة منزلته ، فرفعه وأدناه منه وأظهر له كثيرًا من الاهتمام والاحترام ، وهذا كما أنه يُعدُّ من تقدير أهل الفضل فهو يُعدُّ من السياسة الجيدة في احتواء أهل القوة والتأثير على الناس .

والثاني في بيان ما كان يتصف به الأحنف من الحلم والأناة وبُعد النظر ، فهو لم يُظهر أيَّ شيء من الغضب حينما أبعده عبيد الله بن زياد وقرب من أهل العراق من هم أقل شأنًا منه ، ومع أن عبيد الله قد تجاهله فإنه قد رشح عبيد الله لإمرة العراق لما يرى فيه من السداد ، وأنه الرجل الذي يمكن أن ترضى به الطوائف المتعددة ، وفي هذا تقديم للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

وكان الأحنف قد ساد قومه بمكارم الأخلاق ، ومما روي في ذلك ما ذكره المؤرخ ابن خلكان في ترجمته من خبر معاوية بن هشام أنه قال لخالد بن صفوان : بِمَ بلغ فيكم الأحنف بن قيس ما بلغ ؟ قال : إن شئت حدثتك ألفًا ، وإن شئت حذفته الحديث لك حذفًا ، قال : احذفه لي حذفًا ، قال : وإن شئت فثلاثًا ، وإن شئت فاثنتين وإن شئت فواحدة ، قال : ما الثلاث ؟ قال : كان لا يشره ولا يحسد ولا يمنع حقًا ،

قال: فما الثتان؟ قال: كان موفقا للخير معصوما عن الشر، قال: فما

الواحدة؟ قال: كان أشد الناس على نفسه سلطانا^(١).

وهذه أخلاق كلها تؤهل للسيادة، وخاصة ما ذكر من امتلاكه نفسه، وإن من أهم ما ينزل من قدر الرجال فلتات ألسنتهم والهفوات في سلوكهم.

من مواقف أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله

من أخبار الولاية المتصفين بالحلم والأناة ما ذكره الحافظ ابن كثير عن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، حيث قال فيه: وكان فيه حلم وأناة، شتم مرة رجلا من الأشراف فقال أتشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاستحى وقال: اقتص مني بدلها - أو قال مثلها - فقال: إذا أكون سفيهاً مثلك، قال: فخذ عوضاً، قال: لا أفعل، قال: فاتركها لله، قال: هي لله ثم لك، فقال هشام عند ذلك: والله لا أعود إلى مثلها^(٢).

(١) وفيات الأعيان ٢/٥٠٠.

(٢) البداية والنهاية ٩/٣٦٦.

هذا مثل في الحلم والوقار ، وإذا كان هشام بن عبد الملك قد زل
لسانه بقول مالا يحمد فإنه قد أنصف من نفسه بالاعتذار من الخطأ ،
وهذا دليل على تواضعه وعلو تفكيره حيث قدم رعاية مكارم
الأخلاق على النظر إلى حظ نفسه ومجده الدنيوي .

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله

من أخبار الحلم والعمو ما ذكر عن محمد بن رباح الجوهري قال:
ذُكر لأبي جعفر تدبير هشام بن عبد الملك في حرب كانت له ، فبعث
إلى رجل كان معه ينزل الرصافة - رصافة هشام- يسأله عن تلك
الحرب ، فقدم عليه ، فقال: أنت صاحب هشام ؟ قال: نعم يا أمير
المؤمنين، قال: فأخبرني كيف فعل في حرب دبرها في سنة كذا وكذا ؟
قال : إنه فعل فيها رحمه الله كذا وكذا ، ثم أتبع بأن قال: فعل كذا
رضي الله عنه ، فأحفظ ذلك المنصور فقال: قم عليك غضب الله ! تطأُّ
بساطي وتترحم على عدوي ! فقام الشيخ وهو يقول : إن لعدوك
قلادةً في عنقي ومنّةً في رقبتني لا ينزعها عني إلا غاسلي .

فأمر المنصور برده وقال: اقعد ، هيه كيف قلت : فقلت إنه كفاني
الطلب، وصالن وجهي عن السؤال، فلم أقف على باب عربي ولا أعجمي
منذ رأيتة ، أفلا يجب علي أن أذكره بخير وأتبعه بثنائي ! فقال: بلى: الله أمُّ
نهضت عنك وليلة أدتُك ، أشهد أنك نهيضُ حرّة وغراس كريم .

ثم استمع منه ، وأمر له ببرّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ما آخذه

لحاجة وماهو إلا أني أتشرف بحبائك وأتبجح بصلتك ، فأخذ الصلة
وخرج ، فقال المنصور ، عند مثل هذا تحسن الصنيعة ويوضع
المعروف ويُجاد بالمصون ، وأين في عسكرنا مثله ! ^(١) .

ففي هذا الخبر موقفان : الأول موقف صاحب هشام الذي
حفظ المعروف ولم ينس الجميل ، فأثنى على صاحبه في بلاط حاكم قد
عادى صاحبه وأزال دولته وكونه صرح بذلك الثناء وهو في ذلك
المكان دليل على اتصافه بخلق الوفاء وخلق الشجاعة .

والموقف الثاني : موقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور الذي
بهرته أخلاق ذلك الرجل فأثنى عليه ذلك الثناء العاطر ، ولم تأخذه
العزة بالإثم فيلجأ إلى قوته وهيمنته ويتنقم من ذلك الرجل ، بل غلب
عقله الرشيد على عاطفته وازدان بخلق الحلم والإنصاف فأثنى على
ذلك الرجل ووصله .

ومن مكارم الأخلاق في مجال الحلم والعفو عند المقدرة ما ذكره

(١) تاريخ الطبري ٨ / ٧٨ - ٧٩ .

أبو جعفر الطبري من خبر داود بن رشيد عن أبيه أن المنصور خطب فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. فاعترضه معترض عن يمينه ، فقال : أيها الإنسان أذكرك من ذكركَ به .. فقطع الخطبة، ثم قال : سمعاً سمعاً لمن حفظ عن الله وذكركَ به ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً ، وأن تأخذني العزة بالإثم ، لقد ضللتُ إذا وما أنا من المهتدين ، وأنت أيها القائل فوالله ما أردتَ بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال: قام فقال فعوقب فصبر ، وأهونُ بها ويلك لو هممت ، فاهتبلها إذا غفرت ، وإياك وإياكم معشر الناس أختها ، فإن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارد ، وتصدروه مصادره ، ثم عاد في خطبته فكأنه يقرؤها من كفه ، فقال : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ^(١) .

فهذا الخبر يشتمل على مجموعة من الأخلاق تتلَّق بها أمير

(١) تاريخ الطبري ٨ / ٩٠ .

المؤمنين أبو جعفر المنصور ، حينما سمع كلام ذلك الرجل المعترض عليه في خطبته .. من الصبر على الأذى والحلم والعفو عند المقدرة ، إلى جانب اتّصافه بالفصاحة والمقدرة البيانية ، وهذه من دلائل عظمته ونبوغه ، ولقد كانت هذه الأخلاق والصفات وغيرها من فضائله أثرًا ظاهرًا للتربية العلمية والدينية التي تلقّاها على يد شيوخ العلم الربانيين المريين ، فقد جالس العلماء طويلا حتى أصبح معدودا منهم لولا اشتغاله بسياسة أمور الأمة .

ومن مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور في الحلم والعفو ما ذكره الإمام محمد بن جرير الطبري عن الفضل بن الربيع عن أبيه أنه قال : بينا أنا قائم بين يدي المنصور أو على رأسه إذ أُتِيَ بخارجيٍّ قد هزم له جيوشًا ، فأقامه ليضرب عنقه ، ثم اقتحمته عينه فسب أمه وقال : مثلك يهزم الجيوش ! فقال له الخارجي : ويلك وسوءة لك ! بيني وبينك أمس السيف والقتل واليوم القذف والسب ، وما كان يؤمّنك أن أرد عليك وقد يئستُ من الحياة فلا تستقبلها أبدا ! قال :

فاستحيى منه المنصور وأطلقه ، فما رأى له وجهًا حولاً^(١) .
فهذا رجل قد أعلن الحرب على دولة أبي جعفر المنصور ، وهذا
يعني أنه يريد قتله وقتل رجال دولته وإزالة ملكه ، وكان جزاءه أن قدمه
المنصور للقتل لما ظفر به ، ولكنَّ فلتةً من لسان المنصور أنقذت ذلك
الرجل ، فالرجل محارب ولا يعترض على الانتقام منه بالقتل ، لأنه لم
يخرج إلا وقد وطن نفسه لذلك ، ولكنه لم يحتمل قذف وسب أمه ، لأن
أمه لاعلاقة لها بما حدث ، فسبها وقذفها من اتهام الأبرياء ، وقد ذكّر
هذا الرجل الخارجي المنصور بأنه باستطاعته أن يرد عليه بسباب يعلق
بأذهان الناس ، فيتمنى المنصور أنه سلم من إثارة ذلك الرجل ، ولن
يفعل المنصور به أكثر من القتل ، ولن يمنعه من ذلك رجاء الحياة لأنه
قد يئس منها، وقد استحيى المنصور من ذلك الجواب الذي يدل على
أدب رفيع من ذلك الخارجي ، حيث لم يأبه بالقتل وغضب من سماع
قذف أمه، وهذا يدل على نبل المنصور وحلمه، حيث قدر هذا التفكير
العالي من ذلك الرجل فعفا عنه وأطلقه .

(١) تاريخ الطبري ٦٨/٨ .

من مواقف الوزير يحيى بن هبيرة رحمه الله

من الأخلاق العالية التي كان يتحلى بها الوزير أبو المظفر يحيى ابن محمد بن هبيرة في الحلم والعفو عند المقدرة مارواه الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي نقلا عن ابن الجوزي قال : كنا نجلس إلى الوزير ابن هبيرة فيملي علينا كتابه الإفصاح فينا نحن كذلك إذ قدم رجل ومعه رجل ادّعى أنه قتل أخاه فقال له عون الدين: - يعني ابن هبيرة - أقتلته ؟ قال: نعم، جرى بيني وبينه كلام فقتلته، فقال الخصم: سلّمه إلينا حتى نقتله فقد أقرّ بالقتل ، فقال عون الدين: أطلقوه ولا تقتلوه ، قالوا : كيف ذلك وقد قتل أخانا؟ قال: فتبيعونه ؟ فاشتراه منهم بست مائة دينار وسلم الذهب إليهم وذهبوا، فقال للقاتل: اقعدهنا لاتبرح، قال: فجلس عندهم وأعطاه الوزير خمسين دينارًا، فقلنا للوزير: لقد أحسنت إلى هذا وعملت معه أمرًا عظيمًا، وبالغت في الإحسان إليه ، فقال الوزير: منكم أحد يعلم أن عيني اليمنى لا أبصر بها شيئًا؟ فقلنا : معاذ الله، فقال : بلى والله ، أتدرون ما سبب ذلك ؟ قلنا : لا ، قال: هذا الذي خلصته

من القتل جاء إليّ وأنا في الدُّور ومعني كتاب من الفقه أقرأ فيه ومعه سلّة فاكهة ، فقال: احمِل هذه السلّة، قلت له: ما هذا شغلي فاطلب غيري، فشاكلني ولكمني فقلع عيني ومضى ولم أره بعد ذلك إلى يومي هذا، فذكرت ما صنع بي ، فأردت أن أقابل إساءته إليّ بالإحسان مع القدرة^(١) .

فهذا مثل جليل في مكارم الأخلاق ، وذلك في العفو عند المقدرة ومبادلة الإساءة بالإحسان، فلقد كان الوزير عون الدين ابن هبيرة قادرًا على أن يعاقب ذلك الرجل بأن يقتصّ منه كما اعتدى عليه ثم يقيم عليه حد القتل الذي أقرّ به ، أو على الأقل أن يقيم عليه هذا الحد وهو يتشفّى منه ، ولكنه لما رأى مجالا من مجالات الأخلاق العالية بادر إلى العفو عند المقدرة والإحسان إلى من أساء إليه ، وهكذا تسمو النفوس الطموحة إلى معالي الأمور ، وذلك بتحجيم هوى النفس والتخلص من رواسب حب الذات ، وذلك بشراء المعاني السامية

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٣/٢٥٧ .

والمثل العليا بعرض الدنيا الزائل.

وهذا العمل الذي قام به الوزير ابن هبيرة يُعدُّ تطبيقاً لقول النبي

ﷺ: « وأحسنُ إلى من أساء إليك »^(١).

فالذي يحسن إلى من أساء إليه يُعدُّ قد تخلَّق بأعلى منازل الإيثار؛

وتجرد تماماً من الأثرة والأنانية .

(١) ذكره الشيخ الألباني ضمن حديث وقال : هذا إسناد صحيح - سلسلة الأحاديث

الصحيحة (رقم ١٩١١) .

**توجيهات ومواقف
في
التواضع والرحمة**

أمثلة من تواضع النبي ﷺ ورحمته :

رُويت أحاديث كثيرة في تواضع النبي ﷺ وحثه على التواضع ، فمن ذلك ما أخرجه الحافظ الطبراني من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ كان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير»^(١) . فهكذا كان ﷺ في تواضعه في حياته الاجتماعية ولم يكن كزعماء فارس والروم في زخرفهم ومظاهرهم في الجلوس والأكل ، أما حلب الشاة فإنه مظهر من مظاهر التواضع الكبير، لأن الكبراء لا يفعلون ذلك ، وكذلك إجابة دعوة المماليك ونحوهم من الفقراء . ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ كان لا يأكل متكئاً ولا يظأ عقبه رجلاً»^(٢) .

(١) المعجم الكبير ٦٧/١٢ ، وانظر صحيح الجامع الصغير رقم ٤٧٩١ . وقوله «ويعتقل الشاة» يعني ويجلب الشاة .

(٢) مسند أحمد ١٦٥/٢ ، وانظر صحيح الجامع الصغير رقم ٤٧١٦ .

فهذا الحديث يشتمل على صفتين من صفات التواضع .
الأولى : أنه ﷺ كان لا يأكل متكئا ، وأكل الإنسان وهو متكئ له
سلبيات ، منها أن الاتكاء من جلسات الراحة ، والإنسان وهو يأكل
من نعمة الله تعالى ينبغي له أن يتواضع حتى يكون شاكرًا لله جل
وعلا على نعمته ، ومنها إن الإنسان قد يتضرر من الأكل وهو متكئ ،
لأنه يفقد الاعتدال في الجلسة الذي يجعل مجرى الطعام غير طبيعي ،
ولذلك قد يَشْرَق الإنسان بالماء إذا شربه وهو متكئ .
الثانية : أنه ﷺ لم يكن يطاء عقبه رجلان ، بمعنى أنه لم يكن يأذن
للناس أن يمشوا خلفه ، فهذا من تواضعه الجَم ، فلو أنه أذن
للسحابة رضي الله عنهم أن يتبعوه لأوعب أكثرهم خلفه احتراماً له
وتعظيماً ، ولكنهم لم يكونوا يفعلون ذلك لما يعلمون من كراهيته إياه .
ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله
عنها « أن النبي ﷺ كان يخيظ ثوبه ، ويخصف نعله ، ويعمل ما يعمل
الرجال في بيوتهم »^(١) .

(١) مسند أحمد ٦/١٢١ ، وانظر صحيح الجامع الصغير رقم ٤٨١٣ .

فهذه أمثلة من تواضعه ﷺ ، حيث يقوم بشؤونه في البيت بنفسه مع كثرة مشاغله والتزاماته، ومن صفات العظمة في الرجل أن لا تشغله الأمور الكبيرة عن الأمور الصغيرة .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ الترمذي وحسنه من حديث معاذ ابن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : «من ترك اللباس تواضعا لله وهو يقدر عليه دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها» .

وقوله « من أي حلل الإيمان » قال أبو عيسى الترمذي : يعني

ما يعطى أهل الإيمان من حلل الجنة^(١) .

فهذا الحديث فيه ترغيب عظيم في التواضع في اللباس ، بيان ما سيحظى به المتواضع من ثواب جليل في الجنة ، وأن الثمن الذي يقدمه المسلم لشراء تلك السلعة الغالية هو أن يترك اللباس الفاخر وهو يملك ثمنه تواضعا وزهداً في مظاهر الدنيا ، فما أرخص الثمن

(١) سنن الترمذي ، رقم ٢٤٨١ ، كتاب صفة القيامة باب ٢٩ (٤/٦٥٠) .

وما أعظم المثلن!!

ومن ذلك ما أخرجه مسلم وأبو داود رحمهما الله من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى أوحى إلي : أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد»^(١) .

فقد أمرنا رسول الله ﷺ بالتواضع للمؤمنين ، وذكر نتيجتين من نتائج الكبر ، الأولى الفخر بأمور الدنيا كالنسب والمال والجاه ، والثانية البغي والاعتداء على الناس ، والاتصاف بالتواضع يمنع المسلم من الوقوع في تلك المفسدتين المترتبتين على الكبر .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم رحمه الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مانقصة صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وماتواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(٢) .

(١) صحيح مسلم ، رقم ٢٨٦٥ ، كتاب صفة الجنة (ص ٢١٩٩) سنن أبي داود ، رقم ٤٨٩٥ ، كتاب الأدب و باب في التواضع .

(٢) صحيح مسلم ، رقم ٢٥٨٨ ، كتاب البر (ص ٢٠٠١) .

فهذا جزاء عظيم لعمل يسير على من يسره الله تعالى عليه ، وهل يريد المسلم أعظم من رفعة الدرجات يوم القيامة؟! وما روي عن رسول الله ﷺ في خلق التواضع - إضافة إلى مامر معنا من ذلك في استعراض سيرته الشريفة - ما أخرجه الإمام الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه، ولم يُرَ مقدماً ركبته بين يدي جليس له»^(١).

وهذه آداب إسلامية رفيعة مبعثها التواضع ، ويشملها خلق الإيثار ، فهي تقوم على اعتبار تقديم الغير على النفس في أمور الحياة ، سواء في ذلك الأمور المعنوية ، التي تقتضي إعزاز الآخرين والرفع من مكانتهم كما في هذا الحديث ، أو في الأمور المادية التي تقوم على التنازل عن الحقوق المالية لمصلحة الآخرين .

(١) سنن الترمذي رقم ٢٤٩٠ ، القيامة ب٤٦ (٤/٦٥٤) .

ومن الأمثلة التربوية العالية المبنية على الرحمة والتواضع ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شداد عن أبيه رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي الظهر أو العصر وهو حامل الحسن أو الحسين ، فتقدم ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة ، فصلى فسجد بين ظهراي صلاته سجدة أطالها ، فقال : إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت في سجودي ، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس : يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراي صلاتك هذه سجدة قد أطلتها فظننا أنه قد حدث أمر أو أنه قد يوحي إليك، قال: فكل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»^(١) .

وأخرج الإمام البخاري من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص^(٢) على عاتقه ، فصلى فإذا

(١) مسند أحمد ٣/ ٤٩٤ .

(٢) يعني بنت زينب بنت النبي ﷺ .

ركع وضعها وإذا رفع رفعها^(١) .

وهذا منهج تربوي في غاية الرفعة والكمال ، فهو يعطي الصغار حقوقهم الكاملة في العناية والرعاية فينشؤون بنفوس كبيرة وشخصيات قوية تستطيع بعد تهذيب التربية الدينية أن تتحمل المسؤوليات الكبيرة ، ولكن هذه التربية العالية لا يقوى عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة الذين يتواضعون ويبدلون من وقتهم لإنشاء جيل يتحمل المسؤولية في تبليغ هذا الدين وتطبيقه .

وهذا الخلق العالي يكون مبنيا على الرحمة ، وإنما يتصف بذلك من قوي إيمانهم وهذب الإسلام نفوسهم ، ولقد كان لرسول الله ﷺ من ذلك النصيب الأكمل ، فجاءت معاملته للصغار في غاية الكمال التربوي .

وإذا كانت هذه معاملته للأطفال وهو في صلاته وقد انشغل قلبه بما هو أعظم من ذلك، فكيف تكون معاملته إياهم خارج الصلاة؟!!

ومن ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي

(١) صحيح البخاري، رقم ٥٩٩٦، الأدب (١٠/٤٢٦).

جالسًا ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا ،
فنظر إليه النبي ﷺ ثم قال : من لا يرحم لا يرحم .
وأخرجا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قدم ناس من
الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبّلون صبيانكم ؟ فقالوا : نعم ،
فقالوا : لكننا والله مانقبّل ، فقال رسول الله ﷺ : أو أملك إن كان الله
نزع منكم الرحمة ؟^(١) .

وأخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال :
مارأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ ، قال : كان إبراهيم
مسترضعًا له في عوالي المدينة ، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت
وإنه ليدخن - وكان ظئره قينا^(٢) - فيأخذه فيقبّله ثم يرجع^(٣) .

(١) صحيح البخاري رقم ٥٩٩٧ و ٥٩٩٨ ، الأدب (١٠/٤٢٦) ، صحيح مسلم

رقم ٢٣١٨ و ٢٣١٧ ، الفضائل (ص ١٨٠٨) .

(٢) أي كان زوج مرضعة إبراهيم ولد رسول الله ﷺ صانعًا فكان في البيت دخان من
النار التي يوقد بها على الحديد .

(٣) صحيح مسلم رقم ٢٣١٦ ، الفضائل (ص ١٨٠٨) .

فهذه أمثلة من رحمة النبي ﷺ بالصغار ، والأطفال بحاجة ماسة إلى رحمة الكبار لأنهم في حال ضعف، وفي مرحلة الطفولة تتكوّن بداية الأخلاق التي سيكون عليها الأطفال إذا كبروا ، فإذا كانوا يعاملون في صغرهم بالمودة والرحمة واللطف فإنهم ينشؤون على هذه الأخلاق الكريمة ، فيتعاملون بها إذا كبروا ، ويعاملون بها صغارهم ، وهكذا ينشأ شباب الأجيال في حال رشدتهم على ما نشؤوا عليه في حال طفولتهم ، وتتم بذلك حلقات من التربية الإسلامية على مكارم الأخلاق .

وكان ﷺ يتواضع لمن يستخدمهم ويعاملهم بالعناية والرعاية كما يعامل أبناءه كما جاء فيما أخرجه الإمام أبو داود من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا ، فأرسلني يوما لحاجة ، فقلت : والله لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ ، قال: فخرجت حتى أمر على صبيان وهو يلعبون في السوق فإذا النبي ﷺ قابض بقفاي من ورائي ، فنظرت إليه وهو يضحك ، فقال : يا أنيس اذهب حيث أمرتك ؟ قلت: نعم أنا أذهب

يارسول الله ، قال أنس : والله لقد خدمته سبع سنين - أو قال : تسع سنين - ما علمت قال لشيء صنعت لم فعلت كذا وكذا ؟ ولا لشيء تركت هلا فعلت كذا وكذا»^(١) .

وهل نجد مثلاً أعلى من هذا في معاملة الخدم !؟
إن هذه المعاملة الكريمة تُشعر الإنسان المستخدم بكرامته وإنسانيته ولا تلغي وجوده في المجتمع كإنسان يسهم في بناء المجتمع ، والترقي به نحو الكمال ، وهو حينما يخدم أهل النبل والفضل فإنما هو تلميذ في مدرسة تربوية أخلاقية ، ومن المفترض أن يتخرج من هذه المدرسة وهو أعلى ما يكون في سمو الفكر ونبل الأخلاق .
ومن أمثلة تواضعه ﷺ ما أخرجه البخاري من حديث مجاهد بن جبر أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول « الله الذي لا إله إلا هو ، إن كنت لأعتمدُ بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجرَ على بطني من الجوع . ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون

(١) سنن أبي داود رقم ٤٧٧٣ ، الأدب باب ١ (١٣٢/٥) .

منه، فمرَّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعني ،
فمر ولم يفعل ، ثم مرَّ بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته
إلا ليشبعني ، فمرَّ فلم يفعل ، ثم مرَّ بي أبو القاسم عليه السلام فتبسم حين
رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ، ثم قال يا أبا هرّ ، قلتُ : لبيك
رسول الله ، قال: الحقُّ ، ومضى ، فتبعته ، فدخل فاستأذن فأذن لي ،
فدخل فوجد لبناً في قدح فقال: من أين هذا اللبن ؟ قالوا : أهدهُ لك
فلان - أو قال : فلانة - قال: أبا هرّ ، قلتُ لبيك يا رسول الله ، قال:
الحق إلى أهل الصُّفة فادعُهم لي . قال : وأهل الصُّفة أضياف الإسلام
، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتتهُ صدقة بعث بها
إليهم ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هديةً أرسل إليهم وأصاب منها
وأشركهم فيها ، فسأني ذلك ، فقلت : وما هذا اللبن في أهل الصُّفة؟
كنتُ أحقُّ أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوى بها ، فإذا جاءوا أمرني
فكنتُ أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلِّغني من هذا اللبن ، ولم يكن من
طاعة الله وطاعة رسوله عليه السلام بدّ ، فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا فاستأذنوا
فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت. قال : يا أبا هرّ ، قلتُ : لبيك

يارسول الله ، قال: خذ فأعطهم ، فأخذتُ القدح فجعلتُ أعطيه الرجل فيشربُ حتى يروى ، ثم يردُّ عليَّ القدح فأعطيه الرجل فيشربُ حتى يروى ، ثم يرد عليَّ القدح ، فيشرب حتى يروى ، ثم يردُّ عليَّ القدح ، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روي القوم كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده ، فنظر إليَّ فتبسم فقال: أبا هر ، قلت لبيك يارسول الله ، قال : بقيتُ أنا وأنت : قلتُ صدقت يارسول الله ، قال: اقعد فاشرب ، فقعدتُ فشربت ، فقال: اشرب ، فشربت ، فما زال يقول : اشرب ، حتى قلتُ : لا والذي بعثك بالحق ، ما أجدُّ له مَسَلْكا . قال : فأرني ، فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمَّى وشرب الفضلة»^(١) .

فهذا حديث عظيم يبين لنا عددا من الأمور المهمة :
فهو يبين أولاً وصفاً لسنوات من حياة الصحابة رضي الله عنهم عاشوا فيها في شظف من العيش وتعرضوا للجوع الشديد فصبروا

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٤٥٢ ، الرقاق (١١ / ٢٨١) .

على ذلك صبرا جميلا ، وكان السبب الأساسي في ذلك هو هجرتهم إلى الله تعالى ورسوله ﷺ ، حيث هاجروا من بلدانهم إلى المدينة وتركوا أموالهم في بلادهم وراء ظهورهم ، فتحوّلوا فجأة من أغنياء أو متوسطي الحال إلى فقراء لا يجدون ما يكفي لضرورة المعيشة ، ولم يكن ذلك التحوّل المفاجئ بالذي يشدهم إلى العودة إلى حياة الرخاء ويهون من عزائمهم في البقاء على هجرتهم ، ذلك لأنهم يحملون معاني سامية وأهدافاً عالية تشدهم إلى البقاء وتلغي من أفكارهم النظر إلى الماديات وإن كانت في محيط الضرورات .

ويبين لنا هذا الحديث ثانياً مثلاً من رحمة النبي ﷺ حيث قام بمواساة أولئك الكرام الذين ضحوا بسعادتهم المادية في مقابل الظفر بالسعادة الروحية فهاجروا من بلادهم وتركوا أموالهم ، فحينما وجد ذلك اللبن تذكّر على الفور أصحاب الصّفّة الذين يمسّهم الجوع أحياناً فاستدعاهم ليشاركوه وأبا هريرة في ذلك اللبن ، فهذا مثل بليغ في المواساة الرحيمة والشعور بالمسؤولية عن المسلمين الذين قعدت بهم ظروفهم المعيشية عن تحصيل القدر الضروري للحياة الكريمة .

ويبين لنا هذا الحديث ثالثاً أن من مظاهر السمو الفكري والشفافية الحانية في المشاعر أن يتلمس القائد احتياج المحتاجين وإن كانوا في حال غياب عن ناظره وأن لا يقتصر في نظراته ومشاعره على من حضر عنده أو جمعته بهم المجمع ، فليس حضور الحاضرين بالذي يرفع من مستوى احتياجهم ، وليس غياب الغائبين بالذي يخفض من ذلك ، وليست مقاصد مجاملة الحاضرين بالتي تغلب على مقاصد مواساة ذوي الحاجات من الغائبين عند العظماء الذين بلغوا كمال الرقي الأخلاقي .

إن الذي ينظر في تقييم الأمور إلى عالم الحس والمشاهدة ويغفل عن عالم الغيب يكون تأثره بجوانب طلب المحمدة والمجاملة أكثر من تأثره بجوانب العاطفة والوجدان .

وإنه من أجل ملاحظة هذه المعاني الكريمة والمقاصد النبيلة نجد أن النبي ﷺ قد صبر على احتمال منظر أبي هريرة وهو يتلو من الجوع من أجل أن يشبع بطونا أخرى جائعة قد غابت عن ناظره ولكنها كانت مهمينة على مخيلته وتفكيره ليُحيلَ أكبر عدد ممكن من حياة

البؤس على حياة السعادة وليرى في قسّات وجوههم مظاهر البشر والفرح بدلاً من أن يرى ذلك في وجه رجل واحد .

وفي الحديث إشارة إلى أن الحق في الإسلام يصل إلى مستحقه دون أن يطلبوه ، ليستوي الجميع في إمكانية الحصول على حقوقهم ولا يؤثر في ذلك قوة القوي فيأخذ ولا ضعف الضعيف فيهمّل .

وإذا كان أبو هريرة قد ركّز في هذا الخبر على نفسه فإنه إنما كان مدفوعاً إلى ذلك بما كان يعانيه من جوع منهك قد جعله أسير النظر إلى تلبية الضرورة التي كان يعاني منها ، إضافة إلى ما يراه من قلة اللبن الذي لا يزيد عن كفاية اثنين وعدم تصوّره - مع تلك الحال من الاضطرار - أنه أمام نبي عظيم قد حباه الله تعالى بالمعجزات الخارقة التي منها تكثير الطعام والشراب بين يديه ،

وأخيراً فإن هذا الحديث مثل بليغ على تواضع رسول الله ﷺ حيث شرب آخر القوم ، وأهل الصفة كانوا كلهم من الفقراء ، وإن التواضع يكون جليلاً إذا صدر من الرجل الكبير لضعفاء الناس ومساكينهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ عظيم التواضع لجميع الناس

على مختلف طبقاتهم .

ولقد امتد تواضعه ﷺ ليشمل البادية كما شمل الحاضرة ، ومن ذلك ما أخرجه الإمامان البزار والطبراني من حديث سالم بن أبي الجعد عن رجل من أشجع يقال له زاهر ابن حرام رجل بدوي، وكان لا يزال يأتي النبي ﷺ بطرفة أو هدية ، فرآه النبي ﷺ في سوق المدينة يبيع سلعة ، ولم يكن أتاه في ذلك الوقت ، فاحتضنه من وراء كتفه ، فالتفت فأبصر النبي ﷺ فقبل كفه ، فقال: من يشتري العبد ؟ فقال: إذا تجدني يارسول الله كاسدا ، قال: لكنك عند الله ربيع ، فقال ﷺ : لكل حاضر بادية ، وبادية آل محمد زاهر بن حرام ^(١) .

وهذا مثل عال للمزح التربوي ، الذي يهدف إلى رفع الكلفة ، وتوثيق الصلة ، فإن الإنسان إذا من الله عليه بالسمعة العالية ، والمكانة الرفيعة ، تكون له في النفوس هيبة قد تمنع من الاستفادة منه فيما إذا كان مسؤولاً إدارياً ، أو عالماً مريباً ، وقد تمنعه من الاستفادة

(١) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ٢/ ٥٦٥ - ٥٦٦ ، رقم ٨٩٤٨ .

من الناس في فهم واقع المجتمع الذي تنبني عليه بعض الفتاوى والأحكام ، فإذا جرى من المسؤول أو العالم المربي نوع من هذا المزح الهادف فإنه يفتح مغاليق النفوس ويزيل الحرج من الصدور .

وهذا المزح التربوي إنما يكون مبنيًا على الرغبة الصادقة في إصلاح المجتمع وتقويمه مع التخلق بخلق التواضع .

ونجد رسول الله ﷺ يجعل من نفسه مثلاً عالياً في التواضع لرعيته الذين ولاه الله أمرهم حيث يقول له عمه العباس رضي الله عنه : إني رأيتهم قد آذوك وآذاك غبارهم ، فلو اتخذت عريشاً تكلمهم منه ، فقال : لا أزال بين أظهرهم يطؤون عقبي وينازعونني ردائي حتى يكون الله هو الذي يريحني منهم « أخرج الإمام الدارمي ^(١) .

وهي سنة يسنها رسول الله ﷺ للولادة والمربين من بعده حيث تواضع لأفراد أمته ، فعاش معهم كواحد منهم ولم يرض أن يتميز عليهم بشيء .

(١) سنن الدارمي رقم ٧٥ ، المقدمة باب ١٤ .

وإن التواضع لله أولاً ثم للمخلوقين دليل على سمو الفكر
وكمال العقل ، ولذلك جاءت توجيهات النبي ﷺ بالتخلق بهذا الخلق
الرفيع ، وذلك لأن الشريعة الإسلامية جاءت من عند الله تعالى لترفع
من مستوى العقل البشري ولتميز أصحاب الأفكار السوية
وتوجههم نحو الإصلاح والقيادة التربوية .

وتذكر عائشة رضي الله عنها وصفاً جامعاً لما يتصف به رسول
الله ﷺ من السماحة والتواضع والإيثار حيث تقول : « ماخيراً رسول
الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد
الناس منه ، وما انتقم ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها »
أخرجه الإمامان البخاري ومسلم^(١) .

وهذا مثل رفيع من أمثلة التواضع والسماحة والتجرد من حظ
النفس ، فإن النفوس مجبولة على الغيرة لحرمتها ، والعمل لجلب
حظوظها ، ولكن كلما قوي الإيمان بالله تعالى تضاءلت الأنانية وقوي

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٥٦٠ ، المناقب (٦/٥٦٦) ، صحيح مسلم رقم ٢٣٢٧ ،
الفضائل (ص ١٨١٣) .

خلق الإيثار ، حتى إذا بلغ الإيمان كماله لم يُعد في تفكير الإنسان نظر لحظ النفس وأصبح يعيش لإخوانه ومجتمعه الإسلامي ، ولقد بلغ رسول الله ﷺ أعلى درجات الإيمان ، فليس غريبا أن يكون أعلى نموذج في هذه الأرض لتمثيل مكارم الأخلاق .

ولم تقتصر رحمة النبي ﷺ على الإنسان بل تجاوزت ذلك إلى الحيوان ، فمن ذلك ما أخرجه الإمام أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته ، فرأينا حُمرةً معها فرخان فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تُعرّش^(١) ، فجاء النبي ﷺ فقال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها .

قال : ورأى قرية نمل قد حرقناها ، فقال : من حرق هذه ؟ قلنا : نحن ، قال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار^(٢) .
وأخرج أبو داود أيضًا من حديث عامر الرام أخي الخضر رضي

(١) يعني ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها .

(٢) سنن أبي داود رقم ٥٢٦٨ ، كتاب الأدب (٥/٤١٩) .

الله عنه قال : إني لبلادنا إذ رُفعت لنا رايات وألوية ، فقلت : ما هذا ؟
قالوا : هذا لواء رسول الله ﷺ فأتيته وهو تحت شجرة قد بُسط له رداء
وهو جالس عليه وقد اجتمع إليه أصحابه .. ثم ذكر خبرا إلى أن قال :
فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه
فقال : يا رسول الله إني لما رأيتك أقبلت فمررت بغیضة شجر فسمعت
فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن ، فوضعتهن في كسائي ، فجاءت
أمهن فاستدارت على رأسي ، فكشفت لها عنهن فوقع عليهن
معهن ، فلففتهن بكسائي فهن أولاء معي ، فقال : ضعهن عنك ،
فوضعهن وأبت أمهن إلا لزومهن ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه :
أتعجبون لرحم أم الفراخ فراخها ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال :
فوالذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الفراخ بفراخها ، ارجع
بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن ، فرجع بهن ^(١) .
وأخرج أبو داود أيضا من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله

(١) سنن أبي داود رقم ٢٩٦٣ ، أول كتاب الجنائز (٢٧٣٤) .

عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدث به أحدا من الناس ، وكان أحبُّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا أو حائش نخل ، قال : فدخل حائطًا لرجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه ، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفْرَاهُ^(١) فسكت ، فقال: من ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال : لي يارسول الله ، قال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟ فإنه شكى إلي أنك تجيعه وتُدبِّبه^(٢) .
وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه^(٤) .

وفي هذه الأخبار وغيرها تعليم من رسول الله ﷺ لأُمَّته بوجوب الرفق بالحيوان وعدم إيذائه ، ولزوم التيسير عليه في العمل وتوفير الغذاء الكافي له ، فليعلم الذين يظنون أن الدول الغربية هي أول من

(١) أي مؤخر رأسه .

(٢) يعني تتعبه في العمل .

(٣) سنن أبي داود رقم ٢٤٣٩ ، كتاب الجهاد (٣/٣٨٦) .

(٤) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٣/١٧٥٥ رقم ١٧٥٤ .

أنشأ جمعيات الرفق بالحيوان بأن الإسلام قد سبقهم بتوجيه جميع
أفراد الأمة الإسلامية إلى الإحسان إلى جميع الأحياء ، وتوفير الحياة
الملائمة لكل حي بلا ظلم ولا تقصير .

من مواقف الخليفين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها.. وذكرت خبر غزوة الأحزاب وبني قريظة وخبر استشهاد سعد ابن معاذ رضي الله عنه من أثر الجرح الذي أصابه .. إلى أن قالت: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، قالت: فو الذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله عز وجل ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ^(١) .

إننا لنجد في هذا الخبر صورة من تآلف الأرواح بين الصحابة رضي الله عنهم، وبروز مظاهر الرحمة والعطف في مجتمعهم . وهو مظهر من مظاهر الحب في الله تعالى والإخاء الإيماني فإن سعد بن معاذ الأنصاري ليس بينه وبين أبي بكر وعمر قرابة ولانسب إلا نسب الإيثار الذي جمع بين القلوب المختلفة وكوّن منها مجتمعا قويا متماسكا ، رضي الله عن الصحابة أجمعين .

(١) مسند أحمد ٦/١٤٢ .

وهو أيضاً مظهر من مظاهر الاعتراف بفضل ذلكم المؤمن
المجاهد حيث تتسلسل أحداث جهاده على شريط الذاكرة فتنعكس
صورتها في تأثر ضاغط تَشْفُّ له النفوس وتتحدّر له الدموع.

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

من مواقف الرحمة والتواضع مارواه أبو عبيد بن سلام بإسناده
قال: بينا عمر نِصْفَ النهار قائل في ظل شجرة ، وإذا أعرابية
فتوسمت الناس ، فجاءته فقالت: إني امرأة مسكينة ولي بنون، وإن
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان بعث محمد بن مسلمة ساعياً^(١) فلم
يعطنا ، فلعلك - يرحمك الله - أن تشفع لنا إليه !

قال : فصاح بيرفاً^(٢) : أن ادْعُ لي محمد بن مسلمة ، فقالت: إنه
أنجح لحاجتي أن تقوم معي إليه، فقال: إنه سيفعل إن شاء الله ،
فجاءه يرفاً فقال : أجب ، فجاء فقال : السلام عليكم يا أمير المؤمنين،

(١) الساعي هو الذي يجبي الصدقة ويقسمها بين مستحقيها .

(٢) يعني غلام عمر .

فاستحيت المرأة ، فقال عمر : والله ما ألو^(١) أن أختار خياركم ، كيف أنت قائل إذا سألك الله عز وجل عن هذه؟! فدمعت عينا محمد ، ثم قال عمر : إن الله قد بعث إلينا نبيه ﷺ فصدقناه واتبعناه ، فعمل بما أمره الله به ، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين حتى قبضه الله على ذلك، ثم استخلف الله أبا بكر فعمل بسنته حتى قبضه الله ، ثم استخلفني فلم أُل أن أختار خياركم، إن بعثت فأد إليها صدقة العام و عام أول ، وما أدري لعل لا أبعثك ، ثم دعا لها بجمل فأعطها دقيقا وزيتا ، وقال : خذي هذا حتى تلحقينا بخير فإننا نريدها ، فأتته بخير فدعا لها بجملين آخرين وقال: خذي هذا فإن فيه بلاغا حتى يأتيكم محمد بن مسلمة، فقد أمرته أن يعطيك حقك للعام و عام أول^(٢) .

فهذا مثل من رحمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وعطفه على الضعفاء ، حيث اهتم بأمر تلك المرأة المسكينة وعاتب من أجلها

(١) أي ما أقصر .

(٢) الأموال / ٥٩٩ .

محمد بن مسلمة رضي الله عنه ، مع أنه لم يتعمد تركها، ومثّل من خشية الله تعالى يقدمه محمد بن مسلمة حينما ذكره أمير المؤمنين بالله تعالى فبكى من خشيته .

فما أعظم ذلك المجتمع الذي يتأثر فيه أعلى مسؤول فيه وأحد كبار رجال دولته من أجل امرأة مسكينة !!

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر زيد بن أسلم عن أبيه : أن عمر رضي الله عنه استعمل مولى له يدعى هنيئاً على الحمى ، وقال له : اضمم جناحك عن الناس ، واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مجابة ، وأدخل ربّ الصّريمة والغنّيمة ^(١) ، وإياي ونعم ابن عوف ، وإياي ونعم ابن عفان، فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع ، وإن رب الغنّيمة ورب الصرّيمة إن تهلك ماشيته جاءني ببنيه فقال : يا أمير المؤمنين ، أفتاركهم تا الله لا أبالك ^(٢) ،

(١) الصرّيمة بالتصغير القطعة من الإبل ، والغنّيمة بالتصغير القطعة من الغنم .

(٢) كلمة مدح معناها لاكافي لك إلا نفسك .

فالماء والكلاء أهون علي من الذهب والورق^(١) ، وإيم الله إنهم ليرون
أني قد ظلمتهم ، وإنما لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا
عليها في الإسلام ، ووالذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في
سبيل الله ما حيت عليهم من بلادهم شبرا^(٢) .

فهذا مثل من رحمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالفقراء
الذين ليس لهم إلا مورد واحد في الرزق ، فإذا قُطع هذا المورد
هلكوا، وفي مقارنة عمر بين هؤلاء الضعفاء والأغنياء دلالة على
اهتمامه بشأن الضعفاء وأنه يقدمهم على الأغنياء ، وإن كان هؤلاء من
كبار أهل الحل والعقد كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي
الله عنهما .

وهذه النظرة العادلة من أسباب استقامة المجتمع وسلامته من
الاضطراب والخلل ، لأن الفقراء ومتوسطي الحال هم القطاع الكبير
في المجتمعات ، فإذا كان الوالي يهتم بشأنهم فإنه يضمن شمول حياة

(١) يعني الفضة .

(٢) تاريخ المدينة المنورة / ٨٣٩ - ٨٤٠ .

الأمن والرخاء في المجتمع ، أما الأغنياء فإنهم يستطيعون أن يُسيروا أمورهم بأمورهم التي تتعدد - عادة - مصادرها .

وهذه النظرة التربوية تعدُّ امتدادًا لمفعول الجهاد الدعوي ، حينما قضى المسلمون على الطبقة السائدة في العالم آنذاك، حيث كان الضعفاء حاشية للأغنياء يُسخَّرُونهم لما يريدون ، وفي ذلك شلل للفكر الإنساني وقضاء على حياة الإبداع والنبوغ ، لأن فكر المجموعة من الناس يكون مرتبطاً بفكر رجل واحد ، والذي عمَّق تلك الطبقة وحوَّلها إلى نظام اجتماعي هو اهتمام المسؤولين بالأقوياء وإهمالهم الضعفاء .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر فضيل بن زيد الرقاشي قال: سَرَتْ سرية على عهد عمر رضي الله عنه على أرجلهم ، فأعيا رجل فأراد أن يقيموا عليه فرفض أمير السرية فنادى: يا عمّراه ، فمضوا وتركوه ، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه ، فكتب إلى أبي موسى [يعني الأشعري] رضي الله عنه : أن ابعث إليّ بالرجل ، فبعث به إليه فأخذ قناةً فجعل يضربه بها ويقول : يالبيكاه ، ويقول : يامهلك ، يقول لك الرجل انتظرنى فتذهب وتتركه فينادي: يا عمّراه ؟ فجعل

يعتذر إليه ، فقال : والله لَصَلاح رجل من المسلمين أحب إلي من هلاك كذا وكذا من أهل الشرك ، وكتب إلى أبي موسى رضي الله عنه : انظر مُهَلِّكًا فلا تستعمله ما كنتَ لنا على عمل^(١) .

فهذا مثل من رحمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالمسلمين وشفقته عليهم، وهذا الخبر وأمثاله يدلنا على أن ما اشتهر عنه من الشدة والقوة ليس صفة ملازمة له في كل أحواله ، بل كان شديدًا في محل الشدة وليّنًا في محل اللين .

وقول عمر «لَصَلاح رجل من المسلمين أحب إليّ من هلاك كذا وكذا من أهل الشرك» مثال لعزة المسلم ومقدار قيمته في هذه الحياة .. فأين الذين لا يباليون بأرواح المسلمين ولا يطالبون بدمائهم من هذا المثل الأعلى ؟ !

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر زيد ابن وهب قال: خرج جيش في زمن عمر رضي الله عنه نحو الجبل ،

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨١٢ .

فانتهوا إلى نهر ليس عليه جسر ، فقال أمير ذلك الجيش لرجل من أصحابه : انزل فابغنا مخاضة نجوز فيها ، وذلك في يوم بارد شديد البرد ، فقال الرجل: إني أخاف إن دخلت الماء أن أموت ، فأكرهه فقال : يا عَمْرَاهُ يا عَمْرَاهُ، ثم لم يلبث أن هلك، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه وهو في سوق المدينة فقال : يالبيكاه يالبيكاه ، وبعث إلى أمير ذلك الجيش فنزعه ، وقال له : لولا أن تكون سنة لأَقَدْتُ منك ، لا تعمل لي على عمل أبدا^(١) .

وهكذا تأثر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لموت ذلك الرجل ، حتى همَّ بقتل ذلك الأمير به تعزيراً لولا أنه خشي أن يقتدي الولاية به في ذلك ، فاكتفى بعزل ذلك الأمير عن أي عمل في الدولة ، وهذا مثل آخر يدل على اتصاف أمير المؤمنين عمر بالرحمة والشفقة بالأمة .
ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبيد الله بن عمر بن حفص : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمل قربة على

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨١٢ .

عنقه ، فقال له أصحابه : يا أمير المؤمنين ما حملك على هذا ؟ قال : إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها ^(١) .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عمر المخزومي قال : نادى عمر بن الخطاب بالصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه - عليه الصلاة والسلام - ثم قال : أيها الناس لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم ، فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب ، فأظل يومي ، وأي يوم ، ثم نزل ، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قميت نفسك - يعني عبت ، فقال : ويحك يا ابن عوف ، إني خلوت فحدثتني نفسي قالت : أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها نفسها ^(٢) .

فهذا السلوك قد جرى أيضاً من صحابة آخرين ، وهذا شاهد على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يجاسبون أنفسهم حتى على

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٣١٨ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/٣١٤-٣١٥ .

الخطرات ، وأنهم يحافظون على مستوى إيمانهم ، فيسعون إلى زيادته بالطاعات ، ويحذرون من نقصه بالمخالفات ، حتى لو كان ذلك من هواجس النفس التي لم يترتب عليها عمل .

إنهم أطباء القلوب الماهرون في علاج أمراضها ، ولما كان الإعجاب بالنفس من الأمراض الخطيرة فإن علاجه عندهم هو محاولة إذلال النفس أمام الناس ليكون المؤمن بريئاً حتى من الهواجس وإيحاءات الضمير .

فله دُرُّهم ما أدق ملاحظاتهم !!

وما أقدرهم على كبح جماح نفوسهم !!

وفي هذا المعنى أخرج الحافظ ابن عساكر أيضاً من خبر سعيد بن المسيب قال: حج عمر فلما كان بَصَجْنَانَ قال: لا إله إلا الله العلي العظيم المعطي ماشاء لمن شاء ، كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف ، وكان فظاً ، يتعبنى إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيت ليس بيني وبين الله أحد ، ثم تمثل :

لاشيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويؤدي المال والولد

لم تغن عن هرمرز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فماخلدوا
ولاسليمان إذ تجري الرياح له والأنس والجن فيما بينهم برؤ
أين الملوك التي كانت نواهلها من كل أوب إليها راكب يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب لابد من ورده يوماً كما وردوا^(١)
فهذا مثل من تواضع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وشكره الله
تعالى، حيث ذكر ماضيه يوم أن كان راعي إبل ثم أصبح راعي أعظم
أمة على وجه الأرض ، وقد تمثل بهذه الأبيات الشعرية التي تُذكر
بعدم الخلود لشيء في هذه الحياة الدنيا مهما بلغ من الرفعة والقوة ،
وإن في ذلك لعبرة وذكرى لصاحب العقل السليم ، حتى لا يغتر بما
لديه من جاه وقوة ، فإن مصير ذلك إلى الزوال .
ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ عمر بن شبة النميري من خبر نُعيم
ابن هزال رضي الله عنه قال قال عمر رضي الله عنه : تجد الرجل يلبس
الصوف لو ظلم ما انتصر وإن قلبه في ذلك لمملوء كبيراً وإعجاباً ،

(١) تاريخ دمشق ٣١٦/٤٤ .

وإنك لتجد الرجل يتجمل في ثيابه وفي كثير من أمره وإن في قلبه الخشوع والتواضع ، وذلك أملك التواضع بالعبد^(١) .

ففي هذا الخبر بيان أهمية التواضع ، وأن الحكم على الناس ينبغي أن يكون منطلقاً من أخلاقهم وأعمالهم ، لا من مجرد مظاهر النسك والعبادة فيهم ، فالعبادة إذا أثمرت التخلق بالغرور والإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق ولم تثمر التخلق بالتواضع والاستقامة في السلوك فإنها عبادة ينقصها الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى .

إن من أهم فوائد الشعائر التعبدية أنها تربي المسلم في الدنيا على استقامة السلوك والتخلق بمكارم الأخلاق ، وتوصل في الآخرة إلى رضوان الله جل وعلا ورفع الدرجات في الجنة ، فإذا كانت تؤدي إلى مساوئ الأخلاق ، من الغرور والكبر والإعجاب بالنفس فإن صاحبها قد خسر خسراناً مبيناً وظلم نفسه ظلماً كبيراً .

ومن أمثلة تواضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة / ٨٥٦ .

وشكره لنعمة الله تعالى ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر قتادة
السدوسي قال: كان عمر بن الخطاب يلبس وهو أمير المؤمنين جبة
صوف مرقوعة ، بعضها بأدم^(١) ، ويطوف الأسواق على عاتقه الدرّة^(٢)
يؤدب الناس بها ، ويمر بالنكث^(٣) والنوى فيلتقطه ، ويلقيه في منازل
الناس لينتفعوا بذلك^(٤) .

ومن مواقفه رضي الله عنه في التواضع ما رواه زيد بن ثابت
رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - جاء يستأذن
عليه يوماً فأذن له ورأسه في يد جارية له تُرجّله ، فنزع رأسه ، فقال له
عمر : دعها ترجله، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ جئتك ،
فقال عمر : إنما الحاجة لي . (أخرجه الإمام البخاري)^(٥) .

(١) أي مرقوعة بجلد .

(٢) بكسر الدال العضا .

(٣) بكسر النون الغزل المتقوض .

(٤) تاريخ دمشق ٤٤ / ٣٠٣ .

(٥) الأدب المفرد ، رقم ١٣٠٢ ، باب ٦٢٩ ، ص ٤٤٢ .

في هذا الخبر مثل من التواضع الجم الذي كان يتصف به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان أكبر أمير على وجه الأرض في ذلك العهد ، ومع ذلك يأتي إلى بيت أحد شباب الصحابة ، وقد أكبر ذلك زيد بن ثابت رضي الله عنه فقال له عمر : « إنما الحاجة لي » وفي هذا إشارة إلى أن صاحب الحاجة هو الذي يذهب لمن عنده قضاء حاجته ، وإن كان صاحب الحاجة أكبر سنًا ومنزلة ، وهذا يبين أنه ليس من الأصول المرعية أن يستدعي صاحب الحاجة من عنده قضاء حاجته وإن كان صاحب الحاجة أكبر منصبًا وأعلى منزلة .

من مواقف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله الرومي قال : كان عثمان بن عفان يأخذ وضوءه لنفسه إذا قام من الليل ، فقيل له : لو أمرت الخادم فكفتك ! قال: لا، الليل لهم يستريحون فيه^(١) .

فهذا مثل من اتصاف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالرحمة ، فهو مع كبر سنه وعلو منزلته الاجتماعية يخدم نفسه في الليل ولا يوقظ الخدم ، وإن وجود الخدم من تسخير الله تعالى للمخدومين ، وإن مما ينبغي للمسلم الذي سخر الله تعالى له من يخدمه أن يتذكر أن الخادم إنسان مثله له طاقة محدودة في العمل ، وله مشاعر وأحاسيس فينبغي له أن يراعي مشاعره، وأن ييسر له الراحة الكاملة في النوم ، وأن لا يشق عليه بعمل .

(١) تاريخ دمشق ٢٣٦/٣٩ .

من مواقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر صالح بن أبي الأسود
عمن حدثه أنه رأى علياً قد ركب حماراً ودلى رجليه إلى موضع واحد،
ثم قال: أنا الذي أهنت الدنيا ^(١) .

وهكذا يشعر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه
بالفرح لانتصاره على نفسه ، وظهوره بمظهر التواضع أمام الناس
وهو خليفة المسلمين .

إن مناصب الدنيا خداعة غرارة، وإن فتنة الجاه بها أعظم من فتنة
المال، فلطالما رأى الناس مسؤولين كانوا متواضعين قبل أن يلوا، فلما
تولوا مناصب كبيرة بدأ التعاضم في نفوسهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون
من الصعب في آخر الأمر مخاطبتهم واللقاء معهم، لكن أولياء الله
المتقين كلما ازدادوا رفعة في المناصب الدنيوية زادوا تواضعاً للناس ،
وشعروا بالسرور وهم يقومون بمظاهر التواضع التي تنفي عنهم

(١) البداية والنهاية ٨ / ٥ .

صفة التجبر والكبرياء.

ومن أخبار تواضعه رضي الله عنه ما روي عنه أنه اشترى تمرًا بدرهم فحمله في ملحفة ، فقالوا: نحمل عنك يا أمير المؤمنين ، قال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل ^(١) .

فهذا مثل من تواضعه حيث حمل متاعه بنفسه مع كونه أمير المؤمنين ومع كبر سنه ، فلم يرَ في ذلك مسوغًا لقبول خدمة الناس له ، وهو بهذا يجعل من نفسه قدوة حسنة للمسلمين في التواضع ، فلو نازعت أحد الكبراء نفسه في تصور العيب من حمل المتاع فإنه بتذكُّره لموقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يزول ما في نفسه من ذلك ، ولو اعترض على أحد المتواضعين معترض فإن له من الاقتداء بأكبر أمير على وجه الأرض ما يرد هذا الاعتراض .

(١) الزهد للإمام أحمد / ١٣٣ .

من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر ثعلبة ابن أبي مالك أن أبا هريرة أقبل في السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة مروان فقال : أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك ، قال فقلت : أصلحك الله تُلقي هذا ، فقال : أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه^(١) .

فهذا مثل مما كان يقوم به الصحابة رضي الله عنهم من مظاهر التواضع ، إما للتهوين من شأن النفس إذا أرادت أن تطمح لشيء من الجاه والمنزلة في الدنيا ، أو من باب التعليم والقدوة الحسنة ليثبتوا للناس أن المناصب لا تغريهم ، ولا تحملهم على شيء من العجب والكبرياء .

وقد تكرر هذا المشهد من علي بن أبي طالب وسلمان وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم وكلهم كانوا - آنذاك - أمراء ، ولقد أثبتوا لمن عاصرهم من التابعين ولمن جاء بعدهم أنهم أعلى تفكيرًا وأبعد

(١) البداية والنهاية ٨ / ١١٤ .

طموحًا من أن تؤثر عليهم مناصب الدنيا ، لأنهم إنما أرادوا الآخرة ،
ومن أراد الآخرة أهان من أجلها الدنيا .

من مواقف عبد الله بن سلام رضي الله عنه :

أخرج الإمام أحمد من خبر عبد الله بن حنظلة أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه مرَّ في السوق وعليه حزمة من حطب ، فقيل : أليس الله أعفأك من هذا ؟ قال: بلى ، ولكن أردت أن أدفع به الكبر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر »^(١) .

وهكذا يقوم عبد الله بن سلام رضي الله عنه بتطهير قلبه من مرض من أكبر أمراض القلوب، حيث يقوم بإذلال نفسه بذلك السلوك الذي قام به حتى لا يتطرق إلى قلبه مثقال حبة خردل من كبر، وكم هو شعور الفرح لديه وهو يمارس ذلك العمل الذي يحس معه بأنه قد نجح في كبح جماح النفس عن الشرف والجاه الرفيع !!

(٢) الزهد/ ١٨٢ .

من مواقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر حبيب بن أبي ثابت قال : خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس ، فقال لهم : ألكم حاجة ؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك ، قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع^(١) .

فهذا مثل على تواضع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وتعليه المذكور فيه نوع من الفقه الدقيق لمداخل الضعف في النفوس ، وتغليب لجانب حفظ الدين وحمايته ، فكم من مخدوع بتبعية الناس له ووطئهم عقبه أضر بآخرتهم ولم يخرج من الدنيا إلا بمقت الناس واحتقارهم ، وعلى فرض محبة الناس للمتبوع فإن ذلك تربية لهم على الذلة والخنوع .

(١) صفوة الصفوة ١/٤٠٦ .

من مواقف المقداد بن عمرو رضي الله عنه^(١)

من ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من حديث عبد الرحمن بن نُوَيْر عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً فمرَّ به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لو ددنا أنا رأينا مارأيت وشهدنا ماشهدت، فاستمعتُ فجعلتُ أعجب ما قال إلا خيراً، ثم أقبل عليه فقال: ما يحمل أحدكم على أن يتمنى محضراً غيبه الله عز وجل عنه، لا يدري لو شهدته كيف يكون فيه، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوامٌ كبَّهه الله عز وجل على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه، أولاً تحمدون الله إذ أخرجكم الله عز وجل لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم عليه الصلاة والسلام وقد كفيتم البلاء بغيركم؟ والله لقد بُعث النبي ﷺ على أشد حال بُعث عليه نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في فترة وجاهلية، ما يرون ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان

(١) هو المقداد بن عمرو القضاعي، ولكن غلب عليه الانتساب للأسود لأنه كان قد حالف الأسود بن عبد يغوث الزهري القرشي فتبَّاه - المستدرک ٣ / ٣٤٨ - .

فرق به الحق والباطل ، وفرق به بين الوالد وولده ، حتى إن الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافرًا وقد فتح الله تعالى قفل قلبه للإيمان لِيَعْلَمَ أنه قد هلك من دخل النار فلا تَقَرُّ عينه وهو يعلم أن حميمه في النار ، وإنما لَلَّتِي قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] ^(١) .

فهذا مثل من أمثلة التواضع وعدم الغرور بالفضيلة التي لا يوصل إليها ، فقد أشاد ذلك الرجل بالمقداد لكونه رأى النبي ﷺ ، فلم يفتخر المقداد بدرجة الصحبة التي لا يستطيع التابعون ولا غيرهم أن يصلوا إليها ، وأنكر على ذلك التابعي تمنيه لقاء النبي ﷺ لأن ذلك ليس في إمكانه ، ووجهه ومن حوله من التابعين إلى أن يحمدا الله تعالى على أنهم نشؤوا في الإسلام ولم يتعرضوا للبلاء الذي تعرض له الصحابة ، وإن مقتضى حمد الله جل وعلا على الهداية أن يستقيم المسلم على تكاليف هذا الدين وأن يكثر من الأعمال الصالحة .

(١) حلية الأولياء ١/ ١٧٥ - ١٧٦ ، وانظر صفة الصفوة ١/ ٤٢٤ .

وإذا كان غير الصحابة لم يتمكنوا من لقاء النبي ﷺ في الدنيا فإن
لصاحبي أمته موعدًا معه للقاء يوم القيامة ، فليفكر المسلم بذلك
اللقاء المحقق وليُعدَّ له عدته .

وهكذا نجد الصحابة رضي الله عنهم تربويين يدفعون الناس إلى
العمل الذي ينفعهم في حياتهم الدنيا والأخرى ، ولا يتركونهم
لأحلامهم التي لا شيء وراءها .

من مواقف حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما :

عن ابن سيرين رحمه الله قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث أميرًا كتب إليهم : إني قد بعثت إليكم فلانا وأمرته بكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا ، فلما بعث حذيفة رضي الله عنه إلى المدائن كتب إليهم : إني قد بعثت إليكم فلانا فأطيعوه ، فقالوا : هذا رجل له شأن ، فركبوا ليتلقوه ، فلقوه على بغل تحته إكاف وهو معترض عليه ، رجلاه من جانب واحد فلم يعرفوه فأجازوه - يعني مرُّوا به وخلفوه - فلقبهم الناس فقالوا : أين الأمير ؟ قالوا : هو الذي لقيتم ، قال : فركضوا في أثره فأدركوه وفي يده رغيف وفي الأخرى عَرَق - يعني قطعة لحم - وهو يأكل ، فسلموا عليه ، فنظر إلى عظيم منهم فناوله العَرَق والرغيف ، قال : فلما غفل ألقاه أو قال : أعطاه خادمه .

وفي رواية أخرى عن ابن سيرين : أن حذيفة كان راكبًا على حمار له إكاف ، وبيده رغيف وعَرَق من لحم ، فقالوا : سلنا ماشئت ، فقال : أسألكم طعاما آكله وعلفا لحماري هذا مادمت فيكم .

فأقام ماشاء الله ، ثم كتب إليه عمر : أن أقدم ، فقدم فلما بلغ

عمرَ قدومهُ كَمَنَ له في الطريق في مكان لا يراه، فلما رآه على الحال التي خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخي وأنا أخوك^(١) .
وهكذا رأينا في هذه القصة المليئة بالعبر كيف أن وجوه أهل العراق قد خرجوا لاستقبال الأمير الذي توقعوا على الأقل أن يكون معه مرافقون وأن تكون له هيئة تميزه ولو بعض الشيء ، ولكنهم فوجئوا بمرور الأمير حذيفة وهو وحده راكبًا حمارًا بشكل متواضع فلم يعرفوه .

إنه تلميذ من تلاميذ المدرسة النبوية التي تربى أفرادها على السمو عن مظاهر الدنيا وزخارفها وإظهار عزة الإسلام أمام ضغوط مظاهر الجاهلية .

إن هذا المظهر المتواضع الذي ظهر به هذا الأمير أمام من يهتمون بالمظاهر يُعدُّ درسًا بليغًا لهم ولغيرهم .

وإنه لموقف كبير أن يقف هذا الصحابي الجليل وأمثاله لوضع معوقات قوية توقف انحدار الناس نحو المظاهر الدنيوية لأنه إذا كان

(١) صفة الصفوة ١/٦١٢ .

الأمير يظهر بهذا المظهر البسيط فإن من تميل نفسه إلى المظاهر ممن هم أقل منه منزلة اجتماعية سيجد حرجا في الاستمرار في هذه المظاهر .
و حين قالوا له : «سلنا ماشئت» كان أمامه فرصة ذهبية للتكثُر من الدنيا والتمتع بطيباتها لو كان من أهلها ، ولكنه لم يطلب إلا طعاما له وعلفا لحماره ، وإن أقل أجير يكون عند صاحب عمل لا يرضى بأن يعمل بطعام بطنه فقط ، ولكنها النفوس العلية تأبى إلا السمو دائما نحو المكارم، وتعمل جاهدة على رفع رصيدها الأخرى وإن أضرت بأجسامها في دار الفناء .

هذا وإن موقف عمر حين كَمَنَ لأخيه حذيفة رضي الله عنهما ليراه على الحال التي يصل عليها دليل على اهتمامه بالحفاظ على الرصيد الأخلاقي للأمة ، لأنه إذا استطاع أن يحافظ على تماسك هذا الرصيد عند الولاية فإن الأمة تبع لهم في ذلك .

وفي التزامه إياه وإعلان الأخوة بينهما مظهر خلاب من مظاهر الفرحة القلبية ، وسعادة الروح، حينما يرى الأخ أخاه في الله على الوضع الديني الذي يُرضي الله تعالى .

من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه :

لقد كان لسلمان الفارسي رضي الله عنه مواقف عالية في التواضع، فلقد كان متواضعاً لله تعالى ولعباده المؤمنين ، ومن أمثلة تواضعه واهتمامه أنه لما كان والياً على المدائن كان إذا سجدت له العجم طأطأ رأسه وقال : خشعت لله خشعت لله^(١) .

وفي هذا تقرير للتوحيد بالقول والعمل وتعليم لأولئك الجاهلين بأمر الله تعالى وما يجب له من إفراده بالسجود .
ومن أمثلة تواضعه رضي الله عنه ما يرويه ثابت البناني قال : كان سلمان أميراً على المدائن، فجاء رجل من أهل الشام ومعه حمل تبنٍ وعلى سلمان «أندرا وِرد»^(٢) وعباءة ، فقال لسلمان : تعال احمل ، وهو لا يعرف سلمان ، فحمل سلمان ، فرآه الناس فعرفوه فقالوا : هذا الأمير ، فقال : لم أعرفك ، فقال له سلمان : لا ، حتى أبلغ منزلك ،

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٤٦ .

(٢) يعني نوعاً من اللباس يغطي الركبة .

(٣) صفة الصفوة ١/ ٥٤٢ .

وفي رواية أخرى : إني قد نويت فيه نية فلا أضعه حتى أبلغ بيتك ^(١) .
في هذا الخبر نوع نادر المثال من التواضع من سلمان رضي الله
عنه، فهو أولا وهو أمير على المدائن عاصمة مملكة الفرس يلبس لباس
الفقراء حتى ظنه ذلك الرجل ممن يحملون الأمتعة للناس فحمّله ما
معه من التبن ، ثم بعد أن عرف ذلك الرجل أنه الأمير واعتذر منه
أبى إلا أن يستمر حتى يوصله منزله لأنه نوى في ذلك عملا صالحا
لله تعالى فكره أن يقطع ذلك العمل .

وما أبلغه من عمل يسهم فيه فاعله في تثبيت خلق التواضع في
المجتمع !

وهكذا يصنع العظماء في إهانة أنفسهم من أجل إشاعة الأخلاق
السامية وتربية المسلمين على الخشونة والزهد .

وإنه لا يقدر على هذا العمل إلا من عظمت الآخرة في عينه إلى
الحد الذي أصبح لا ينظر معه إلى الجاه الدنيوي ولا إلى انتقاد الناس

مادام واثقا من أنه يمثل الأخلاق العالية في أسمى صورها.

ويذكر الحسن البصري رحمه الله تواضع سلمان وهو أمير على المدائن فيقول: كان عطاء سلمان خمسة آلاف ، وكان على ثلاثين ألفا من الناس يخطب في عباءة يفرش نصفها ويلبس نصفها، وكان إذا خرج عطاؤه أمضاه - يعني تصدق به - ويأكل من سفيف يده ﷺ.

ويقول النعمان بن حميد : دخلت مع خالي على سلمان بالمدائن وهو يعمل الخوص ، فسمعتة يقول : أشترى خوصا بدرهم فأعمله فأبيعه بثلاثة دراهم ، فأعيد درهما فيه ، وأنفق درهما على عيالي ، وأتصدق بدرهم، ولو أن عمر نهاني عنه ما انتهيت ^(١) .

يعني لو أن عمر رضي الله عنه أمره بترك هذا العمل اليدوي والإنفاق على عياله من العطاء لما فعل .

وإن هذا لنموذج فريد من العناصر الزكية التي خلصها الإسلام من جميع أنواع الغش فعادت جوهرًا نقيًا صافيا من الكدر .

(١) سير أعلام النبلاء ١/٥٤٧ .

وإن المتأمل ليقف مندهشا من هذه القوة الجبارة التي تحمل
سلمان وأمثاله على إنفاق عطائهم من بيت المال بالكامل ، والأكل من
بعض عمل أيديهم وإنفاق بعضه الآخر .

إنهم لا يعملون حسابا للإصابة بالأمراض أو كساد الأسواق
ونحو ذلك لأنهم قد اكتفوا باليسير من المعيشة وعودوا أنفسهم على
ذلك وهذا النوع من المعيشة يمكن بتوفيق الله تأمينه بسهولة عند
الاضطرار بخلاف من يتوسعون في النفقات ويألفون حياة الترف،
فمن الصعب عليهم النزول إلى العيش الضروري لأن نفوسهم
تحتاج إلى فترة من الزمن حتى تألف على ذلك .

ومن مواقفه في الزهد والتواضع مارواه أبو ظبيان عن جرير بن
عبد الله رضي الله عنه قال: نزلت بالصفاح في يوم شديد الحر ، فإذا
رجل نائم في حر الشمس يستظل بشجرة، معه شيء من الطعام
ومزوده تحت رأسه ملتف بعباءة ، فأمرت أن يُظللَّ عليه ، ونزلنا فانتبه
فإذا هو سلمان فقلت له : ظللنا عليك وما عرفناك ، قال : يا جرير
تواضع في الدنيا فإنه من تواضع يرفعه الله يوم القيامة ، ومن يتعظم في

الدنيا يضعه الله يوم القيامة ، لو حَرَصت على أن تجد عودًا يابسا في الجنة لم تجده ، قلت : وكيف ؟ قال: أصول الشجر ذهب وفضة ، وأعلىها الثمار ،ياجرير تدري ماظلمة النار؟قلت: لا،قال ظلم الناس^(١) .

وفي عمل جرير مع سلمان دليل على ماكان يتحلى به الصحابة رضي الله عنهم من حب فعل الخير والإحسان إلى الناس عرفوهم أو لم يعرفوهم ، لأنهم إنما يطلبون ثوابهم من الله تعالى ، حيث قام جرير بالتظليل على ذلك الرجل النائم من الشمس وهو لايعرفه، فأتخفه سلمان بهذه الموعظة البليغة في لزوم التواضع والزهد في الحياة الدنيا ، واجتناب ظلم الناس .

وفي هذا الخبر توجيه من سلمان رضي الله عنه إلى التخلق بخلق التواضع ، وقد رغب في ذلك بذكر ثمرته في الآخرة ، وإذا كان الإنسان في الدنيا يتواضع لمديره في العمل من أجل أن يساعده في رفع مستواه الوظيفي ، أفلا يتواضع المسلم لإخوانه من أجل الله تعالى

(١) سير أعلام النبلاء ١/٥٤٨ .

ليكسب رفعةً في الدرجات يوم القيامة؟!!

وإذا كانت الدنيا تقوم على تبادل المنافع فلنفرض أن منفعةً
دنيوية زالت من الإنسان فما الذي سيخسره مادام مستور الحال
ولا يدري ما مقامه في هذه الحياة؟

ولكن كم يخسر لو ضاعت منه منافع الآخرة حينما ترتفع
درجات الصالحين ويبقى هو في مؤخرة الناس؟!!

ثم تساءل سلمان عن الظلمات يوم القيامة فأجاب بأنها ظلم
الناس بينهم في الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك فما أقل متعة الظالم في
الدنيا وما أقصر مدتها!

ولكن ما أشد عذابها يوم القيامة ، وما أطول حزنها آنذاك!
ومن هذه الوصية نعلم قدر التوجيهات التربوية التي استفادها
الصحابه رضي الله عنهم من رسول الله ﷺ حيث أصبحوا ينطقون
بالحكمة المستقاة من السنة النبوية ، وذلك في مثل قوله ﷺ « الظلم
ظلمات يوم القيامة » .

ثم نجد سلمان رضي الله عنه بعد أن أعطى توجيهاته القيمة نحو

تركيز الاهتمام بالحياة الآخرة يضرب مثالا على عظمة نعيم الجنة حيث بين فيه أن أصول شجر الجنة اللؤلؤ والذهب وأعلىها الثمر ، فكأنه يقول : هذا النعيم الخالد هو الذي يجب أن يتنافس فيه المتنافسون لا متاع الدنيا الزائل .

من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في التواضع مأروى عن مجاهد رحمه الله قال: كنت أصحب ابن عمر رضي الله عنهما في السفر فإذا أردت أن أركب مسك ركابي، فإذا ركبت سَوَّى عليّ ثيابي، فرأني مرة كرهت ذلك فيّ، فقال: يا مجاهد إنك لضيق الخلق، وفي رواية قال: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني^(١).

فهذه أخلاق عالية من العالم الرباني عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، حيث يقوم بخدمة تلاميذه، ولقد كانت هذه الأخلاق أصيلة فيه حيث كان يصرُّ عليها، ويغضب حينما تظهر الكراهية لذلك في وجوه تلاميذه.

ولقد كان أهمّ الدوافع لتخلق الصحابة وعامة الصالحين بتلك الأخلاق الكريمة اهتمامهم الكبير باكتساب الأعمال الصالحة، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالتواضع لمن هو دونهم، وبهذه الأخلاق النبيلة ربّوا مجتمعاً صالحاً خلفهم في وراثة هذا الدين وتبليغه لمن بعدهم.

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٥.

من مواقف سعيد بن المسيب رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم من خبر كثير بن المطلب بن أبي وداعة قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياما ، فلما جئته قال: أين كنت ؟ قال: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها ، قال : ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة ؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا ، فقلت : أو تفعل؟ قال: نعم، ثم حمد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين أو ثلاثة .

قال : فقمتم وما أدري ما أصنع من الفرح ، فصرت إلى منزلي ، وجعلت أتفكر ممن آخذ وممن أستدين ، فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي ، واسترحت ، وكنت وحدي صائما، فقدّمت عشائي أفطر كان خبزا وزيتا ، فإذا بات يقرع ، فقلت : من هذا ؟ قال: سعيد، قال: ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ، فإنه لم يُر أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فقمتم فخرجت فإذا سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إليّ فأتيك،

قال: لا ، لأنك أحق أن تُؤتَى ، قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، فإذا هي قائمة من خلفه في طولهِ ، ثم أخذها بيدها فدفعها بالبَاب ، ورد الباب فسقطتُ المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الزيت والخبز فوضعتها في ظل السراج لكي لا تراه ، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران ، فجاءوني فقالوا : ماشأنك ؟ قلت : وَيُحْكَمُ زوجني سعيد بن المسيب ، وهذه ابنته اليوم وقد جاء بها على غفلة ، فقالوا : سعيد بن المسيب زوجك ؟! قال : نعم ، وهاهي في الدار ، قال : فنزلوا هم إليها ، وبلغ أُمِّي فجاءت وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام .

قال : فأقمت ثلاثة أيام ثم دخلت بها فإذا هي من أجمل الناس ، وإذا هي من أحفظ الناس لكتاب الله وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحقوق الزوج .

قال : فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه ، فلما كان قرب

الشهر أتيت سعيدا وهو في حلقتة ، فسلمت عليه فرد السلام ، ولم يكلمني حتى تقوَّض أهل المجلس ، فلما لم يبق غيري قال: ما حال ذلك الإنسان ؟ قلت : خيراً يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو ، قال: فإن رابك شيء فالعصا ، فانصرفت إلى منزلي ، فوجّه إليّ بعشرين ألف درهم^(١) .

فهذا الخبر فيه مثل على طموح عظماء الرجال نحو معالي الأمور، فحينما تسمو بالرجال نفوسهم يهون عليهم كلُّ ما تعارف الناس عليه من زخارف الدنيا وجاهها ، ولا يصبح أمامهم إلا هدف واحد يُسَخَّرُون له كل ما في حياتهم الدنيا من متاع وجاه ، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

فهذا الإمام الجليل سعيد بن المسيب يخطب ابنته كبراء الناس - كما جاء في روايات أخرى - فلا يلتفت إلى ما يترتب على ذلك من رفعة دنيوية في المال والجاه ، بل كان الشيء الذي يهيمن على تفكيره هو

(١) حلية الأولياء ٢/١٦٧ - ١٦٨ ، وانظر سير أعلام النبلاء ٤/٢٣٣ .

لزوم حماية ابنته من تلك المظاهر الدنيوية ، فهو يرى أنه لو زوجها من أبناء الكبراء لكان سببا في صرفها عن التزود بعمل الآخرة إلى الانشغال بمظاهر الدنيا ، فامتنع من ذلك حماية لابنته من الفتنة ، وصيانة لإيمانها من التصدع ، وبالتالي فإنه قد وهبها الخير ولم يجرمها ، وأسعدها ولم يُشققها .

وكان يرى أن خيرها وسعادتها بزواجها من شاب تقي زاهد في الدنيا ، فاغتتم فرصة وفاة زوجة أحد تلاميذه الأتقياء الفقراء فعرض عليه الزواج بابنته التي خطبها قبل ذلك أبناء الأكابر ، وهذا يُعدُّ مثلاً عالياً في التواضع والزهد في متاع الدنيا وجاهها .

ثم إن الطريقة التي زَفَّ بها ابنته إلى ذلك الشاب كانت في غاية البساطة والروعة ، فلا مظاهر ولا تكلف ، ولا تقيدَ بالعوائد المرسومة التي تعارف عليها الناس .

ولقد كانت ابنته في غاية الطاعة له حيث سارت معه بتلك الطريقة البسيطة المخرجة لها، مما يدل على سمو تربيتها وقوة دينها وغزارة علمها ، كما جاء في وصفها على لسان زوجها .

وأخيراً نرى هذا الإمام الجليل يتحلى بالكرم الفياض ، حيث أعطى ذلك الشاب الفقير عشرين ألف درهم ، مع قبول تزويجه قبل ذلك على درهمين أو ثلاثة .

فله دره ما أرجح عقله وأسمى تفكيره !! وما أكرمه وأحزمه !!

من مواقف أمير المؤمنين عمر بن العزيز رحمه الله :

من أمثلة تواضعه :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر الرعيني قال: رأيت عمر بن عبد العزيز إذا صلى المكتوبة انصرف إلى أهله لا يتطوع^(١)، وربما جلس فجاء الغريب الذي لا يعرفه - وكان يقوم من هذه الحلقة فيجلس مع هذه الحلقة - يسأل عن أمير المؤمنين وفي أي حلقة هو! فيقف لا يدري أيهم حتى يشار إليه : هذا أمير المؤمنين، فيسلم عليه بالخلافة^(٢) .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الإمام الأوزاعي قال : كان

(١) أي لا يصلي السنة الراتبية في المسجد وإنما يصلها في البيت لكون ذلك أفضل .

(٢) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢١٠ - ٢١١ .

عمر بن عبد العزيز يجلس إلى قاصص العامة بعد الصلاة ويرفع يديه إذا رفع، ودخلت عليه ابنة أسامة بن زيد رضي الله عنهما ومعها مولاة لها تمسك بيدها ، فقام لها عمر ومشى إليها حتى جعل يدها في يده ويدها في ثيابه، ومشى بها حتى أجلسها في مجلسه ، وجلس بين يديها ، وماترك لها حاجة إلا قضاها ^(١) .

وقال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم وناداه رجل فقال : يا خليفة الله في الأرض . فقال له عمر: مه إني لما ولدت اختار لي أهلي اسماً فسَمَّوني عمر فلو ناديتني يا عمر أجبتك. فلما كبرت اخترت لنفسي الكنى فكُنيتُ بأبي حفص فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك. فلما وليتُموني أموركم سميتُموني أمير المؤمنين فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك. وأما خليفة الله في الأرض فلست كذلك ولكن خلفاء الله في الأرض داود النبي عليه السلام وشبهه قال الله تبارك وتعالى ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] ^(٢) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٩٤ .

فهذه أمثلة من روائع الإمام العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله في التواضع ، فهو لا يميز نفسه عن العامة بلباس ولا مظاهر دنيوية . ونجده يعامل ابنة أسامة بن زيد رضي الله عنهما تلك المعاملة الرقيقة الحانية تقديراً لها ولوالدها وجدها، لكونها من الصحابة رضي الله عنهم ، ولما لهما من مآثر جليلة في خدمة رسول الله ﷺ والإسلام . كما نجده يرفض الألقاب الكبيرة ويبين أن أحب الأسماء إليه ما يُشعر بالتواضع منه وعدم المغالاة من الناس .

جوابه لمن اتهمه بالكبر :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من حديث الليث بن سعد أن أبا النضر حدثه قال: دسست إلى عمر بن عبد العزيز بعض أهله أن قل له : إن فيك كبراً وأنت تتكبر ، فقليل ذلك له ، فقال عمر: لبئس ماظنت إن كنت تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة لله وأنطلق إلى أعظم الذنوب فأرتكبه. الكبرياء إنما هو رداء الرحمن فأنازعه إياه ، ولكن كنت غلاماً بين الغلمان - أو قال بين ظهري قومي - يدخلون عليّ بغير إذن ويتوطئون فرشي ويتناولون مني مايتناول القوم من أخيهم

الذي لاسلطان له عليهم . فلما أن وليت خيرت نفسي في أن أمكنهم من
حالمهم التي كنت لهم عليها وأعاقبهم فيما خالف الحق أو أتمنع منهم في
بابي ووجهي ليكفوا عني أنفسهم وعن الذي أحذر عليهم لو كنت
جرأتهم على نفسي من العقوبة والأدب فهو الذي دعاني إلى هذا^(١) .
وهكذا اتُّهم هذا الولي الصالح والحاكم العادل بالكبر ، وإنه
لعجيب جدًّا أن يُظنَّ بعمر بن عبد العزيز أنه متكبر وهو الذي خَلَّفَ
الدنيا بجاهها ومالها وراء ظهره ، ولكن الذين ليست لديهم تجارب
إدارية يعتقدون أن المسؤول يجب أن يكون بابه مفتوحا للناس في جميع
الأوقات، ولا يعلمون أنه لو فعل ذلك لأضاع كثيرا من أمور الأمة
المهمة التي تحتاج إلى دراسة ونظر ومشورة من أصحاب الشأن ، كما
أن المسؤول يحتاج إلى وقت للتأمل والتفكير فيما يصلح أمور الأمة
ويرفع من مستواها المادي والفكري وغير ذلك مما يلزم له الاحتجاب
عن عامة الناس بعض الوقت .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٨ .

مثل من حلمه على من جهل عليه :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الإمام الأوزاعي : أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه كراهية أن يعجل في أول غضبه .

قال : وأسمعه رجل كلامًا فقال له : أردتَ أن يستفزني الشيطان فأنال منك اليوم بما تنال أنت مني يوم القيامة ، انصرف عني عافاك الله ورحمك ^(١) .

وهذا تصرف سديد من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، حيث إن الحكم في حال الغضب يكون فيه شيء من حظ الشيطان ، لأن الغاضب يندفع إلى المبالغة في إيقاع العقوبة على من غضب عليه ، أما التريث فإنه فيه فرصة للحكم بعد زوال الغضب والتأمل في التصرف بحكمة في تأديب المخالفين .

وفي قوله « أردتَ أن يستفزني الشيطان » إدراك منه لسلاح من

(١) تاريخ دمشق ٤٥/٢٠٥ - ٢٠٦ ، وانظر البداية والنهاية ٩/٢٠١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥١ .

أسلحة الشيطان التي يغوي بها أصحاب المسؤولية ، فيحملهم على السلوك المنافي لمكارم الأخلاق .

مثل آخر من حلمه :

ومن أمثلة تخلقه بخلق الحلم ما أخرجه محمد بن سعد من خبر عمر بن حفص قال: حدثنا شيخ قال : لما ولي عمر بن عبد العزيز بدابق خرج ذات ليلة ومعه حرسيّ فدخل المسجد فمرّ في الظلمة برجل نائم فعثر به ، فرفع رأسه إليه فقال: أعمنون أنت ؟ قال: لا ، فهمّ به الحرسيّ ، فقال له عمر : مهّ إنما سألني أعمنون أنت فقلت لا^(١) . وهكذا يمثّل عمر بن عبد العزيز القمة في مكارم الأخلاق وقد بلغ القمة في الجاه الديني، حيث كان أكبر أمير على وجه الأرض ، ومع ذلك يحتمل هذه الكلمة القاسية وينهى حارسه لما أراد أن يعاقب ذلك الرجل .

(١) الطبقات الكبرى ٣٩٧/٥ ، وانظر تاريخ دمشق ٢٠٦/٤٥ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥١ .

عفوه عن الذي شجّه في وجهه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر قيس بن عبد الملك قال : وقام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته وعرض له رجل بيده طومار، قال فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يجبس دونه فرماه بالطومار ، فالتفت أمير المؤمنين فأصابه في وجهه فشجّه ، فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس ، فقرأ الكتاب وأمر له بحاجته وخلي سبيله !!^(١) .

وهذا مثال عالٍ في الاتصاف بالحلم والصبر على الأذى والعفو عند المقدرة ، لقد كان عمر بن عبد العزيز رجلاً عظيماً مثل مكارم الأخلاق في حياته ، ولو أنه انتقم من ذلك الرجل أو على الأقل لم يلتفت لطلبه لكان رجلاً عادياً ولما خلّد التاريخ له هذا الموقف الكبير، لقد كان يهين نفسه ويضغط عليها في سبيل تمثيل القيم السامية وتخليد المواقف العالية .

(١) حلية الأولياء ٥/٣١١١ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠ -

مثل من عفوه عند الغضب :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إبراهيم بن أبي عبلة قال :
غضب عمر بن عبد العزيز يوما على رجل غضبا شديدا فبعث إليه
فجرده ومدّه في الحبال ، ثم عاد بالسياط حتى قلنا: هو ضاربه، قال:
خلوا سبيله ، أما إني لولأني غضبان لسؤتك ، وقرأ ﴿وَالْكَاظِمِينَ
الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ^(١) .
فهذا الرجل قد أغضب بجهله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز
ولكنه وسعه بحلمه، والحلم عن الجاهلين من مكارم الأخلاق العالية .
ونجده - رحمه الله - يتذكر الآخرة حالا فيبين أن النزول إلى
مستوى الجاهلين ينزل من درجات المسلم في الآخرة ، بينما تكون
عاقبة الصبر على الأذى والحلم عن الجاهلين والإمساك عن الجدل
معهم رفعة الدرجات في الجنة كما جاء في قول النبي ﷺ «أنا زعيم
ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا» ^(٢) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥٠ .

(٢) سنن أبي داود رقم ٤٨٠٠ ، كتاب الأدب باب ٨ ، والزعيم هو الضامن وربض
الجنة يعني طرفها ، والمراء هو الجدل والنزاع .

مثل من رحمته بالمجاهدين :

ذكر ابن عبد الحكم أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز استفتح خلافته بثلاثة كتب ، ذكر منها هذا الكتاب حيث قال : كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ، وقد كان سليمان أغزاه إياها برًا وبحرًا وأشفى على فتحها ، ثم خُدع عنها حتى أحرزوا طعامهم وحوائجهم ثم أغلقوها دونه بعد الإشفاء عليها ، فبلغ ذلك سليمان فغضب مما فعل به فحلف أن لا يقفله منها مادام حيًا ، فاشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدوابَّ من الجهد والجوع حتى يتنحى الرجل عن دابَّته فتقطع بالسيوف فبلغ رأس الدابَّة كذا وكذا درهمًا . ولجَّ سليمان في أمرهم . فكان ذلك يغمُّ عمر فلما ولي رأى أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلي شيئًا من أمور المسلمين ثم يؤخر قفلهم ساعةً فذلك الذي حمّله على تعجيل الكتاب^(١) .

في هذا الخبر مثل من آثار الجبروت الذي يعشش في أفكار

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٧ .

(٢) حلية الأولياء ٥ / ٣١٢ .

الطغاة فيتناسون - في إصدار القرارات الطائشة - فضل أهل البلاء ومصالح الآلاف من المسلمين ، فمَسلمة بن عبد الملك قائد عظيم انتصر على الروم في لقاءات حربية كثيرة وفتح كثيرًا من البلاد والحصون ، فلما أخطأ في ذلك الموقف وصدّق ملك الروم الذي كان سابقًا مع المسلمين وانخدع بكلامه نسي سليمان بن عبد الملك كل ما له من سوابق عالية وبالغ في عقوبته ولجّ في تمسكه برأيه الجامح، ولم يحسب حسابًا لآلاف المسلمين الذين كانوا معه ، لأن الطغاة لا يلقون بالأفراد الشعوب ، فليمتُّ أفراد ذلك الجيش من الجوع ولتفتك بهم الأمراض في سبيل تنفيذ شهوة غضبية .

لقد كان سليمان بن عبد الملك يريد أن ينال حظوة فتح القسطنطينية ليغذي ما في نفسه من حب الشرف ، فأصمَّ أذنيه - قبل مسير ذلك الجيش - عن سماع آراء القادة الكبار أمثال موسى بن نصير ، وأغلق فكره عن قبول تخطيطهم الحربي الذي يقتضي فتح ما بين القسطنطينية وبلاد الإسلام بالكامل واستيطانها من المسلمين.. لم يقبل هذا الرأي لأنه يحتاج إلى عدة سنوات ، وهو يريد الفتح بصورة

عاجلة لأنه لا يضمن بقاءه على قيد الحياة حتى يتم هذا الأمر، ولا يريد أن يكون شرف الفتح لمن يأتي بعده ، فلما استعصى الفتح بسبب نفاق المؤمن لَجَّ في رأيه وحبس مسلمة وجيشه في بلاد الأعداء ، فكان حل تلك المشكلة وتفريج كربة أولئك المسلمين على يد الخليفة العادل عمر بن العزيز فكتب ذلك الكتاب الذي يأمر فيه بعودة ذلك الجيش . فما هي النتيجة المترتبة على تصرف هذين الخليفين ؟ وما هي

المشاعر التي سيحملها أفراد ذلك الجيش لهما ؟

إنهم سيحملون البغض الشديد لسليمان والموجدة الأكيدة عليه لتلك الإساءة ، وسيحملون الحب الشديد لعمر بن عبد العزيز والثناء البالغ عليه لذلك الإحسان الذي قدّمه لهم .

رحمته بالأسرى :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله : أن فادِ أساري المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع ما لهم^(١) .

(١) حلية الأولياء ٥/٣١٢ .

وهذه صفحة من صفحات عمر بن عبد العزيز في الرحمة وتقدير أهل الفضل الذين بذلوا أنفسهم في حماية الإسلام والدعوة إليه، فوقعوا أسرى في يد أعدائهم ، فهو يُقدّم فداءهم على كل المطالب التي تتطلب الصرف من بيت مال المسلمين وهكذا كان عمر ابن عبد العزيز مكماً لنقص الولاة الذين سبقوه وساداً لخللهم ، فقد فرّج الله تعالى به عن أسرى المسلمين وأدخل به البهجة والسرور على أسرهم الذين كانوا ينتظرون قدومهم بفارغ الصبر.

مثل من رحمته بالآيتام :

قال الحافظ ابن كثير : وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجه صبي منهم، فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه وجاءوا به إلى عمر ، فسمع الجلبة فخرج إليهم فإذا مريئة تقول : إنه ابني وإنه يتيم ، فقال لها عمر : هوّني عليك ، ثم قال لها عمر : أله عطاء في الديوان ؟ قالت: لا قال: فاكتبوه في الذرية ، فقالت زوجته فاطمة : أتفعل هذا به وقد شجّ ابنك ؟ فعل الله به وفعل ، المرة الأخرى يشج

ابنك ثانية ، فقال : ويحك إنه يتيم وقد افزعتموه !^(١) .

وهكذا يشمل لطفه ذلك اليتيم مع إساءته إلى أحد أبنائه ،
ويُحظى منه بالتعويض المالي مقابل ذلك الفزع الذي حصل له ، فما
أبلغ رحمة عمر ، وما أرق مشاعره ، وما أسمى تفكيره في معاملة
إخوانه المسلمين !!

مثل من رحمته بالفلمان :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن
عمر بن عبد العزيز قال: قال لي رجاء بن حيوة : ما أكمل مروءة
أبيك، سمرت عنده ذات ليلة فعشَى السراج فقال لي : ماترى السراج
قد عشى ؟ قلت: بلى ، وإلى جانبه وصيف راقد ، قال قلت: ألا أنبهه؟
قال: لادعه يرقد^(٢) ، قال: قلت: أفلا أقوم أنا ؟ قال: لا ليس من مروءة
الرجل استخدام ضيفه، قال: فوضع رداءه ثم قال إلى بطة زيت معلقة
فأخذها فأصلح السراج ثم ردها إلى موضعها ثم رجع، قال : قمت

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٢، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠ .

(٢) وفي رواية ابن كثير " لا أحب أن أجمع عليه عملين " .

وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز^(١) .
فهذا الخبر يدل على قلب كبير يعرف مكارم الأخلاق ويقدرها .
فهو يؤثر الرحمة بالمستخدمين على القسوة عليهم ، ويؤثر إكرام
الضيف على تكليفه بخدمته مع أنه أمير المؤمنين وأعظم حاكم على
وجه الأرض آنذاك ، فالرحمة والتواضع من أخلاق العظماء ،
ولا يتصف بهما إلا من تجرد من حظ النفس وعاش للآخرين بفكره
وجسمه ووقته .

رحمته بجارية له :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر النضر بن سهيل عن أبيه قال:
قال عمر بن عبد العزيز لجارية له : يا جارية روحيني ، فأقبلت تروحه
فغلبتها عينها فنامت، فأخذ المروحة وأقبل يروحها، فانتبهت
فصاحت، فقال لها عمر : إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحرِّ ما

(١) تاريخ دمشق ٢٢٥/٤٥ - ٢٢٦ ، وانظر الزهد للإمام أحمد / ٢٩٨ ، والبداية
والنهاية ٢٠٣/٩ .

أصابني ، وأحبت أن أروِّحك مثل الذي روحتني ^(١) .

مثل من رحمته بأهل الذمة :

أخرج ابن سعد من خبر عمر بن بهرام الصراف قال : قُرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا: بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فانظر أهل الذمة فارق بهم ، وإذا كُبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه ، فإن كان له حميم فمُرَّ حميمه ينفق عليه ، وقاصه من خراجه ^(٢) كما لو كان لك عبد فكبرت سنُّه لم يكن لك بُدٌّ من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق ^(٣) .

فهذا مثل على سمو حكام المسلمين إذا تمثلوا بالإسلام وطبقوا تعاليمه ، وهو بالتالي شاهد على عظمة الإسلام الذي أخرج هذا الحاكم العادل الرحيم وأمثاله ، فالذمي الذي يفتقر لايضيع في دار

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦ .

(٢) أي حُطَّ عن صديقه من خراجه ما أنفق عليه .

(٣) طبقات ابن سعد ٥ / ٣٨٠ .

الإسلام ، لأن حكومة الإسلام ترعاه كما ترعى فقراء المسلمين ، وهي لا ترجو منه نفعا ولا دفع ضرر وإنما تمثل بذلك مكارم الأخلاق التي هي من أعظم مقاصد الإسلام .

مثل من رحمته بالحيوان :

لم تقتصر رحمة عمر بن عبد العزيز على الإنسان بل شملت الحيوان الأعجم ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم رحمه الله من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله حيان بمصر: إنه بلغني أن بمصر إبلاَّ نَقَّالات ، يُحْمَل على البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفنَّ أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل^(١) .
ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر أبي عثمان الثقفي قال: كان لعمر بن عبد العزيز غلام يعمل له على بغل له ، يأتيه بدرهم كل يوم ، فجاءه يوما بدرهم ونصف ، فقال: ما بدا لك ؟

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٤ .

فقال: نَفَقَتِ السوق، قال: لا ولكنك أتعبت البغل، أرَّجِه ثلاثة أيام^(١).

من مواقف مطرف بن عبد الله رحمه الله :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر ثابت البناني أن مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير قال لابن أبي مسلم : مامدحني أحد قط إلا تصاغرت على نفسي^(٢).

وهذا دليل على قوة إيمان مطرف بن عبد الله رحمه الله ، حيث غلب نفسه وحجمها ومنعها من أن تطمح نحو الجاه والشرف ، وهو مثل جيد في التواضع المبني على قطع موارد الكبرياء التي من أهمها الإعجاب بالنفس .

من مواقف محمد بن سيرين رحمه الله :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر هشام بن حسام قال : حدثني بعض آل سيرين قال: مارأيت محمد بن سيرين يكلم أمه قط إلا وهو يتضرع .

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٦٠ ، وأرَّجِه بمعنى أخره للراحة .

(٢) حلية الأولياء ٢/ ١٩٨ .

وأخرج أيضًا من خبر ابن عون قال: دخل رجل على محمد وهو عند أمه ، فقال: ماشأن محمد أيشتكى شيئًا ؟ قالوا : لا ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه ^(١) .

فهذا مثل من التواضع للوالدين ، وهو من أهم مجالات البر بهما، ولقد بلغ ابن سيرين من إهانتة نفسه أمام أمه حدا أثر على قسامات وجهه حتى ظن من رآه أنه يشكو من ألم ، وهذا دليل على قوة إيمانه وشدة تمسكه بأحكام الإسلام وآدابه .

كما أن هذا الخبر وأمثاله دليل على عظمة الإسلام وقوة تأثيره على النفوس ، فهل كان أجداد ابن سيرين - وهم على مجوسيتهم - يعاملون أمهاتهم هذه المعاملة؟!

إن الواقع التاريخي يشهد بأن هذا الرقي الأخلاقي لا يوجد إلا عند المسلمين ، وأن هذه القوة المؤثرة لا توجد في غير الإسلام .

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٧٣ .

من مواقف سليمان بن مهران رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن الإمام سليمان بن مهران المشهور بالأعمش وقد ذكر حديث الرجل الذي ذكر عند النبي ﷺ أنه مازال نائماً حتى أصبح ، ما قام إلى الصلاة فقال « بال الشيطان في أذنه » أخرجه الشيخان ^(١) .

فقال الأعمش : ما أرى عيني عمشت إلا من كثرة ما يبول الشيطان في أذني ، قال أبو خالد الراوي عن الأعمش : وما أظنه فعل هذا قط .

قال الذهبي : يريد أن الأعمش كان صاحب ليل وتعبد ^(٢) .
فهذا مثل من تواضع هذا الإمام الكبير ، وقد كان هو وأمثاله من الصالحين يهتمون بتحقيق النفس وإخفاء العمل الصالح قطعاً لموارد العجب والرياء ، وادخاراً لثواب العمل كاملاً في دار البقاء .

(١) صحيح البخاري ، التهجد رقم ١١٤٤ (٢٨/٣) ، صحيح مسلم ، باب المسافرين رقم ٢٠٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/٢٣٣ .

من مواقف سفيان الثوري ومالك بن أنس رحمهما الله :

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام أبي عمرو عبد الرحمن الأوزاعي : وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري أخذ بزمام جملة، ومالك بن أنس يسوق به ، والثوري يقول: افسحوا للشيخ حتى أجلساه عند الكعبة ، وجلسا بين يديه يأخذان عنه ^(١) .

فهذا مثل جيد لعلاقة المحبة والتواضع والاحترام بين العلماء ، فالعلماء الثلاثة المذكورون كانوا متعاصرين ، وكل واحد منهم قد بلغ حدًا عاليًا من الشهرة، فمالك إمام أهل المدينة ، والثوري إمام أهل الكوفة، والأوزاعي إمام أهل الشام، ومع تقاربهم في مستوى الشهرة فإن الإمامين مالك والثوري قاما بهذه المقابلة الكريمة للإمام الأوزاعي، وهذا دليل على فضلها وقوة إيمانها ، حيث لم يَرَيَا في ذلك غضاضة من شأنها ولا حطًا من قدرهما ، بل بضد ذلك فإنها بهذا السلوك العالي قد خلدا هذا المثل ليكون فيه قدوة لمن بعدهما من العلماء .

(١) البداية والنهاية ١٠/١١٩ .

من مواقف عبد الله بن المبارك رحمه الله :

لقد كان للعلماء اهتمام بمعالجة أمراض القلوب التي تنتج عن عدم التحلي بخلق التواضع، وذلك كالكبر والعجب ، ومن الأقوال في ذلك ما ذكره الإمام الذهبي من خبر أبي وهب المروزي قال: سألت ابن المبارك : ما الكبر ؟ قال: أن تزدرى الناس ، فسألته عن العجب قال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك ، لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العجب ^(١) .

وقوله « أن تزدرى الناس » مأخوذ من قول رسول الله ﷺ «ولكن الكبر من بَطْرِ الحق وغمط الناس» ^(٢) ، وقد ذكر ابن المبارك الشق الثاني من أنواع الكبر وهو ازدراء الناس واحتقارهم ، ولعله اقتصر على ذلك لأنه مراد السائل ، أما الشق الأول فهو بطر الحق وذلك بأن يترفع عن قبول الحق .

(١) سيرة أعلام النبلاء ٨ / ٢٦٠ .

(٢) سنن أبي داود ، رقم ٤٠٩٢ ، اللباس (٤ / ٣٥٢) ، سنن الترمذي رقم ١٩٩٩ ، البر (٤ / ٣٦٠) .

والكبر بنوعيه من الأخلاق الهدامة ، فهو يعطل المواهب ،
ويقلل من الإنتاج الفكري، ويبعث على الظلم وهضم الحقوق بالنسبة
للمتكبر ، وعلى الغل والحقْد بالنسبة لمن يعاملهم المتكبر ، إلى غير
ذلك من المفاسد الكثيرة المترتبة على الكبر .

أما العجب فهو قاصمة الظهر ، لأن المرء إذا أعجب بنفسه
أصيب بالغرور ، وذلك يترتب عليه ضرر في الآخرة والدنيا ، فأما
ضرره في الآخرة فمنه الآثام المترتبة على الكبر من احتقار الناس
والبحث عن عيوبهم وغير ذلك ، وأما ضرره في الدنيا فإنه يُضعف
من الإنتاج والتطلع نحو الكمال ، لأن المعجب بنفسه يرى أنه قد بلغ
درجات عاليةً من الكمال فلا يشعر بالنقص والحاجة إلى العمل وهو
من أضر المهلكات على طلاب العلم لأن من أعجب بنفسه احتقر من
حوله ، وربما احتقر أساتذته ، فيمنعه ذلك من الاستفادة منهم ، وربما
حملة الغرور على عدم الاجتهاد في التحصيل والمذاكرة فيصاب
بالإخفاق في الاختبار أو عدم التسديد في الكتابة فتكثر أخطاؤه .

من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله :

من أخباره في الحلم والعفو ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته ،
قال: وركب يوماً في حُرَّاقَة^(١) فسمع ملاحاً يقول لأصحابه : ترون
هذا المأمون يَنْبُلُ في عيني وقد قتل أخاه الأمين - يقول ذلك وهو
لا يشعر بمكان المأمون - فجعل المأمون يتسم ويقول : كيف ترون
الحيلة حتى أَنْبَلُ في عين هذا الرجل الجليل القدر؟^(٢) .
فهذا مثل جيد في تقدير الولاية لمكارم الأخلاق ، والحفاظ على
السمعة الحسنة على طريق الفِعال الحميدة ومحبة القلوب .

من مواقف يزيد بن هارون رحمه الله :

من ذلك ما ذكره المروزي قال : قال لي أبو عبد الله - يعني الإمام
أحمد بن حنبل - كنا عند يزيد بن هارون فوهم في شيء فكلمته ،
فأخرج كتابه فوجده كما قلت ، فغيره ، فكان إذا جلس يقول: يا ابن

(١) نوع من السفن .

(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٢٩٠ .

حنبل ادن ، يا ابن حنبل ادن ههنا^(١) .

فهذا مثل من تواضع الحافظ يزيد بن هارون حيث أصلح الخطأ في كتابه على ما ذكر له الإمام أحمد، وصار يثني عليه ويقربه من مجلسه. وذكر الإمام الذهبي من خبر جعفر بن ميمون بن الأصبع قال: سمعت أبي يقول : كنا عند يزيد بن هارون وكان عنده المعيطي وأبو خيثمة وأحمد ، وكانت في يزيد - رحمه الله - مداعبة ، فذاكره المعيطي بشيء فقال له يزيد : فَقَدْتُكَ ، فتنحح أحمد ، فالتفت إليه فقال : من ذا ؟ قالوا : أحمد بن حنبل ، فقال : ألا أعلمتموني أنه ها هنا ؟^(٢) .

وهذا مثل آخر في التواضع يقدمه الإمام يزيد بن هارون لأحد تلاميذه وهو الإمام أحمد بن حنبل ، والتواضع من الكبير دليل على كمال العقل وعلو القدر .

(١) سير أعلام النبلاء ١١/١٩٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/١٩٤ .

موقف لإسماعيل ابن عليّة رحمه الله :

ذكر الإمام الذهبي من رواية الأثرم قال : أخبرني عبد الله بن المبارك ، شيخ سمع قديما ^(١) قال: كنا عند ابن عليّة ، فضحك بعضنا وثمّ أحمد ، قال: فأتينا إسماعيل - يعني ابن عليّة - بعدُ فوجدناه غضبان ، فقال: تضحكون وعندي أحمد بن حنبل ^(٢) .

فهذا مثل على تواضع الإمام ابن عليّة حيث غضب لضحكهم من أجل ابن حنبل ولم يغضب من أجل نفسه .

وهذا والذي قبله مثلان لما كان يتمتع به الإمام أحمد من هيبة وإكبار في النفوس ، وحينما يفرض الرجل العظيم هيئته على الناس مع اتصافه بالتواضع الجسم ، فإن هذا هو مجال الرفعة الحقيقية والشرف الكبير، أما حينما تكون الهيبة من الرجل لاتصافه بالكبر والصلف فإنها هيبة مصطنعة مُقنَّعة بستر رقيق، وما أسرع ماتزول ويعقبها المقت والسخرية حينما تنحط مكانة ذلك الرجل، وتزول أسباب تسلطه وكبريائه .

(١) ليس هذا هو ابن المبارك الإمام المشهور .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٩٤ .

موقف لقتيبة بن سعيد رحمه الله :

من أمثلة تواضع العلماء ما ذكره محمد بن يوسف قال : كنا عند أبي رجاء - هو قتيبة - فسئل عن طلاق السكران ، فقال : هذا أحمد ابن حنبل وابن المديني وابن راهويه قد ساقهم الله إليك ، وأشار إلى محمد بن إسماعيل - يعني البخاري وكان مذهب محمد أنه إذا كان مغلوب العقل حتى لا يذكر ما يحدث في سكره أنه لا يجوز عليه من أمره شيء^(١) .

فهذا مثل من تواضع أهل العلم بعضهم لبعض ، حيث رد أبو رجاء قتيبة بن سعيد الثقفي الفتيا إلى أبي عبد الله البخاري مع أنه في طبقة تلاميذه ، وأثنى عليه بأنه قد جُمع فيه علم العلماء الكبار من أمثال أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وإسحاق بن راهويه .

موقف لأحمد بن حنبل رحمه الله :

ذكر الحافظ الذهبي من خبر صالح بن الإمام أحمد قال : كان أحمد إذا رأيته تعلم أنه لا يظهر النسك، رأيت عليه نعلا لا يشبه نعلا

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٨/١٢ .

القراء له رأس كبير معقد وشراكه مسبل ، ورأيت عليه إزارًا وجبة
برد مخططة ، أي لم يكن بزّي القراء^(١) .

فهذا تواضع من الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، حيث ترك اللباس
الخاص بالعلماء مع ما ترتب على هذا اللباس من احترام الناس ،
وهذا مدخل من مداخل العجب والخيلاء ، فاجتنب ذلك اللباس
تواضعا وتحريا لدينه .

من مواقف إسحاق بن راهويه وإسماعيل بن أبي أويس رحمهما الله :

من ذلك مارواه حاشد بن عبد الله قال : كنا عند إسحاق -
يعني ابن راهويه - وعمرو بن زرارة ثم ، وهو يستملي على البخاري ،
وأصحاب الحديث يكتبون عنه ، وإسحاق يقول : هو أبصر مني ،
وكان محمد - يعني البخاري - يومئذ شابا^(٢) .

وكذلك ما ذكره محمد بن أبي حاتم أن الإمام أبا عبد الله البخاري
قال : قال لي إسماعيل بن أبي أويس : انظر في كتبي وما أملكه لك وأنا

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٢٠٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٢٩ .

شاكرك مادمت حيا ^(١) .

فهذان مثلان على تواضع العلماء ورغبتهم الأكيدة في خدمة السنة النبوية وتنقيتها من الشوائب وإن ترتب على ذلك تخطئتهم ، وفي هذين الخبرين بيان تفوق الإمام البخاري في العلم وثقة العلماء الكبيرة فيه ، والجهد العظيم الذي بذله في تمحيص السنة النبوية وتخليصها مما خالطها من الكدر ، رحمه الله تعالى .

من مواقف أبي عبد الله البخاري رحمه الله :

من ذلك ما رواه كاتب الإمام البخاري محمد بن أبي حاتم قال :
وكنا بفربر وكان أبو عبد الله يبني رباطا مما يلي بخارى فاجتمع بشر كثير يعينونه على ذلك ، وكان ينقل اللبن ، فكنت أقول له : إنك تُكفَى يا أبا عبد الله ، فيقول : هذا الذي ينفعنا ، ثم أخذ ينقل الزنبرات ^(٢) معه ، وكان ذبح لهم بقرة ، فلما أدركت القدور دعا الناس إلى الطعام وكان بها مائة نفس أو أكثر ولم يكن علم أنه يجتمع ما

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٤٢٩ .

(٢) جمع زنبر وهو الزنبيل ، فارسية معربة .

اجتمع ، وكنا أخرجنا معه من فبر خبزاً بثلاثة دراهم أو أقل فألقيناها بأيديهم فأكل جميع من حضر وفضلت أرغفة صالحة، وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمناء^(١) بدرهم^(٢) .

فهذا مثل من تواضع الإمام البخاري وتقديره للعمل الصالح ، فهو يشارك في بناء الرباط الخيري مع وجود ذلك العدد الكبير من الناس الذين يكفونه المهمة ، لأنه يفهمها على أنه عمل صالح وهو من أول من ينافسون على الخيرات .

من مواقف ابن هبيرة رحمه الله :

من الذين اشتهروا بالتواضع وحسن الأدب الوزير العالم العادل أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني ، ذكر الإمام الذهبي أنه تعلم العلوم الدينية والعربية حتى برع فيها ، وأصابه الفقر فعمل في مجال الكتابة وبرع فيها ، وأن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله عينه وزيراً له ، ثم صار وزيراً لابنه المستنجد .

(١) جمع من وهو زنة رطلين .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٥٠ .

قال: وكان دينًا خيرًا متعبدا عاقلا وقورًا متواضعا ، جَزُلَ الرأي،
بازًا بالعلماء ، مكبًا مع أعباء الوزارة على العلم وتدوينه ، كبير الشأن
حسنة الزمان .

وقال: قال ابن الجوزي: كان يتحدث بنعم الله ، ويذكر في منصبه
شدة فقره القديم ، وقال: نزلت يوما إلى دجلة وليس معي رغيف
أعبرُ به، وكان يُكثر مجالسة العلماء والفقراء ويبذل لهم الأموال فكانت
السَّنة تدور وعليه ديون وقال: ما وجبت عليَّ زكاة قط.

وكان إذا استفاد شيئًا من العلم قال : أفادنيه فلان ، وقد أفدته
معنى حديث ، فكان يقول: أفادنيه ابن الجوزي فكنت استحيي ،
وجعل لي مجلسًا في داره كل جمعة ، ويأذن للعمامة في الحضور، وكان
بعض الفقراء يقرأ عنده كثيرًا فأعجبه وقال لزوجته: أريد أن أزوجه
بابنتي فغضبت الأم .

وكان يُقرأ عنده الحديث كل يوم بعد العصر فحضر فقيه مالكي
فذكرت مسألة فخالف فيها الجمع وأصرّ ، فقال الوزير : أحمار أنت !
أما ترى الكل يخالفونك؟! فلما كان من الغد قال للجماعة : إنه جرى

مني بالأمس في حق هذا الرجل ما لا يليق ، فليقل لي كما قلت له فما أنا إلا كأحدكم ، فضجَّ المجلس بالبكاء ، واعتذر الفقيه ، قال: أنا أولى بالاعتذار ، وجعل يقول : القصاصَ القصاص ، فلم يزل حتى قال يوسف الدمشقي: إذ أبى القصاص فالفداء ، فقال الوزير : له حكمه ، فقال الفقيه : نَعْمُكَ عَلَيَّ كثيرة فأبي حكم بقي لي ؟ قال: لا بُدَّ ، قال: عَلَيَّ دينٌ مئة دينار ، فأعطاه مئتي دينار ، وقال: مئة لإبراء ذمته ، ومئةٌ لإبراء ذمتي^(١) .

وبعد فإن هذا العالم الجليل الذي بلغ منزلة كبرى من المسؤولية في دولة الإسلام يُعدُّ مثلاً من العلماء العاملين ، فقد نجح نجاحاً كبيراً في سياسة الدولة ، حيث طبق حصيلة علمه الواسع النافع في إدارة الأمور ومعاملة الراعي والرعية ، كما نجح في العلم ، وذلك بمدارسة العلماء والعناية بهم ، وتأليف المؤلفات النافعة التي أهمها كتابه النافع «الإفصاح عن معاني الصحاح» وقد شرح فيه صحيحي الإمامين

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٤٢٦ - ٤٢٩ .

البخاريّ ومسلم في عشرة مجلدات .

وفي الخبر المذكور مواقف لهذا الوزير الجليل فمنها كرمه الفياض الذي أذهب ماله حتى أصبح لا مال له تجب فيه الزكاة ، وسبب تراكم الديون عليه مع كثرة دخله المالي لعلو منصبه .

ومنها تواضعه الجَمِّ وذلك في مثل ماجرى منه حينما نسب الفضل لأهله واعترف للعلماء بما استفاده منهم من العلم ، وكذلك حينما أراد أن يزوج طالب العلم الفقير من ابنته ، وقد سار في ذلك على منهج الإسلام في اعتبار الكفاءة الدينية ، ولم يعتبر الفوارق الاجتماعية المعروفة .

كما يظهر تواضعه حينما اعتذر لذلك الفقيه من كلمته التي بدرت منه نحوه ، وألحَّ عليه في أخذ القصاص منه ، إلى أن أنقذ الموقف أحد العلماء باقتراح أخذ الفداء ، فأعطى ذلك الفقيه ضعفَ ماطلب، وهذا يدل على ورعه العظيم حيث شغلتْ باله تلك الكلمة، وخاف من مغبتها في الآخرة فأراد أن يصفِّي حسابها في الدنيا .

وهذه المواقف تدل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه ، لأن هذا

السلوك العالي من آثار ذلك.

ومن مواقف ابن هبيرة في التواضع والوفاء ما ذكر الحافظ ابن رجب من خبر أبي بكر التيمي قال: ولقد كنا يوماً بالمجلس على العادة لسماع الحديث إذ دخل حاجبه أبو الفضائل بن تركمان فسارَّ الوزير بشيء لم يسمعه أحد فقال له الوزير: أدخل الرجل، فأبطأ عليه فقال الوزير: أين الرجل؟ فأبطأ فقال: أين الرجل؟ فقال الحاجب إن معه شملة صوف مكورة وقد قلت له: اتركها مع أحد الغلمان خارجاً عن الستر وادخل، قال: لا أدخل إلا وهي معي، فقال له الوزير: دعه يدخل وهي معه، فخرج وعاد وإذا معه شيخ طُوال من أهل السواد^(١) وعليه فوطة قطن وثوب خام، وفي رجليه جمجمان، فسلم وقال للوزير: ياسيدي إن أم فلان - يعني أم ولده - لما علمت أنني متوجه إليك قالت: بالله سلم لي على الشيخ يحيى عني، وادفع إليه هذه الشملة فقد خبزتها على اسمه، فتبسم الوزير إليه وأقبل عليه، وقال: الهدية لمن حضر، وأمر بحلّها، فحلّت الشملة بين يديه، وإذا فيها خبز شعير

(١) أي من ريف العراق.

مشطور بكامخ أكشوت ، فأخذ الوزير منه رغيفين وقال : هذا نصيبي، وفرّق الباقي على من حضر من صدور الدولة والسادة الأجلة، وسأله عن حوائجه جميعها، وتقدم بقضائها على المكان ، ثم التفت إلى الجماعة وقال: هذا شيخ قد تقدمتُ صحبتي له قديماً ، واختبرته في زرع بيننا فوجدته أميناً ، ولم يظهر منه - أي الوزير - تأفف بمقال الشيخ ولا تكبر عليه ولا إعراض عنه ، بل أحسن لقاءه وقضى حوائجه وأجزل عطاءه .

ثم حكى أنه كان بينه وبين هذا الشيخ زرع ، وأنهم خشوا عليه من جيش عظيم نزل عندهم، فقرؤوا على جوانبه القرآن فسَلِمَ ولم يُرْعَ منه سنبلة واحدة^(١) .

فهذا مثل من اتصاف الوزير ابن هبيرة بخلق التواضع والوفاء ، حيث لم يتكبر على ذلك الرجل الفقير، ولم ينس ما بينه وبينه من معاملة قديمة يوم أن كان ابن هبيرة مثل ذلك الرجل في الفقر والعمل.

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٢٦٢ .

**توجيهات ومواقف
في
الصبر على المكروه**

نماذج من صبر النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم

تقدم ذكر نماذج من صبر النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم على الأذى في كتاب «وقفات مع السيرة النبوية» والمقصود هنا بيان نماذج من صبر النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم على شظف العيش وشدته ، وقد وردت في ذلك أحاديث منها ما أخرجه الحافظان مسلم والترمذي واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: ماجاء بك يا أبا بكر ؟ فقال: خرجت ألقى رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه وأسلم عليه ، فلم يلبث أن جاء عمر ، فقال: ماجاء بك يا عمر؟ قال: الجوع يارسول الله؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: وأنا قد وجدت بعض ذلك، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري وكان رجلاً كثير النخل والشاء ولم يكن له خدمٌ فلم يجدوه فقالوا لامرأته أين صاحبك؟ فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء ، فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة يزعبها^(١) فوضعها ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ويفديه بأبيه

(١) يزعبها أي يتدافع بها ويحملها لثقلها .

وأمه ، ثم انطلق بهم إلى حديقته فَبَسَطَ لهم بساطًا ، ثم انطلق إلى نخلة
 فجاء بقنو فوضعه ، فقال النبي ﷺ ، أفلا تنقيت لنا من رُطبه ؟ فقال :
 يا رسول الله إني أردتُ أن تختاروا ، أو قال تخيروا من رُطبه وبُسره ،
 فأكلوا وشربوا من ذلك الماء ، فقال رسول الله ﷺ : هذا والذي نفسي
 بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة : ظلُّ باردٌ ، ورُطْبٌ
 طيِّبٌ ، وماءٌ باردٌ ، فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعامًا ، فقال النبي ﷺ
 لا تذبحن ذاتَ دَرٍّ ، قال : فدَبَحَ لهم عناقًا أو جَدِيًّا فأتاهم بها فأكلوا ،
 فقال النبي ﷺ : هل لك خادمٌ ؟ قال لا ، قال : فإذا أتانا سبيٌّ فائتنا
 فأُتي النبي ﷺ برأسين ليس معهما ثالثٌ فأتاه أبو الهيثم ، فقال النبي ﷺ
 اخترَ منهما ، فقال : يا نبي الله اخترْ لي ، فقال النبي ﷺ : إن المستشارَ
 مؤتمنٌ ، خذ هذا فإني رأيته يُصَلِّي واستوص به معروفًا ، فانطلق أبو
 الهيثم إلى امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ ، فقالت امرأته : ما أنت
 ببالح ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن تعتقه ، قال : فهو عتيقٌ ؟ فقال النبي
 ﷺ : إن الله لم يبعث نبيًّا ولا خليفةً إلا وله بطانتان بطانةٌ تأمرُهُ
 بالمعروف وتنهَاهُ عن المنكر ، وبطانةٌ لا تألوهُ خبالًا ، ومن يُوقَ بطانةً

السُّوء فقد وُقِّي^(١) .

ولقد كان المهاجرون وهم في مكة قبل الإسلام في رغد من العيش ، فلما جاء الإسلام وعاداه أكثر كبراء مكة ضيقوا على بعض المسلمين في معيشتهم ، ثم لما هاجروا تركوا جميع أموالهم للمشركين وواجهوا حياة الفقر في المدينة ، وقد كانت لهم مواقف في الصبر تُعدُّ نموذجًا يُحتذى لمن بعدهم .

ومما يصور بعض ماواجهوه من ذلك ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله من طريق صالح بن كيسان عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: كنا قبل الهجرة يصيبنا ظلف العيش وشدته فلا نصبر عليه، فما هو إلا أن هاجرنا فأصابنا الجوع والشدّة فاستضلّعنا بهما وقوينا عليهما، فأما مصعب بن عمير فإنه كان أترف غلام بمكة بين أبويه فيما بيننا ، فلما أصابه ما أصابنا لم يقو على ذلك ، فلقد رأيتُه وإن جلده ليتطير عنه تطاير جلد الحية ، ولقد رأيتُه يُنقطع به فما يستطيع أن

(١) سنن الترمذي ، رقم ٢٣٦٩ ، كتاب الزهد (٤/٥٨٤ - ٥٨٥) صحيح مسلم رقم ٢٠٣٨ ، كتاب الأشربة ، (ص ١٦٠٩) .

يمشي، فنعرض له القسيّ ثم نحمله على عواتقنا ، ولقد رأيتني مرة
قمت أبول من الليل فسمعت تحت بولي شيئاً يجافيه ، فلمست بيدي
فإذا قطعة من جلد بعير ، فأخذتها فغسلتها حتى أنعمتها ثم أحرقتها
بالنار، ثم رضضتها فشقت منها ثلاث شقات فاقتويت بها ثلاثاً^(١) .

وهذا تصوير واضح لما كان يعاني منه المسلمون في أول الإسلام
من شدة العيش وخشونة الحياة، وقوله « كنا قبل الهجرة يصيبنا ظلف
العيش وشدته فلا نصبر عليه » المراد بالصبر هنا الإلف والاعتیاد
ومرونة الأجسام على حياة الفقر والشدّة وليس المراد انتفاء الصبر
النفسي فإن الصحابة رضي الله عنهم لقوة إيمانهم كانوا في قمة
الصابرين ، يدل على ذلك قوله «فما هو إلا أن هاجرنا فأصابنا الجوع
والشدّة فاستضلعنا بهما وقوينا عليهما» يعني فالصبر النفسي موجود
قبل ذلك ، ولكن حياة الاعتیاد والانسجام كانت أظهر في المدينة ،
وظل عدم الإلف والانسجام واضحاً في حياة مصعب بن عمير حتى

(١) سير أعلام النبلاء ١/١٤٨ ، أسد الغابة ٤/٣٦٩ .

بعد الهجرة ، وذلك لتمييزه بنوع من حياة الترف والنعيم قبل الإسلام، وعلى الرغم مما عرض له من هذا التحول المفاجئ في حياته ومقامت به أمه وقومه من التضييق عليه فإنه ظل صابراً محتسباً .

ولقد كان النبي ﷺ يتأثر لمِ رآه وهو يقارن حاله تلك بحاله الأولى، كما أخرج الإمام الترمذي وحسنه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إنا جلوس مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ماعليه إلا بردة له مرقوعة بفرو [يعني بجلد] فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة والذي هو فيه اليوم ، ثم قال رسول الله ﷺ: كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة، وَوَضَعَتْ بين يديه صحيفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تُستر الكعبة ؟ قالوا : يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نتفرغ للعبادة وَنُكْفَى المؤنة، فقال رسول الله ﷺ: لا أنتم اليوم خير منكم يومئذ «^(١) .

وبهذا نبههم النبي ﷺ إلى أن الاستقامة على الدين لا تكون مع حياة الترف والإسراف، لأن هذا النوع من الحياة يُورث القلوب

(١) سنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٧٦ (٤/٦٤٧) .

قساوة وجفاء . وقلَّ من يشكر عند الرخاء فيبقى على مستواه من الإيمان في حال الشدة والرخاء .

ولقد كان لتوجيهات النبي ﷺ أثر واضح في حياة الصحابة رضي الله عنهم ، فقد فهموا أن الابتلاء مع الصبر والاحتساب كفارة للخطايا ، وفي ذلك يقول ﷺ « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقي الله وما عليه خطيئة » أخرجه الإمام مالك والترمذي بإسناد حسن^(١) .

وفهموا أن الصبر على البلاء رفع للدرجات يوم القيامة وأن ابتلاء المؤمن من محبة الله تعالى له ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط » أخرجه الإمام الترمذي بإسناد حسن^(٢) .

وأخذوا العبرة من ابتلاء الأنبياء عليهم السلام واقتدوا بهم في

(١) موطأ مالك ١/ ٢٣٦ ، سنن الترمذي رقم ٢٤٠١ ، في كتاب الزهد .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب الزهد رقم ٢٣٩٨ .

الصبر والاحتساب، يقول رسول الله ﷺ « أشد الناس بلاء الأنبياء ،
ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه
صلبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح
البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » أخرجه
الإمام الترمذي وقال: حسن صحيح ^(١) .

ومما يصور ماكان فيه المسلمون في العهد النبوي من شدة العيش
ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير :
ابن أختي إن كنا لنتنظر الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت في
أبيات رسول الله ﷺ نار ، فقلت: ما كان يُعيشكم ؟ قالت : الأسودان ،
التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كان لهم
منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من أبياتهم فيسقيناه ^(٢) .

ويصور ذلك ما جاء في قول أبي هريرة رضي الله عنه : لقد رأيتني
وإني لأخرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة مغشيا عليّ ،

(١) سنن الترمذي ، الزهد ، باب ٤٥ (٧/٧٨) .

(٢) صحيح البخاري رقم ٦٤٥٩ ، كتاب الرقاق (١١/٢٨٣) .

فيجئ الجائي فيضع رجله على عنقي ويُرى أني مجنون ومابي من جنون
ومابي إلا الجوع»^(١) .

هذا أبو هريرة الذي كان مثلاً من أمثلة المهاجرين الذين كانوا في
يسار من العيش في بلادهم، فهاجروا بدينهم وصبروا على ماناهم من
البلاء .

ومن هؤلاء علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وقد ذكر صورة
مما ناله من شدة العيش والجوع حيث يقول : خرجت في يوم شاتٍ
من بيت رسول الله ﷺ ، وقد أخذت إهاباً معطوناً^(٢) فجوّبت وسطه^(٣)
فأدخلته في عنقي وشددت وسطي فحزمته بخوص النخل وإني
لشديد الجوع، ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه ،
فخرجت ألتمس شيئاً ، فمررت بيهودي في مال له وهو يسقي ببكرة
له ، فاطلعت عليه من ثلثة في الحائط ، فقال : مالك يا أعرابي ، هل

(١) صحيح البخاري رقم ٧٣٢٤ ، كتاب الاعتصام (١٣/٣٠٣) .

(٢) يعني جلدا منتن الرائحة .

(٣) أي خرقتة فجعلته جيباً .

لك في دلو بتمرة؟ فقلت: نعم، فافتح الباب حتى أدخل، ففتح
فدخلت فأعطاني دلوه، فكلما نزعت دلواً أعطاني تمرة، حتى إذا
امتلأت كفي أرسلت دلوه وقلت: حسبي فأكلتها، ثم جرعت من
الماء فشربت، ثم جئت المسجد فوجدت النبي ﷺ فيه «أخرجه الإمام
الترمذي وقال: حسن غريب»^(١).

ولقد كان لهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم أسوة حسنة برسول
الله ﷺ الذي يقول «لقد أُخِفْتُ في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في
الله وما يؤذي أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي
ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال» أخرجه
الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(٢).

وإن هذه النماذج لتدلنا على مبلغ ما كان يعاني منه المسلمون من
شدة العيش في ذلك العهد، ولقد قابلوا ذلك بالرضى والتسليم

(١) تحفة الأحوذى بشرح الترمذي، رقم ٢٥٩١ كتاب صفة القيامة (٧/١٧١).

(٢) تحفة الأحوذى، رقم ٢٥٩٠ (٧/١٧٠)، سنن ابن ماجه رقم ١٥١، المقدمة

(١/٥٤).

والصبر الجميل ، ولم يرو التاريخ أن أحداً من المهاجرين الصادقين ترك المدينة ورجع إلى بلده من أجل ضعف احتمالته وقلته صبره ، وهذا دليل ظاهر على قوة إيمانهم ومبلغ تضحيتهم .

وهؤلاء الصابرون على البلاء حينما تحوّلت حالهم إلى الرخاء لم يتكبروا ولم يبطروا بل كانوا من الشاكرين للنعماء ، فكانوا بحق مؤمنين متصفين بقول رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » أخرجه الإمام مسلم ^(١) .

ومما يصور ما كان يعاني منه الصحابة رضي الله عنهم من الشدة وما علمهم النبي ﷺ من الصبر والزهد ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه « أن فاطمة عليها السلام شكّت ما تلقى من أثر الرّحى ، فأُتِيَ النبيُّ ﷺ بسبني ، فانطلقت فلم تجده ، فوجدت عائشة فأخبرتها ، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة

(١) صحيح مسلم ، الزهد ، رقم ٢٩٩٩ ، (ص ٢٢٩٥) .

بمجيء فاطمة ، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبتُ لأقوم فقال : على مكانكما ، فقعد بيننا حتى وجدتُ برَدَ قدميه على صدري، وقال: ألا أعلمكما خيرا مما سألتماي ؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعاً وثلاثين ، وتسبحان ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم»^(١) .

وهكذا كانت هذه الأسرة الكريمة تعيش في شظف من العيش ، فعليّ رضي الله عنه كان لا بدّ له من أجل الحصول على الطعام من أن يؤجّر نفسه في إخراج الماء من الآبار ، وكان لا بد لفاطمة رضي الله عنها من أن تطحن بالرحى .

وكانا صابرين على هذه الحياة الشاقة ، ولكن حينما آنسا باباً من أبواب الفرج طلبا من النبي ﷺ خادما ، ولكن النبي ﷺ الذي يدرك من أحوال أصحابه ما لا يدركان قد أدرك بأن هناك من هم أشد منهما فقرا وأحوج منهما إلى المعونة ، وهم أهل الصفة الذين لا مال لهم ولا

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٧٠٥ ، فضائل الصحابة (٧ / ٧١) .

أهل ، فقرر أن يبيع ذلك السبي وأن يرد قيمته على أولئك الفقراء كي ينقذ حياتهم من المسغبة^(١) ، وهذه نظرة عالية من رسول الله ﷺ إلى المستضعفين من أصحابه ، ودرس بليغ لمن ولاه الله تعالى أمر الأمة أن لا يحاييَ أقرابه على حساب من هم أشد حاجة وأبلغ استحقاقا .

وفي هذا الخبر درس آخر في غاية الأهمية حيث جاء النبي ﷺ إلى ابن عمه علي وابنته فاطمة رضي الله عنهما فزودهما بما هو خير لهما مما سألاه ، فقد زودهما بذكر الله تعالى الذي هو زاد القلوب وحياتها .

وقد يتعجب الإنسان كيف يطلبان خادما فيرشدهما النبي ﷺ إلى ذكر الله تعالى ، ولكن حينما يعرف المتأمل ما لذكر الله جل وعلا من أثر عظيم في تقوية النفوس فإنه يزول ذلك العجب ، فإن القلوب إذا عُمرت بذكر الله سبحانه هانت عليها المصائب ، وسمت في أفكارها المطالب ، وأصبح أصحابها يستعذبون الشدائد في سبيل الله تعالى ، ويرون أنها أبواب خير لرفع رصيدهم من الحسنات ، وخفض رصيدهم من السيئات .

(١) جاء ذلك في رواية ذكرها ابن الجوزي - صفة الصفوة ٢ / ١٠ - .

موقف لأبي طلحة وأم سليم رضي الله عنهما :

أخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مات ابن أبي طلحة من أم سليم . فقالت لأهلها : لا تحدثوا أباطلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه . قال فجاء فقربت إليه عشاءً . فأكل وشرب . فقال ثم تصنعتُ له أحسن ما كان تصنع قبل ذلك . فوقع بها . فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة ! رأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيتٍ ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا . قالت : فاحتسب ابنك . قال فغضب وقال: تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتني بابني ! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان . فقال رسول الله ﷺ «بارك الله لكما في غابر ليلتكما» قال: فحملتُ . قال فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه . وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر ، لا يطرُقُها طرُوقاً^(١) . فدنوا من المدينة فضر بها المخاض^(٢) . فاحتبس عليها أبو طلحة . وانطلق رسول

(١) أي لا يدخلها في الليل .

(٢) هو الطلق ووجع الولادة .

الله ﷺ . قال يقول أبو طلحة : إنك لتعلم ، يارب ! إنه يُعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتبست بما ترى . قال تقول أم سليم : يا أبا طلحة ! ما أجد الذي كنتُ أجد^(١) . انطلق . فانطلقنا . قال وضربها المخاض حين قدما . فولدت غلاما . فقالت لي أمي : يا أنس لا يرضعه أحدٌ حتى تغدو به على رسول الله ﷺ . فلما أصبح احتملته . فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ . قال فصادفته ومعه ميسم^(٢) فلما رأني قال « لعل أم سليم ولدت ؟ » قلت : نعم . فوضع الميسم . قال وجئتُ به فوضعتُه في حجره . ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة ، فلاكها في فيه حتى ذابت ، ثم قذفها في الصبي ، فجعل الصبي يتلمظها ، قال رسول الله ﷺ : انظروا إلى حب الأنصار التمر ، قال : فمسح على وجهه وسماه عبد الله^(٣) . وجاء في رواية عباية بن رفاعة الأنصاري « فلقد رأيت لذلك

(١) تريد أن الطلق انجلى عنها ، وتأخرت الولادة .

(٢) هو الآلة التي يكوى بها الحيوان . من الوسم . وهو العلامة .

(٣) صحيح مسلم ، رقم ٢١٤٤ ، فضائل الصحابة (ص ١٩٠٩) .

الغلام سبعة بنين كلهم قد ختم القرآن»^(١) .

وهكذا كان أبو طلحة وأم سليم رضي الله عنهما مثلاً علياً في الصبر على البلاء ، فلقد كانا يجبان ابنهما حباً شديداً فأراد الله عز وجل أن يتليهما بفقد هذا الولد حتى ينالا أجر الصابرين، ولقد ظهر في هذا المثل العالى نموذج من البشر يقدم محبة الله جل وعلا على محبة أحب شيء إليهم.

ولقد كانت أم سليم امرأة عظيمة ، حيث صبرت هذا الصبر القوي ، وظهرت أمام زوجها وكأنها تخلو من أي مصيبة ، إن هذه المرأة التقية الصابرة كانت تتمتع بإيمان راسخ قد خالط شغاف قلبها فاستطاعت أن تكتم مشاعر الحزن على ابنها رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر .

وكان للتوجيهات الإسلامية أثر كبير في نفس تلك المرأة المؤمنة، فقامت بدور فعال في تهدئة زوجها حتى نام ليلته في راحة وطمأنينة ،

(١) فتح الباري ٣/ ١٧١ .

وكانت ترجو من الله عز وجل أن يكافئها على صبرها بولد صالح يعوضها عن ابنها الذي فقدته .

وظفر هذان الزوجان الكريمان بدعوة مباركة من رسول الله ﷺ ، وقد استجاب الله تعالى لهذه الدعوة فحملت أم سليم وظهرت تبشير إجابة الدعوة بما شعرت به من خفة الحمل وعدم التعرض لما كانت تتعرض له من آلام ، ثم ظهرت بركة هذه الدعوة بما أنعم الله تعالى به على ولدهما من البنين الذين حفظوا القرآن الكريم .

من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه :

من أمثلة الصبر على الشدائد ماجاء في خبر إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل هذا الخبر من رواية محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني سلمان الفارسي حديثه من فيه قال: كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جَيّ وكان أبي دهقان قريته وكنت أحب خلق الله إليه فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته - أي ملازم النار- كما تحبس الجارية ، واجتهدت في المجوسية حتى

كنت قاطن النار الذي يوقدها لا يتركها تحبو ساعة ، قال : وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، قال: فشغل في بنيان له يوما فقال لي : يا بني إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطلعه وأمرني فيها ببعض ما يريد ، فخرجت أريد ضيعته فمررت بكنيسة من كنائس النصرى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، قال: فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي ولم آتها ، فقلت لهم : اين أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام .

قال : ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله قال: فلما جئته قال: أي بني أين كنت ألم أكن عهدت إليك ماعهدت ؟ قال قلت: يا أبت مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني مارأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس ، قال: أي بني ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك

خير منه قال قلت : كلا والله إنه خير من ديننا قال : فخافني فجعل في رجلي قيذا ثم حبسني في بيته .

قال : وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى ، قال : فأخبروني بهم قال فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأذنوني بهم ، قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة ، قال : فجئتته فقلت : إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك ، قال : فادخل فدخلت معه قال : فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزها لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب

وورق^(١) ، قال : وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ، ثم مات
فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم : إنَّ هذا كان رجل سوء
يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم
يعط المساكين منها شيئا ، قالوا : وما علمك بذلك ؟ قال قلت : أنا
أدلكم على كنزه قالوا : فدلنا عليه ، قال : فأريتهم موضعه قال :
فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقا ، قال : فلما رأوها قالوا :
والله لاندفنه أبدا فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ثم جاؤوا برجل آخر
فجعلوه بمكانه .

قال يقول سلمان فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل
منه ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلا ونهارا
منه^(٢) . قال : فأحبيته حبا لم أحبه من قبله وأقمت معه زمانا ثم حضرته
الوفاة فقلت له يا فلان إني كنت معك وأحبتك حبا لم أحبه من قبلك
وقد حضرك ماترى من أمر الله فيلى من توصي بي وما تأمرني ؟ قال أي

(١) الورق بكسر الراء الفضة .

(٢) قوله " لا يصلي الخمس " أي ليس من المسلمين .

بني والله ما أعلم أحدا اليوم على ماكنت عليه ، لقد هلك الناس
وبدلوا وتركوا أكثر ماكانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان فهو
على ماكنت عليه فالْحَقْ به .

قال: فلما مات وغيَّب لحقت بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان
إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره ، قال
فقال لي : أقم عندي فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه
فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان إن فلاناً أوصى
بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ماترى
فإلى من توصي بي وما تأمرني ؟ قال: أي بني والله ما أعلم رجلا على
مثل ماكنا إلا رجلا بنصيبين وهو فلان فالْحَقْ به .

قال : فلما مات وغيَّب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته
بخبري وما أمرني به صاحب، قال: فأقم عندي فأقمت عنده فوجدته
على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فو الله مالبت أن نزل به
الموت، فلما حضر قلت له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم
أوصى بي فلان إليك فألى من توصي بي وماتأمرني ؟ قال: أي بني والله

مانعلم أحداً بقي على أمرنا أمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه بمثل
مانحن عليه فإن أحببت فآته قال: فإنه على أمرنا .

قال: فلما مات وغيَّب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبري
فقال: أقم عندي فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم ، قال:
واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمه ، قال: ثم نزل به أمر الله فلما
حُضِر قلت له : يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي فلان إلى فلان
وأوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصى بي
ومات أمرني ؟ قال: أي بني والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد
من الناس أمرك أن تأتيه ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين
إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل
به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم
النبوة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

قال : ثم مات وغيَّب فمكثت بعمورية ماشاء الله أن أمكث ، ثم
مر بي نفر من كلب تجارا فقلت لهم تحملوني إلى أرض العرب
وأعطيتكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه ؟ قالوا : نعم فأعطيتهموها

وحملوني حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من
يهود عبدا فكنت عنده ورأيت النخل ورجوت أن تكون البلد الذي
وصف لي صاحبي ، ولم يخف لي في نفسي ، فبينما أنا عنده قدم عليه ابن
عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة
فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي ، فأقمت بها وبعث
الله رسوله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من
شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي
أعمل فيه بعض العمل وسيدي جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف
عليه فقال: يافلان قاتل الله بني قيلة والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء
على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي ، قال: فلما
سمعتها أخذتني العرواء^(١) حتى ظننت سأسقط على سيدي ، قال:
ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك ماذا تقول ماذا
تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكنني لكمة شديدة ثم قال : مالك

(١) أي الرعدة الشديدة .

ولهذا أقبل على عملك ، قال قلت : لاشيء إنما أردت أن استثبت عن ما قال .

وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقاء فدخلت عليه فقلت له : إني قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة هذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم ، قال: فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : كلوا وأمسك يده فلم يأكل ، قال فقلت في نفسي : هذه واحدة .

ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم جئت به فقلت : إني رأيتك لاتأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها قال: فأكل رسول الله ﷺ وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال فقلت في نفسي : هاتان اثنتان .

قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بقيق الغرقد ، وقد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان له وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي

فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أنني أستثبت في شيء ووصف لي ، قال: فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فانكبت عليه أقبله وأبكي ، فقال لي رسول الله ﷺ : تحوّل فتحوّلت فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس ، قال : فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه .

ثم شغل سلمان الرقُّ حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد ، قال ثم قال لي رسول الله ﷺ : كاتب ياسلمان فكاتبتي صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير^(١) وبأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه أعينوا أخاكم فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين ودية^(٢) والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية، قال لي رسول الله ﷺ : اذهب ياسلمان ففقر لها^(٣) فإذا فرغت فائتني فأكون أنا أضعها بيدي، ففقرت لها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت منها جئت فأخبرته ،

(١) الفقير الحفرة التي تحفر للنخلة كي تغرس فيها .

(٢) الودية الفسيلة .

(٣) أي احفر لها في الأرض .

فخرج رسول الله ﷺ معي إليها فجعلنا نقرب له الوديّ ويضعه رسول الله ﷺ بيده فوالذي نفس سلمان بيده مامات منها ودية واحدة، فأدّيت النخل وبقي عليّ المال فأُتِيَ رسولُ الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: ما فعل الفارسي المكاتب؟ قال: فدُعيت له فقال: خذ هذه فأدّها ما عليك يا سلمان ، فقلت : وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليّ؟ قال: خذها فإن الله عز وجل سيؤدّي بها عنك ، قال: فأخذتها فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم وعتقت وشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق ثم لم يفتني معه مشهد^(١) .

وهذه القصة تبين لنا ما كان يتصف به سلمان رضي الله عنه من الصبر الطويل على المشاقّ الجَمّة والصعاب المتواصلة من أجل

(١) مسند أحمد ٥/٤٤١ - ٤٤٤ .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد كله والطبراني في الكبير بنحوه بأسانيد ، وإسناد الرواية الأولى عند أحمد والطبراني رجالها رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع ، والرواية الثانية انفرد بها أحمد ورجالها رجال الصحيح غير عمرو بن أبي قرّة وهو ثقة - مجمع الزوائد ٩/٣٣٦ - .

الوصول إلى الدين الحق ، وإن في قصته لعبرة لأولي الألباب الذين ينظرون بعين الاعتبار لمستقبلهم الأخرى فيسخرّون له حياتهم الدنيا ، فقد صبر على حبس أبيه وقيدته أولاً ، ثم صبر على السفر والتنقل من عابد إلى عابد حتى دلّه العابد الأخير على الطريق الثابت الذي لا يزول بزوال عبّاده وعلمائه .

فلما عرف أن الطريق المستقيم في أن يبحث عن هذا النبي المنتظر فيؤمن به ويتبعه ، ضحى بهاله وراحته من أجل الوصول إليه ، وتحمل الرّق صابراً محتسباً مادام أنه سيبلغه إلى هدفه المنشود .

ونجد في هذه القصة عناية الله تعالى بسلمان حيث قاده توفيق الله تعالى من مرحلة إلى أخرى حتى بلغ أرض الهجرة النبوية ، فاطمأن بها منتظراً قدوم رسول الله ﷺ .

ومن خلال هذا الخبر يتبين لنا شيء من علامات النبي ﷺ المذكورة في الكتب السابقة وهي أنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وأن بين كتفيه خاتم النبوة ، وأنه يبعث في مكة ويهاجر إلى المدينة ، وأن أهل الكتاب كانوا يعرفون زمن بعثته على التقريب لما جاء في

الخبر من قول الراهب لسلمان « قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم » .

وقد كان ذلك كافيا لدفع اليهود والنصارى إلى أن يكونوا أول من يؤمن به ، ولكنهم مع ذلك عادوه اتباعا للهوى وقتلوه ، إلا القليل ممن دخل في الإسلام منهم كسلمان الفارسي وعبدالله بن سلام رضي الله عنهما .

من مواقف عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكر الإمام الذهبي من طريق ضرار بن عمرو عن أبي رافع قال : وجّه عمر جيشًا إلى الروم فأسروا عبد الله بن حذافة فذهبوا به إلى ملكهم ، فقالوا : إن هذا من أصحاب محمد ، فقال : هل لك في أن تنتصر وأعطيك نصف ملكي ؟ قال : لو أعطيتني جميع ماتملك وجميع ملك العرب مارجعت عن دين محمد طرفة عين ، قال : إذا أقتلك ، قال : أنت وذاك ، فأمر به فُصِّل ، وقال للرماة ، ارموه قريبًا من بدنه ، وهو يعرض عليه ويأبى ، فأنزله ودعا بِقَدْرٍ فَصَّبَ فِيهِ ماء حتى احترقت ، ودعا بأسيرين من المسلمين ، فأمر بأحدهما فألقي

فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ، ثم بكى فقيل للملك :
إنه بكى ، فظن أنه قد جزع ، فقال : ردُّوه ، ما أبكاك ؟ قال قلت : هي
نفس واحدة تُلقَى الساعة فتذهب ، فكنت اشتهي أن يكون بعدد
شعري أنفَس تُلقَى في النار في الله ، فقال له الطاغية : هل لك أن تقبَّل
رأسي وأخِليَّ عنك ، فقال له عبد الله : وعن جميع الأسارى ؟ قال :
نعم ، فقبَّل رأسه ،

وقدم بالأسارى على عمر ، فأخبره خبره ، فقال عمر : حقُّ على
كل مسلم أن يقبَّل رأس ابن حذافة ، وأنا أبدأ فقبَّل رأسه .

وفي رواية أخرى ذكرها الذهبي من طريق الوليد بن مسلم قال
حدثنا أبو عمرو ومالك بن أنس : أن أهل قيسارية أسروا ابن حذافة
فأمر به ملكهم ، فَجَرَّبَ بأشياء صبر عليها ، ثم جعلوا له في بيت معه
الخمير ولحم الخنزير ثلاثا لا يأكل ، فاطَّلَعُوا عليه فقالوا للملك : قد
انثنى عنقه فإن أخرجته وإلا مات ، فأخرجه وقال : مامنك أن تأكل
وتشرب ؟ قال : أما إن الضرورة كانت قد أحلتها ، ولكن كرهت أن

أشمتك بالإسلام^(١) .

وذكر هذا الخبر الحافظ ابن حجر في الإصابة من طريق ضرار ابن عمرو عن أبي رافع ونسبه للبيهقي ثم قال : وأخرج ابن عساكر لهذه القصة شاهداً من حديث ابن عباس موصولاً^(٢) .

ونجد في هذا الخبر حرص ملك الروم على أسر رجل من أصحاب النبي ﷺ ليتوصل بطريق الترغيب أو التهيب إلى تحويله عن دين الإسلام ، ولو حصل له ذلك لكان نصرًا له يعوض به بعض خسارة الروم الكبرى في حروبهم مع المسلمين ، وكان دافعاً لرفع معنوية جيش الروم المنهارة .

وهكذا نجد أعداء الإسلام من قديم الزمن يرون أن ظفرهم بتحويل المسلمين عن دينهم يعدُّ أعظم انتصار لهم .
ولئن فشلوا في حصولهم على ذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم فلقد نجحوا بعد ذلك كثيرًا في هذا المجال .

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢ .

(٢) الإصابة ٢ / ٢٨٨ رقم ٤٦٢٢ .

فلما ظفر الروم بعبد الله بن حذافة جاؤوا يبشرون ملكهم بهذا
الظفر على أساس أن ذلك أول مراحل الانتصار .

وبدأ ملك الروم مع ابن حذافة في مرحلة الفتنة بالترغيب فقال
له : هل لك في أن تنصّر وأعطيك نصف ملكي ؟

وهذا عرض سخّي كبير تُصغي إليه النفوس المجبولة على حب
المال والجاه ، وقد صدر من رجل يملك التصرف ، وتحت يده ممالك
النصف الغربي من الأرض إلى رجل لا يملك من الدنيا إلا ما يبلغه إلى
الآخرة ، فماذا كان جواب ابن حذافة ؟

لقد كان جوابَ الرجل الواثق بدينه الذي يؤمن بأن ما عند الله
تعالى خير وأبقى حيث قال: لو أعطيتني جميع ماتمك وجميع ملك
العرب مارجعت عن دين محمد طرفة عين .

وهذا دليل على ما كان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم من
قوة الإيمان والثبات عند الشدائد ، وهذا الموقف وأمثاله يصور لنا
أنهم كانوا يعدُّون الدين أغلى جوهر يملكونه ، فهم لا يفرطون فيه
ولا يبيعونه بأي ثمن .

وإنها لمساومة خاسرة يقوم بها ملك الروم لينزع بها كرامة المسلم وبهائه في هذه الحياة الدنيا مقابل عَرَضٍ زائل ، وهذا العَرَضُ وإن كان في نظر أبناء الدنيا سخيا فإنه في نظر أبناء الخلود شيء تافه حقير .

ولقد وُفِّقَ ابن حذافة حينما أجابه بتحقير دنياه التي يعتز بها ببيان أن مُلْك الدنيا لا يعادل الانخلاع من هذا الدين العظيم طرفة عين .
ويخرج ابن حذافة من فتنة الترغيب كالذهب الخالص ، ويدخل في فتنة الترهيب حيث يقول له ملك الروم : إِذَا أَقْتَلْتُكَ ، قال : أنت وذاك ، فأمر به فُصِّلَ ، وقال للرملة : ارموه قريبا من بدنه ، وهو يعرض عليه ويأبى .

إنه يبيع نفسه رخيصة في سبيل الإبقاء على هذا الدين العظيم .
إن الإنسان حينما ينخلع من دين الإسلام يكون كائناً حيا لاقيمة له في الحياة ، لأنه يكون قد فقد كرامته الإنسانية ، وإنما تكون الكرامة بهذا الجوهر النفيس الذي به يصل إلى الهدف الأعلى الذي خُلق من أجله ، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في دار الخلود .

ويعمن ملك الروم في تخويفه حيث يُلقِي في القدر الذي يغلي
رجلا من المسلمين فإذا هو عظام تلوح كما جاء في بعض الروايات ،
ولكن ابن حذافة يمعن في تبكيت ملك الروم والتأكيد على احتقار
هذه الدنيا التي من أجلها يتنافس التائهون عن الهداية ، ولقد تشكَّل
هذا المعنى السامي بصورة قطرات من الدمع تَهْمِي من عيني ذلك
الرجل العظيم .

ويظن ملك الروم وقومه ، - لفرط تعلقهم بالدنيا ومتاعها - أن
تلك الدموع تحكي نوعا من الانجذاب نحو حب البقاء الذي سيكون
ثمنا لخلع ذلك الجوهر السامي ، وإذا بهم يفاجؤون بما يذهلهم
ويُذهِّمُ .

إن ابن حذافة يبكي لأنه لا يملك إلا نفسًا واحدة يجوز بها أجر
الشهيد عند الله تعالى ، ومن أجل مارسخ في قلبه من تصور ما أعده
الله تعالى للشهداء فإنه يبكي على كونه لا يملك أنفسا بعدد شعره لينال
الشهادة بهذا العدد الكبير .

وهنا شعر ملك الروم بتحطُّم معنويته وكبريائه وقلة شأنه أمام

هذا العملاق الضخم ، فأراد أن يسترّد شيئاً من ذلك المجد الوهمي المحطّم فقال لابن حذافة: هل لك أن تقبّل رأسي وأخليّ عنك؟ وما أن لامس مسامع ابن حذافة نبأ الفكاك من الأسر حتى تذكّر إخوانه من أسارى المسلمين حالاً فقال: وعن جميع الأسارى؟ قال: نعم ، فقبّل رأسه .

إنه من جيل عظيم قد بلغ آفاق السمو الأخلاقي فهو لا يعيش لنفسه، وإنما يعيش لإخوانه، فلذلك تذكّرهم وشرط فكّ أسرهم معه. ولكن هل هذه القبلة تحمل معنى التعظيم والإجلال؟ لا ، إنها جاءت عقب ذلك الانتصار العظيم .. انتصار المبادئ الإلهية السامية التي يمثلها أركى العناصر البشرية على المبادئ الأرضية الواهية التي يمثلها التائهون الغاؤون . إنها قبلة تحمل معنى مداراة أهل الباطل لاستخلاص حق المسلمين منهم من غير مدهانة تتضمن التفريط فيما يجب لله تعالى . ولقد أكبر عمر رضي الله عنه هذا السلوك الرفيع من ابن حذافة فقال هذه المقالة العظيمة «حق على كل مسلم أن يقبّل راس ابن

حذافة وأنا أبدأ « فقبّل رأسه .

وهي إشادة عظيمة من رجل كبير القدر في نفوس المسلمين
لعمل جليل يستحق كل عناية واهتمام .

وما حدث من أمير المؤمنين عمر يُعدُّ إقرارًا منه ومن علماء
الصحابة رضي الله عنهم بما جرى من ابن حذافة من مداراة عظيم
الروم أخيرًا لاستنقاذ عدد من أسرى المسلمين .

وهو موقف لا يحمل أي معنى لِدَلَّة بعدما سبقه من المظاهر
العالية للتمسك بالإسلام وإظهار عزته وجلاله .

ونخلص إلى المشهد الآخر الذي صورته لنا إضافة الرواية الثانية
حيث صبر ابن حذافة على الجوع والعطش ثلاثة أيام ولم يمد يده إلى
ما حرمه الله تعالى عليه ، رغم علمه بأن ذلك مباح للمضطر ، كراهة
أن يُدخل السرور على ملك الروم فيؤدي ذلك إلى شماتته بالإسلام .
ونصل من ذلك إلى استهانة أولئك الأفاذ بأجسامهم في مقابل
الحفاظ على المعاني النبيلة التي خلدها في أذهانهم الإسلام .

من مواقف عروة بن الزبير رحمه الله :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر هشام بن عروة بن الزبير قال : خرج أبي إلى الوليد بن عبد الملك فوقع في رجله الآكلة ، فقال له الوليد : يا أبا عبد الله أرى لك قطعها ، قال : فقطع وإنه لصائم فما تضرَّ وجهه .

قال : ودخل ابن له أكبر ولده إصطبل الدواب فرفسته دابة فقتلته ، فما سُمع من أبي في ذلك شيء حتى قدم المدينة ، فقال : اللهم إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد ، وكان لي بنون أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد ، وإيّم الله لئن أخذت لقد أبقيت ، ولئن أبليت طالما عافيت .

وأخرجه أيضًا من عدة طرق ، وقد جاء في إحداها أنه تمثل بأبيات معن بن أوس :

لعمرك ما أهويت يوما لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلّني رأبي عليها ولا عقلي

وأعلم أن لم تُصنبي مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي^(١)
وأخرج الحافظ ابن عساكر هذا الخبر من عدة طرق وجاء في
رواية له : أنه لما وقعت الأكلة في رجله قيل له : ألا ندعو لك طبيباً ؟
قال : إن شئتم ، فجاء الطبيب فقال : أسقيك شراباً يزول فيه عقلك ،
فقال امض لشأنك ماظنت أن خلقتا يشرب شراباً يزول فيه عقله
حتى لا يعرف ربه .

وذكر في رواية أنه أبى أن يشرب المخدر وأن الطبيب قطع رجله
من نصف ساقه ، فما زاد على أن يقول : حَسَّ ، حسَّ^(٢) ، فقال الوليد :
مارأيت شيخاً أصبر من هذا^(٣) .

فهذا مثل جليل في الإيمان القوي الذي تمثل في الصبر على المكاره
والرضى بقضاء الله تعالى وقدره ، والمستوى العالي من الذكر القلبي
وحضور القلب مع الله تعالى ، حيث لم يقبل أن يفقد عقله حتى عند

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٧٨ - ١٧٩ .

(٢) كلمة حَسَّ تعبير عن الإحساس بالألم .

(٣) تاريخ دمشق ٤٠/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

الضرورة وفي ذلك الوقت القليل ، وذلك كله ناتج من العلم الراسخ بقضاء الله تعالى وقدره وما أعده لعباده الصابرين من الثواب الجزيل .

من مواقف إبراهيم بن إسحاق الحربي رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي من حديث أبي الحسين بن سمعون قال قال أحمد بن سلمان القطيعي : ضِقتُ إِضِاقَةً فمضيتُ إلى إبراهيم الحربي لأبثه ماأنا فيه ، فقال لي : لا يَضِيقُ صدركُ فإن الله من وراء المعونة ، وإني ضِقتُ مرة حتى انتهى أمري في الإضِاقَة إلى أن عدم عيالي قوتهم ، فقالت لي الزوجة : هبْ أُنِي وإياك نصبر ، فكيف نصنع بهاتين الصبيتين ؟ فهات شيئا من كتبك حتى نبيعه أو نرهنه ، فَضِنْتُ بذلك وقلت : اقترضي لهما شيئا وأنظريني بقية اليوم واللييلة ، وكان لي بيت في دهليز داري فيه كتيبي ، فكنت أجلس فيه للنسخ وللنظر ، فلما كان في تلك اللييلة إذا داقُ يدقُ الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : رجل من الجيران ، فقلت : ادخل ، فقال : اطفئ السراج حتى أدخل ، فكببت على السراج شيئا وقلت : ادخل ، فدخل وترك إلى جانبي شيئا وانصرف ، فكشفت عن السراج ونظرت فإذا منديل له

قيمة وفيه أنواع من الطعام ، وكاغد^(١) فيه خمس مئة درهم ، فدعوت
الزوجة وقلت : أنبهي الصبيان حتى يأكلوا، ولما كان من الغد قضينا
دينا كان علينا من تلك الدراهم، وكان وقت مجيء الحاج من خراسان،
فجلست على بابي من غد تلك الليلة، وإذا جمال يقود جملين عليهما
حملان ورقا ، فحط الجملين وقال: هذان الحملان أنفذهما لك رجل
من أهل خراسان ، فقلت : من هو ؟ فقال: قد استحلّفني أن لا أقول
من هو^(٢) .

ففي هذا الخبر مثل عال في الصبر على البلاء والرّضى بمُرّ القضاء
وقوة الرجاء، وما ذاك إلا نتيجة للتربية القويمة التي كان يتلقاها أهل
العلم منذ المراحل الأولى للطلب ، والنية الخالصة التي كانت ترافق
طلبهم للعلم ، حيث كانوا يطلبونه للعمل به لا لمجرد التزود منه ، وقد
كان الإمام أبو إسحاق إبراهيم الحربي من الأئمة في هذا الشأن .
كما أن فيه مثلا من عناية الله تعالى بأوليائه المؤمنين ، وذلك

(١) الكاغد هو الورق .

(٢) تاريخ بغداد ٦/ ٣١-٣٢ .

بتسخير عباده لقضاء حوائجهم ، فحينما اذْهَمَّت الخطوب بهذا الإمام، وكان المخرج منها منحصرًا ببيع شيء من كتبه أو رهنها لم تطب نفسه بذلك ، وعلم الله جل وعلا بإخلاصه وصدق توجهه فيسّر أمره وأزال عسره .

من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

قال الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب رحمه الله تعالى : قال شيخنا أبو عبد الله ابن القيم: شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة . قال : وقال لي مرة : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحمت فهي معي ، لا تفارقني ، أنا حسي خلوة . وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة .

وكان في حبسه في القلعة يقول : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة - أو قال : ماجزيتهم على ماتسببوا لي فيه من الخير - ونحو هذا .

وقال مرة : المحبوس من حُبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره

هواه .

قال شيخنا : وعلم الله ما رأيت أحداً أطيّب عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف ، وهو مع ذلك أطيّب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدرا ، وأقواهم قلباً ، وأسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون ، وضافت بنا الأرض أتيانها ، فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب عنا ذلك كله ، وينقلب انشراحاً وقوة ويقينا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقاءه ، وفتح لهم أبوابها في دار العمل ، فأتاهم من رَوْحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها ، والمسابقة إليها ^(١) .

فهذا الكلام المروي عن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية الذي يتحدث به عن نفسه والذي يصفه به

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٤/٤٠٢ - ٤٠٣ .

تلميذه شمس الدين أبو عبد الله ابن القيم فيه وصف بليغ لما كان يتصف به ابن تيمية من الإيمان الراسخ واليقين الصادق ، والصبر على المكاره والرضا بقضاء الله وقدره ، والزهد في الدنيا ، فهو لا يبالي بما يدبره له أعداؤه ، فالسجن الذي يخشاه الناس عادة هو عنده خلوة بربه ، فهو فرصة كبيرة لعبادة الله جل وعلا ، حيث العزلة وفراغ الفكر ، أما القتل الذي يفزع الناس منه فهو عنده شهادة ، وطالما تمنى الصالحون الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وأما نفيه من بلده فهو عنده سياحة ، والسياحة مرغوب فيها عند الناس عادة لما فيها من الترويح عن النفس واكتساب المعرفة والخبرات المتعددة .

وهذا فإن الأعداء لن يصلوا منه إلى شيء يسوءه لأنهم لن يستطيعوا تغيير القناعات العلمية والإيمانية التي قد اقتنع بها ، فليس لهم حيلة للإساءة إليه في فكره ووجدانه ، وإنما كل ما يستطيعون أن يصلوا إليه هو الإساءة إليه في جسمه ، وهذا لا يعدُّ مشكلة أمام أهل الإيمان الراسخ واليقين الصادق ، لأن قوة استحضارهم لعظمة الله تعالى وخشيتهم منه ورجاءهم لثوابه تزيل كل الآثار التي تخلفها أنواع

الأذى الجسماني ، بحيث تظل في دائرة الأمور المادية ولا تصل إلى
التأثير الروحاني ، بل إن الأمر بضد ذلك لدى أقوياء الإيمان ، حيث
تسعد نفوسهم بما يصل إليهم من الأذى لشعورهم اليقيني بأن ذلك
سيكون سببا في بلوغ رضوان الله تعالى والدرجات العليا في الجنة .

توجيهات ومواقف

في

مجال الكرم

حيث إن المال هو عصب الحياة وقوامها ، وقد جُبلت النفوس على حبه والتمسك به ، فإنَّ بذله في سبيل الله تعالى دليل على قوة الدافع الذي دفع إلى مقاومة رغبات النفوس وأهوائها .. ألا وهو الإيمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده من الجزاء .

مثل من كرم رسول الله ﷺ :

حيث إن رسول الله ﷺ هو إمام الأمة في مكارم الأخلاق فسندكر مثالا لكرمه العظيم الذي كان من أهم عوامل استجابة الناس لدعوته ، وذلك فيما أخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « ماسئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه ، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء لا يخشى الفاقة- يعني الفقر - .

وفي رواية له قال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها «^(١) .

(١) صحيح مسلم ، الفضائل رقم ٢٣١٢ (ص ١٨٠٦) .

وهكذا رأينا نتائج هذا الكرم العظيم حيث أسلم ذلك الرجل
وذهب يدعو قومه إلى الإسلام، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من كرم
رسول الله ﷺ في سيرته الشريفة .

إن السخاء بالدنيا مظهر من مظاهر التحرر من الشهوات التي
يتنافس الناس فيها ، وحينما يكون الإنسان كذلك فإنه يكون متميزاً
وعظيماً عند الناس ، لأنه استطاع أن يخرج من إसार العاطفة والهوى ،
وبالتالي فإن النفوس تشوق إلى معرفة المبدأ العظيم الذي كان وراء
هذا السلوك العالي، ثم تسارع إلى الإيمان به .

وإذا كان بعض الناس ينقاد إلى الإسلام من أجل الدنيا في مثل
هذه الحال فإنه لا يلبث إلا قليلاً في الغالب حتى تزول الغشاوة عن
عقله فيفهم حقيقة دعوة الإسلام إذا فكر بعقله السليم المتجرد من
اتباع الهوى والخضوع للضغوط الخارجية ، فيدرك عظمة الإسلام
ويدخل في صف أهل الإيمان كما جاء في قول أنس « فما يُسلم حتى
يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها» .

إن أصحاب المبادئ الأرضية يستطيعون أن يجذبوا الناس

بأموالهم ، وقد فعلوا ذلك على مدار التاريخ ، ولكن الناس يظنون مرتبطين بأموالهم ، وقلما يقتنعون بشيء مما يدعونهم إليه ، حتى إذا انقطع المورد المالي والآمال الدنيوية المرتقبة عادوا أعداء ألداء لمن كان استغفلهم فحاول إلقاءهم في المهالك مستغلا بذلك حاجتهم الدنيوية، أما دعاة الإسلام فإنما يتألفون الناس بالدنيا حتى تزول الغشاوة عن عقولهم فإذا أدركوا عظمة الإسلام آمنوا به حقا وبذلوا من أموالهم أضعاف ما بذل الدعاة في تأليفهم .

ومن هنا ندرك الفرق الكبير بين السلوكين : سلوك دعاة الإسلام وهم يبذلون من أموالهم لتأليف الناس وهدايتهم إلى الحق ، وسلوك أعداء الإسلام وهم يبذلون من أموالهم لتضليل الناس عن الحق، وهدايتهم إلى الباطل ، فكلهم دعاة ، وكلهم يستخدمون هذه الوسيلة ، ولكن شتان بين هدف هؤلاء وهدف هؤلاء .

من أخبار طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه :

لقد كان للصحابة رضي الله عنهم مواقف خالدة في البذل والعطاء وكرم النفوس والسخاء تدل على قوة إيمانهم بالله جل وعلا

وتمثّل الحياة الآخرة بوضوح في تفكيرهم وسلوكهم ، وقد مرت بنا أمثلة لكرم بعضهم ، وسأذكر بعض ما لم يتقدم ذكره في العرض التاريخي، ومن ذلك ما ذكره الإمام الذهبي من طريق موسى بن طلحة عن أبيه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أنه أتاه ماله من حضرموت سبعمائة ألف ، فبات ليلته يتململ ، فقالت له زوجته : مالك ؟ قال : تفكرت منذ الليلة ، فقلت : ما ظنُّ رجل بربه يبيت هذا المال في بيته ؟ قالت : فأين أنت من بعض أخلائك؟ فإذا أصبحت فادع بجفان وقصاع فقسّمه ، فقال لها : رحمك الله ، إنك موفقة بنت موفق ، وهي أم كلثوم بنت الصديق ، فلما أصبح دعا بجفان فقسّمها بين المهاجرين والأنصار ، فبعث إلى علي منها بجفنة ، فقالت له زوجته - يعني زوجة طلحة - : أبا محمد ! أما كان لنا في هذا المال من نصيب ؟ قال : فأين كنت منذ اليوم ؟ فشأنك بما بقي ، قالت : فكانت صرة فيها نحو ألف درهم^(١) .

(١) سيرة أعلام النبلاء ١/ ٣٠ .

الله أكبر ! ما أعظم هذا التفكير ، وما أبلغ هذه المشورة ، وما
أصدق هذا السلوك !!

إذا كان أهل الدنيا يتململون ويأخذ بهم التفكير المضني في كيفية
تصرف المال في وجوه التجارة، لتضخم الثروة وتحصل السعادة
الوهمية بتزايد المال فإن طلحة بن عبيد الله الذي سماه النبي ﷺ طلحة
الفياض لجوده يتململ من تكاثر المال عنده خشية أن يحاسب عنه يوم
القيامة ، مع أنه لورعه وتقواه لا يكتسب إلا من حلال .

ونجد زوجته التقية البارة بنت الصديق رضي الله عنه تخرجه من
حيرته وتململه بمشورة الخير والبر، فتذكره بأحبابه الذين هم بحاجة
إلى هذا المال ، ولقد أيقظت في نفسه دوافع الخير التي يملك منها
رصيداً كبيراً فأثنى عليها وعلى أبيها بالتوفيق ، وسارع إلى تطبيق
مشورتها المباركة .

وهكذا تكون الزوجة الصالحة أكبر عون لزوجها على فعل
الخير، لأن المؤلف من حياة الناس أن تحاول الزوجة منع زوجها من
الإنفاق في سبيل الله تعالى ، لتوسع هي وذوؤها بذلك المال ، فإذا

وُجِدَت الزوجة الصالحة التي تكسر هذا المألوف وتشير على زوجها
بالإنفاق فإنها في غاية التوفيق والرشاد .

وإن الذي ينفق في يوم واحد سبعمائة ألف لا يُتَظَر منه بإذن الله
تعالى أن يكتسب ماله من طريق فيه شبهة ، فضلا عن أن يكتسبه من
طريق حرام .

ونجد طلحة رضي الله عنه يَخْدُّ لنا مثلا عاليا من أمثلة السخاء
المبني على صلة الرحم ، فقد جاء إليه أعرابي يسأله فتقرب إليه بِرَحْمٍ ،
فقال طلحة : إن هذه لرحم ما سألتني بها أحد قبلك ، إن لي أرضا قد
أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف فاقبضها ، وإن شئت بعته من عثمان
ودفعت إليك الثمن ، فقال : الثمن ، فأعطاه ^(١) .

وما فعله طلحة في هذا الخبر لون من ألوان الكرم الرفيع ، وإنما
يدل إنفاق هذا المبلغ الكبير على براءة قلبه تماما من الشح والبخل
والتعلق بالدنيا ، وأنه كان يرى المال وسيلة إلى العمل الصالح ،

(١) سيرة أعلام النبلاء ١/ ٣١ .

وإشاعة المعاني السامية ، فهو رجل متجرد لعبادة الله تعالى ، ومن أجل ذلك استعبد المال، ولم يستعبده المال .

من أخبار عثمان بن عفان رضي الله عنه :

أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فأمثلة كرمه كثيرة ، ومن أمثلة كرمه ما روي عن بشر بن بشير الأسلمي عن أبيه قال : لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء ، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة ، وكان يبيع منها القرية بمُدِّ فقال رسول الله ﷺ : «تبيعها بعين في الجنة ، فقال : ليس لي يارسول الله عين غيرها ، لا أستطيع ذلك ، فبلغ ذلك عثمان فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال : أتجعل لي مثل الذي جعلت له عينا في الجنة إن اشتريتها؟ قال: نعم، قال: قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين^(١) . وهكذا نجد تنافس أفراد ذلك الجيل الراشد على فعل الخير والرغبة فيما عند الله تعالى من الثواب.

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الراشدين / ٤٧١) .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل من خبر عطاء بن فروخ مولى القرشيين : أن عثمان رضي الله عنه اشترى من رجل أرضاً فأبطأ عليه ، فلقيه فقال: مامنك من قبض مالك ؟ قال: إنك غبتني فما ألقى من الناس أحداً إلا وهو يلومني ، فقال: أو ذلك يمنعك ؟ قال: نعم ، قال: فاختر بين أرضك ومالك ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : «أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً وبائعاً ، وقاضياً ومقتضياً»^(١) .

فهذا مثل رفيع في السباحة في البيع والشراء ، وهو يدل على ما جُبل عليه عثمان رضي الله عنه من الكرم وعدم التعلق بالدنيا ، فهو يستعبد الدنيا لخدمة مكارم الأخلاق التي من أهمها الإيثار، ولا تستعبده الدنيا فتجعل منه أنانياً يؤثر مصالحه الخاصة وإن أضر بالناس .

(١) مسند أحمد ٤١١/١ رقم ٤١٠ .

من أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر الأصبغ بن نباتة : أن رجلا جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فرفعتها إلى الله تعالى قبل أن أرفعها إليك ، فإن قضيتها حمدتُ الله وشكرتك ، وإن لم تقضها حمدت الله وعذرتك ، فقال علي : اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذلَّ السَّوَالِ في وجهك ، فكتب : إني محتاج ، فقال علي : عليَّ بِحُلَّةٍ ، فَأُتِيَ بها ، فأخذها الرجل فلبسها ، ثم أنشأ يقول :

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حُلَلَا
إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة ولست أبغي بها قد قلته بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداء السهل والجبلا
لاتزهد الدهر في خير توابعه فكل عبد سيُجزى بالذي عملا
فقال علي : عليَّ بالدنانير فَأُتِيَ بِمِائَةِ دِينَارٍ فدفعتها إليه ، فقال الأصبغ : يا أمير المؤمنين ، حلة ومائة دينار ! قال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنزلوا الناس منازلهم ، وهذه منزلة هذا الرجل

عندي^(١) .

فهذا موقف جليل من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الوقوف عند حاجات المحتاجين والاهتمام بأمورهم ورعاية مشاعرهم ، وإن أروع ما في هذا الخبر قوله « اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذل السؤال على وجهك » ، فكم يعاني المحتاجون من الذل بين يدي من يعرضون عليهم حوائجهم ، وقد يتلعثمون فلا يستطيعون النطق ، وتختلف مواقف المسؤولين تجاه مشاهد الذل في وجوه السائلين ، فبعضهم يطرب لرؤيتها وتتعاظم لديه نفسه حينما يرى الناس يذلون بين يديه ، وبعضهم يتألمون لرؤية هذه المشاهد ويودون معرفة حاجة السائل دون أن يتعرض للمذلة ، فهؤلاء قد زكت نفوسهم وخلصت نياتهم ، وآثروا رفع معنويات إخوانهم المحتاجين على التمتع برؤية انكسار نفوسهم وجرح مشاعرهم ، فهؤلاء مربُّون قبل أن يكونوا منفقين ،

(١) البداية والنهاية ٩/٨ .

ومصلحون قبل أن يكون باذلين .

ولقد كانت مشاعر ذلك الرجل المحتاج عظيمة حينما واجهه أمير المؤمنين علي بهذه المعاملة السامية ، ولقد صاغ هذه المشاعر بالأبيات المذكورة .

ولقد زاده أمير المؤمنين مبلغا من المال حينما عرف من تلك الأبيات منزلته الاجتماعية ، واستشهد بالحديث المذكور على سلوكه هذا ، لأن ما يكون عظيما عند إنسان قد يكون شيئا معتادا عند إنسان آخر .

من أخبار أبي طلحة رضي الله عنه :

من ذلك ماجاء في خبر أبي طلحة زيد بن سهل رضي الله عنه الذي أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار مالا بالمدينة من نخل، وكان أحب أمواله إليه «بئرحاء» وكانت مستقبلة المسجد ، فكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلما نزلت هذه الآية ﴿لَنْ نَسْأَلَكَ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ﴾

عَلَيْمٌ ﴿ [آل عمران : ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال :
يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ وإن أحب مالي إليّ بירحاء
وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله
حيث أراك الله ، فقال رسول الله ﷺ : بخ ^(١) ، ذلك مال رابح ذلك مال
رابح ، وقد سمعت ماقلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين ، فقال أبو
طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه ^(٢) .

وفي هذا الحديث نجد مثالا واضحا لانتصار المؤمن الحق على
رغبات نفسه وميلها نحو الدنيا ، فحينما يصل إلى مسامع المسلم أن
فعل الخير الذي ينال به رضى الله تعالى والسعادة الآخروية لا يكون
إلا بالتنازل عن محبوبه من ماله لله تعالى ، فإنه قد يسمو حالا إلى العلو
فيتنازل عن ذلك ، وقد لا يفكر في ذلك لغلبة الدنيا عليه ، وقد يقع في

(١) بخ ، كلمة تقال عند المدح والرضى بالشيء - النهاية في غريب الحديث - .

(٢) صحيح البخاري كتاب الزكاة رقم ١٤٦١ (٣/٣٢٥) .

صحيح مسلم كتاب الزكاة رقم ٩٩٨ .

شيء من الصراع النفسي نحو الصعود في درجات الإيمان أو البقاء على المستوى الذي وصل إليه ، فإن حالفه التوفيق قطع ذلك الصراع بالسمو نحو الآفاق العالية ، فتنازل عما يجب في الدنيا من أجل أن ينال ما يجب في الآخرة .

ومن أخبار أبي طلحة رضي الله عنه في الكرم والإيثار ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أصابني الجهد^(١) ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبي ﷺ : ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ! فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخره شيئاً ، فقالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالى فأطفئ السراج ، ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب الله عز وجل - أو قال

(١) الجهد المشقة الناتجة عن الجوع .

ضحك - من فلان وفلانة ، وأنزل الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ
وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً
مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ
نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] ^(١) .

وقد جاء في رواية للإمام مسلم أن هذا الرجل هو أبو طلحة
رضي الله عنه ^(٢) .

إن خلق الإيثار مبني على الكرم وسخاء النفوس ، وإن الوصول
إلى التخلق بهذا الخلق الكريم قد يحتاج إلى جهاد نفسي لمقاومة نزعات
النفس المتعلقة بحب إمساك المال .

ولكن حينما يؤمن الإنسان بالله جل وعلا إيمانا حقا فإن جواذب
الإيمان القوي ترفعه من الالتفات إلى الدنيا على أنها مقصد وغاية
وتقصره على اعتبار أنها بُلْغَةٌ ووسيلة .

(١) صحيح البخاري ، التفسير ، رقم ٤٨٨٩ ، (٨ / ٦٣١) .

(٢) صحيح مسلم ، الأشربة ، رقم ٢٠٥٤ (ص ١٦٢٥) .

ولكنه في سبيل الوصول إلى هذا المستوى قد يحتاج إلى قدر كبير من جهاد النفس حتى يترك ما يجب في العاجل من أجل ما ينتظر من المحبوب في الآجل ، ثم لا يلبث كثيرًا حتى يتقوى إيمانه فيجد في نفسه من المتعة واللذة في إنفاق المال أضعاف ما يجد من ذلك في إمساكه ، ثم نجده يشعر بالراحة والطمأنينة حينما يحس بأنه فرج بماله عن معسر أو أنقذ أسرة منكوبة .

من أخبار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :

أما أخبار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في البذل والسخاء فإنها كثيرة نُمثِّل لها بما أخرجه ابن المبارك عن الزهري قال : تصدَّق ابن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، وحمل على خمسمائة فرس في سبيل الله ، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله وكان عامة ماله من التجارة^(١) .

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٨١ .

من أخبار الزبير بن العوام رضي الله عنه :

أما الزبير بن العوام رضي الله عنه فقد رُوي عن عروة بن الزبير أنه قال : أوصى إلى الزبير سبعة من الصحابة منهم عثمان وابن مسعود وعبد الرحمن ، فكان ينفق على الورثة من ماله ويحفظ أموالهم^(١) . وهذا مثل رفيع من أمثلة الكرم والوفاء ، وهو يجسّم المعاني السامية في النفس حتى تبقى هي الماثلة في الضمير الحي ، وتبعاً لذلك يُسخّر هذا الضمير الحي كل ما يملك من أجل سيادة هذه المعاني . وقد تجود النفس مرة ومرة ثم يعترضها شيء من الفتور ، فأما أن يتكفّل مثل هذا الشهم السخي بالنفقة على ورثة عدد من الصحابة ويحفظ لهم أموالهم فهو نموذج فريد في عالم الواقع، ومؤشر مهم من مؤشرات الرقي الأخلاقي لدى الصحابة رضي الله عنهم .

من أخبار عمرو بن العاص رضي الله عنه :

من ذلك ما رُوي عن علقمة بن رمثة أن رسول الله ﷺ بعث

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٥٥ .

عمرو بن العاص إلى البحرين، فخرج رسول الله ﷺ في سرية وخرجنا معه ، فنعس وقال: يرحم الله عمراً ، فتذاكرنا كل من اسمه عمرو .

قال : فنعس رسول الله ﷺ ثم قال : « رحم الله عمراً » ثم نعس الثالثة فاستيقظ فقال: «رحم الله عمرا » قلنا يارسول الله من عمرو هذا ؟ قال: عمرو بن العاص ، قلنا : وما شأنه ؟ قال: كنت إذا ندبت الناس إلى الصدقة جاء فأجزل منها ، فأقول : عمرو أتى لك هذا ؟ فقال: من عند الله ، قال: وصدق عمرو إن عند الله خيراً كثيراً^(١) .

وهكذا فاز عمرو بن العاص بدعاء النبي ﷺ لكونه من المسارعين إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى .

والإنفاق إذا كان كذلك فهو دليل على قوة إيمان صاحبه حيث سخت نفسه بالمال الذي هو من أعز المحبوبات لدى الإنسان من أجل الله تعالى والدار الآخرة ، فهو دليل على أنه يفضل الأجر الأخروي على الاحتفاظ بالمال ، ومن ثمَّ استحق رحمة الله عز وجل .

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٦٥ .

من أخبار عائشة رضي الله عنها :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر هشام بن عروة عن أبيه قال: بعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف ففرقتها من يومها ، فلم يبق منها درهم ، فقالت لها خادمتها : هلا أبقيت لنا درهما نشترى به لحما تفطري عليه ! فقالت : لو ذكرتيني لفعلت^(١) .

فهذا من لطائف أخبار الكرم ، فعائشة رضي الله عنها حينما ورد عليها ذلك المال لم يكن عندها شيء ، ومع ذلك تصدقت به كله ، فقد تصدقت بكل ماتملك من النقود ، وقد ذكرت حاجات المحتاجين ونسيت حاجة بيتها ، وهذا يدل على تخلقها بخلق الإيثار وبراعتها من الأنانية والأثرة ، والذي يدفع لذلك السلوك القويم هو تضاؤل النظر إلى الدنيا وضخامة النظر إلى الآخرة.

إن الكرم خلق إسلامي رفيع ، يدل على كثافة النظرة الروحانية ، وضآلة النظرة المادية عند من تخلق بهذا الخلق السامي ، فالكرماء هم

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٦ - ١٣٧ .

عشاق المثل العليا ، وإن أعلى المثل وأسمى القيم الطموح إلى نعيم الآخرة ، ولقد كان هذا الهدف السامي دافعا قويا لأصحاب المعادن الزكية نحو الترفع عن قيود المادة ، وتسخير المال للفعال الحميدة ، وإشاعة الأخلاق الكريمة .

من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر أبي الزعيرة كاتب مروان قال: بعث مروان إلى أبي هريرة بمائة دينار ، فلما كان الغد بعث إليه : إني غلطت ولم أردك بها وإنما أردت غيرك، فقال أبو هريرة : قد أخرجتها فإذا خرج عطائي فخذها منه - وكان قد تصدق بها - وإنما أراد مروان اختباره^(١) .

وهكذا نجح أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه في الاختبار ، وما كان بحاجة إلى ذلك فإنه صحابي جليل وإن رصيده السابق من الإحسان والكرم يكفي في معرفة حاله، وهل كان

(١) البداية والنهاية ٨ / ١١٤ .

ينبغي لأحد تلاميذ النبي ﷺ الملازمين له أن يكون إلا زاهداً في الدنيا
سباقاً إلى الخيرات!؟

من أخبار عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما :

كان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه من المنفقين في
سبيل الله تعالى ، ومن أمثلة ذلك ما رُوي عن سليمان بن الربيع قال :
انطلقت في رهط من نُسَّاك أهل البصرة إلى مكة ، فقلنا : لو نظرنا
رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فدُلِّلنا على عبد الله بن عمرو ،
فأتينا منزله ، فإذا قريب من ثلاثمائة راحلة ، فقلنا : على كل هؤلاء
حج عبد الله بن عمرو ؟ قالوا : نعم ، هو ومواليه وأحباؤه ، قال :
فانطلقنا إلى البيت فإذا نحن برجل أبيض الرأس واللحية ، بين بردين
قَطْرِيَّين ، عليه عمامه وليس عليه قميص^(١) .

فهذا دليل على كرم عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وحبّه
لفعل الخير ، حيث قام بنفقة هذا العدد الكبير من الحجاج .

(١) سير أعلام النبلاء ٩٣/٣ .

والنفقة في هذا المجال لها مزية خاصة ، وهي أنها تسهيل لأمر الحج ، الذي هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، فقد يوجد من لا يستطيع الحج لفقره ، فالذي يتحمل نفقات حج هؤلاء له أجر الصدقة ، وأجر تيسير هذه العبادة العظيمة .

وفي الخبر دلالة على اهتمام طلاب العلم بزيارة العلماء والتعرف عليهم ، وهذا المقصد من أهم فوائد الحج حيث يتم اللقاء والتعارف بين أهل العلم من سائر بلاد المسلمين .

من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

من أخبار اتصاف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بالكرم والإنفاق في سبيل الله تعالى ما روي عن عبد الله بن دينار قال: خرجت مع ابن عمر إلى مكة ، فعرّسنا^(١) فانحدر علينا راعٍ من جبل ، فقال له ابن عمر : أراعٍ ؟ قال : نعم ، قال: بعني شاة من الغنم ، قال: إني مملوك ، قال: قل لسيدك أكلها الذئب ، قال فأين الله عز وجل ؟ قال

(١) أي نزلنا .

ابن عمر : فأين الله !! ثم بكى ، ثم اشتراه بعدُ ، فأعتقه .

وفي رواية ابن أبي رواد عن نافع « فأعتقه واشترى له الغنم »^(١) .

فهذا الخبر يدلنا أولاً على اهتمام عبد الله بن عمر بمعرفة أهل التقوى فقد قام باختبار ذلك الراعي ليعرف مدى ورعه وتقواه حيث طلب منه بيع تلك الشاة وأن يقول لسيدة إن الذئب قد أكلها، فلما عرف ورعه وتقواه اشتراه من سيدة واشترى معه الغنم ثم أعتقه ووهب له تلك الغنم.

وهذا مثال لكرم ابن عمر وبذله في سبيل الله تعالى حيث نال ذلك المملوك الراعي حرّيته على يديه وأصبح له من تلك الغنم مال يعيش عليه .

من أخبار الحسن بن علي رضي الله عنهما :

من ذلك ما روي عن القاسم بن الفضل الحُدّاني قال: حدثنا

أبوهارون قال: انطلقنا حجاجاً فدخلنا المدينة ، فدخلنا على الحسن -

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢١٦ .

يعني ابن علي رضي الله عنهما - فحدثناه بمسيرنا وحالنا، فلما خرجنا
بعث إلى كل رجل منا بأربعمائة، فرجعنا فأخبرناه بيسارنا ، فقال:
لا تردوا عليّ معروفى، فلو كنت على غير هذه الحال كان هذا لكم يسيراً،
أما إني مزودكم : إن الله تعالى يباهي ملائكته بعباده يوم عرفة^(١) .

فهذا الصحابي الجليل قد أعطى أولئك الحجاج ذلك المال مع
ظهور يسارهم ، فكيف الحال لو كانوا محتاجين ، وحينما أظهروا له
عدم حاجتهم لم يقبل منهم رد ذلك المال ، وهذا دليل على قوة الدافع
في نفسه نحو السخاء والجود .

ولم ينس أن يزودهم بما هو خير من ذلك حيث ذكّرهم بفضل
يوم عرفة الذي يباهي الله تعالى به ملائكته عليهم السلام .
ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عبيد بن عمير قال قال ابن عباس
عن الحسن بن علي : ولقد قاسم الله ماله ثلاث مرات ، حتى إنه

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦١ .

يعطي الخف ويمسك النعل^(١) .

وهذا مثال عزيز في الكرم ، حيث قسم الحسن بن علي رضي الله عنهما ماله قسمين ثلاث مرات ، فكان يتصدق بنصف ماله ، ولقد كان دقيقا في محاسبته نفسه وكأنه يؤدي واجبا من الواجبات ، حيث كان يعطي الخف ويمسك النعل مع أن أحدهما لا يغني عن الآخر ، وإنه في عمله هذا قد جعل من نفسه قدوة للمسلمين في أعمال الخير والإحسان .

من أخبار حارثة بن النعمان الأنصاري رضي الله عنه :

أخرج محمد بن سعد من خبر محمد بن عثمان عن أبيه : أن حارثة بن النعمان كان قد كُفَّ بصره فجعل خيطا في مصلاه إلى باب حجرته ووضع عنده مكتلا فيه تمر وغير ذلك ، فكان إذا سلم المسكين أخذ من ذلك التمر ثم أخذ على الخيط حتى يأخذ إلى باب الحجره فيناوله المسكين ، فكان أهله يقولون : نحن نكفيك ، فيقول : سمعت رسول

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٠ .

الله ﷺ يقول : « إن مناولة المسكين تقي ميتة السوء »^(١) .

فهذا الصحابي الجليل كان عظيم الاهتمام بالصدقة ومراعاة المساكين ، حيث كان يناولهم الصدقة بنفسه ، وفي ذلك ما فيه من النشوة والفرح في رؤية علامات السرور والغبطة على وجوه الفقراء ، فلما كف بصره لم يجعل ذلك عائقاً عن القيام بهذه المهمة الجليلة مكتفياً بسماع أصوات المساكين بالدعاء له الذي يرجو من ورائه الخاتمة السعيدة في الدنيا والظفر برضوان الله تعالى والسعادة في الجنة .

من أخبار معاذ بن الحارث رضي الله عنهما^(٢) :

قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى : وعن عبد الرحمن ابن أبي ليلى قال : كان ابن عفراء لا يدع شيئاً إلا تصدق به ، فلما وُلد له استشفعت إليه امرأته بأخواله ، فكلموه وقالوا له : إنك قد أعلت فلو

(١) طبقات ابن سعد ٤٨٨/٣ ، وذكر الحافظ ابن حجر أن هذا الخبر رواه الطبراني

والحسن بن سفيان - الإصابة ٢٩٨/١ رقم ١٥٣٢ .

(٢) هو معاذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث الأنصاري شهد أبوه بيعتي العقبة

وبدرا، واشتهر معاذ بنسبته إلى أمه عفراء.

جمعت لولدك، قال: أبت نفسي إلا أن أستتر بكل شيء أجده من النار.
فلما مات ترك أرضاً إلى جنب أرض رجل ، قال عبد الرحمن -
وعليه مائة صفراء متساوي ثلاثة دراهم - : مايسرني الأرض
بملاعتي هذه ، فامتنع ولي الصبيان ، فاحتاج إليها جار الأرض فباعها
بثلاثمائة ألف^(١) .

فهذا معاذ بن الحارث رضي الله عنهما يتصدق بكل ماوقع تحت
يده ماعدا القوت الضروري، وهذا من أعلى أنواع الكرم ، وقد كان
الدافع له إلى هذا الكرم النادر طلب مغفرة الذنوب والعتق من النار .
وهكذا يُخرج الإسلام رجالاً يعيشون لمجتمعهم قبل أن يعيشوا
لأنفسهم ، لأنهم يعتقدون أن بذل المعروف والإحسان للمسلمين
يرفع من رصيدهم الأخروي، وهم إنما يعملون للآخرة، فإذا كان المال
مطية للوصول إلى السعادة الأخروية فما أهون بذله على نفس المؤمن
التقي !! وما أسعد المجتمعات البشرية بالمؤمنين السابقين بالخيرات !!

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٧٢ .

ولما كان معاذ بن عفراء قد وكل أمر أولاده إلى الله عز وجل ولم
يمسك ماله من أجلهم فإن الله تعالى قد عوضهم من بعده بارتفاع
قيمة تلك الأرض التي لم تكن تساوي في حياته إلا القليل .

من أخبار سعد بن عبادة وابنه قيس رضي الله عنهما :

من الأجواد الكبار من الصحابة رضي الله عنهم سعد بن عبادة
الأنصاري وابنه قيس رضي الله عنهما .

فأما سعد فأخبار كرمه كثيرة ، ومنها أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة
كان يبعث إليه كل يوم جفنة من ثريد اللحم أو ثريد بلبن أو غيره ،
فكانت جفنة سعد تدور مع رسول الله ﷺ في بيوت أزواجه ^(١) . وكان
يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يعشيهم ^(٢) .

وكان مناديه ينادي في حصنه : من أراد الشحم واللحم فليأت

أُطْمَ دُلَيْمِ بن حارثة ^(٣) .

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٧١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٧٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٧٩ ، والأطْم الحِصْن .

أما قيس بن سعد فقد رُويت له أخبار رائعة في الجود من ذلك أن امرأة أتت إليه فقالت: أشكو إليك قلة الجرذان ، فقال : ما أحسن هذه الكناية^(١) ثم قال : املؤوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً وتمرا .
ومن ذلك ما روي عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه قال :
باع قيس بن سعد مالاً من معاوية بتسعين ألفاً ، فأمر من نادى في المدينة : من أراد القرض فليأت ، فأقرض أربعين ألفاً ، وأجاز الباقي ، وكتب على من أقرضه ، فمرض مرضاً قلَّ عواده ، فقال لزوجته قُرَيْبَةَ أخت الصديق: لِمَ قَلَّ عُوَّادي ؟ قالت : للدين ، فأرسل إلى كل رجل بصكه ، وقال : اللهم ارزقني مالا وفعالا ، فإنه لا تصلح الفعال إلا بالمال^(٢) .

ففي هذين الخبرين مثل من كرم قيس رضي الله عنه وحبه لقضاء حوائج المسلمين ، كما أن في الخبر الأخير مثلاً على حبه لبقاء صلة

(١) يعني حيث كُنْتُ عن انعدام الطعام في بيتها بقلة الجرذان فيه .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٠٦ - ١٠٧ .

الأخوة والمودة بينه وبين إخوانه المسلمين ، فلما أنكر قلة عواده لما مرض فزع من ذلك خشية أن يكون قد وقع منه ما يخل بهذه الأخوة ، ولكن زوجته المؤمنة الواعية أختَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه نبهته إلى سبب ذلك ، حيث يجد المقترضون صعوبة في مواجهة مُقرضهم حتى يسددوا ديونهم ، فلما تنبه لذلك ، أعفاهم جميعا من تلك الديون، ليقضي على سبب حال بينه وبين زيارة إخوانه إياه .

من أخبار عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما :

من الكرماء المشهورين بالجود والإنفاق عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما، ومن أخباره في الكرم ما روي عن العمري أن ابن جعفر أسلف الزبير ألف ألف، فلما توفي الزبير قال ابن الزبير لابن جعفر: إني وجدت في كتب الزبير أن له عليك ألف ألف، قال: هو صادق، ثم لقيه بعد، فقال يا أبا جعفر وهمتُ، المال لك عليه، فقال: فهو له، قال: لا أريد ذلك^(١).

وهذا مثال للسخاء النادر، فحينما أخبر ابن الزبير عبد الله بن جعفر بأن عليه للزبير ألف ألف صدّقه مع أنه يعلم أن الأمر خلاف ذلك، ثم حينما صحّح له ابن الزبير الأمر وأخبره بأنها له على الزبير تنازل عنها.

إن النفوس قد تسخو بالشيء المعتاد الذي لا يلفت النظر، ولكن السخاء بهذا المبلغ الكبير، والاستعداد قبل ذلك بالوفاء بدين كبير لا

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٦٠.

أصل له دليل على قوة الإيمان عند هذا الصحابي الجليل وأصالة معدنه.

ومن أمثلة سخائه العالي ما روي عن الأصمعي أن امرأة أتت بدجاجة مسمومة ، فقالت لابن جعفر : بأبي أنت ، هذه الدجاجة كانت مثل بنتي ، فأليتُ أن لا أدفنها إلا في أكرم موقع أقدر عليه ، ولا والله ما في الأرض أكرم من بطنك ، قال: خذوها منها ، واحملوا عليها، فذكر أنواعا من العطاء ، حتى قالت : بأبي أنت ، إن الله لا يحب المسرفين ^(١) .

فهذه الكلمات بليغة من تلك المرأة استجاشت بها كرم ابن جعفر الفياض ، فأصبح يعطيها من غير حساب ، حتى فدته بأبيها ، وطلبت منه وقف ذلك العطاء حتى لا يكون من المسرفين .

ومن أمثلة كرمه المتعلق بجبر أهل المصائب ما روي عن ابن سيرين أن رجلا جلب سكرًا إلى المدينة فكسد ، فبلغ عبد الله بن

(١) سير أعلام النبلاء ٤٦١/٣ .

جعفر فأمر قهرمانه^(١) أن يشتريه ، وأن يُنهبه الناس^(٢) .^(٣)

فهذا الخبر بيان لما كان يقوم به عبد الله بن جعفر من مواساة أهل النوائب ، فكم هي فرحة صاحب السكر حينما اشترى منه بضاعته الكاسدة !

ومن ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي قال : قال أحمد بن جعفر بن سلم : حدثنا شيخ لنا ، قال : قيل لإبراهيم الحربي : هل كَسَبْتَ بالعلم شيئاً ؟ قال : كَسَبْتُ به نصفَ فلسٍ : كانت أمي تُجري عليَّ كلَّ يوم رغيفين ، وقطيعةً فيها نصف دانتق ، فخرجتُ في يوم ذي طين ، وأجمع رأيي على أن أكل شيئاً حُلُواً ، فلم أر شيئاً أرخص من الدبس ، فأتيتُ بقللاً ، فدفعتُ إليه القُطيعةَ ، فإذا فيها قيراط إلا نصف فلس ، وتذاكرنا حديث السخاء والكرم ، فقال البقال : يا أبا إسحاق ! أنت تكتب الأخبار والحديث ، حدثنا في السخاء بحديث ، قلتُ : نعم .

(١) يعني القائم على أمواله .

(٢) يعني أن يدعه للناس يأخذونه .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٦١ / ٣ .

حدثني أبو بكر عبد الله بن الزبير، حدثنا أبي ، عن شيخ له ، قال :
خرج عبد الله بن جعفر إلى ضياعه ينظر إليها ، فإذا في حائط^(١) لنسيب
له عبد أسود ، بيده رغيفٌ وهو يأكل لقمةً ، ويطرُحُ لكلب لقمةً ، فلما
رأى ذلك استحسنه ، فقال : يا أسود لمن أنت ؟ قال : لمصعب بن
الزبير . قال : وهذه الضيعة لمن ؟ قال : له . قال : لقد رأيت منك
عجبًا ، تأكلُ لقمةً ، وتطرُحُ للكلب لقمةً ! قال : إني لأستحيي من
عين تنظرُ إليَّ أن أوثر نفسي عليها . قال : فرجع إلى المدينة ، فاشترى
الضيعة والعبد ، ثم رجع ، وإذا بالعبد ، فقال يا أسود إني قد اشتريتك
من مُصعب . فوثب قائمًا ، وقال : جعلني الله عليك ميمون الطلعة .
قال : وإني اشتريت هذه الضيعة ، فقال : أكمل الله لك خيرها ، قال :
وإني أشهد الله أنك حُرٌّ لوجه الله ، قال : أحسن الله جزاءك ، قال :
وأشهد الله أن الضيعة مني هديةً لك . قال : جزاك الله بالحسنى . ثم
قال العبد : فأشهد الله وأشهدك أن هذه الضيعة وقفٌ مني على

(١) أي بستان .

الفقراء ، فرجع وهو يقول : العبد أكرم منا^(١) .

فهذا الخبر يحتوي على مواقف :

الموقف الأول : في عفة الإمام الرباني إبراهيم الحربي وورعه ،
فهذا الخبر شاهد براءة له بتعففه عن كسب الدنيا بعلمه ، وهكذا كان
أكثر علماء الإسلام في عصوره الأولى حيث كانوا ينفرون من اتخاذ
العلم الديني وسيلة إلى الدنيا ، ويحتقرون من فعل ذلك ، ويرون أن
ذلك يتنافى مع ابتغاء الأجر الأخروي ، كما يرون أن ذلك يؤثر على
بركة العلم ، فيضعف التحصيل ، ويقل الانتفاع بالعلم .

الموقف الثاني : في براعة الإمام الحربي العلمية ، وذلك في سرعة
استحضار النصوص المناسبة، وحسن اختياره ، حيث اختار هذا
الخبر المؤثر .

الموقف الثالث: فيما تحلى به ذلك الغلام المملوك من خلق الرحمة،
حيث شاطر الكلب زاده، واستحى من الكلب أن يراه بعينه وهو

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦٣ - ٣٦٤ .

يأكل أكثر منه ، ولقد كان ذلك الغلام في غاية الرقة في الإحساس ،
واللطف في المشاعر ، وإذا كان شعوره قد بلغ من الرقة إلى حد الحياء
من حيوان أعجم لا يعقل فكيف بشعوره نحو الإنسان؟! ثم كيف
بشعوره نحو إخوانه المسلمين؟

الموقف الرابع : في تأثر الإمام العَلَم ، في السماحة والكرم ، عبد
الله بن جعفر بن أبي طالب، بهذا الموقف المدهش الذي شاهده حيث
سارع إلى شراء ذلك الغلام ، وشراء البستان الذي يعمل فيه، ثم
أعتقه لوجه الله تعالى ، وأهدى إليه ذلك البستان ، وهذا سلوك في
غاية السمو والنبيل، حيث أسدى هذه المكافأة الكبيرة لذلك الغلام ،
الذي ارتفع بعقله وإحساسه إلى آفاق بعيدة من المثل العالية ،
والأخلاق النبيلة .

الموقف الخامس : فيما قام به ذلك الغلام بعد نيله الحرية من
التصدق بذلك البستان على الفقراء مع أنه لا يملك غيره ، وهو أول
مال يتأثله .

ومن هذا الموقف والموقف السابق لهذا الغلام ندرك الهدف

العالي الذي كان وراء ذلك الخلق النبيل الذي حمل الغلام على مراعاة مشاعر ذلك الكلب ، وكأنه أمام إنسان يملك العقل والمشاعر.. إن هذا الهدف العالي هو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية ، فلقد كان هذا الهدف مهيمنا على فكره ومشاعره ، فما أن ملك ذلك البستان حتى جعله صدقة على فقراء المسلمين .

وإن هذه الأخلاق العالية التي صدرت من هذا الغلام تدل على عظمة الإسلام ، فإن هذا الغلام قبل أن يسلم لم يكن له شأن يذكر ولم يرتفع مستواه الخلقي إلى حد المساواة بينه وبين حيوانٍ في المعيشة ، والتصديق بكل ما يملك على الفقراء ، ذلك لأنه في حال كفره ينظر إلى دنياه فقط ، فتتضخم في عينه نفسه ، وتبرز فيه الأنانية ، ولا يشعر بمشاعر الآخرين ، فلما أن أسلم صار ينظر إلى آخرته فبرز فيه خلق الإيثار وغيره من مكارم الأخلاق التي تتطلبها الرفعة في الحياة الآخرة. وموقف أخير للسيد الكبير عبد الله بن جعفر حيث اعترف لأهل الفضل بالفضل فقال : العبد أكرم منا ، مع أن كل ماجرى من ذلك الغلام إنما كان نتيجة لكرم هذا السيد الفياض .

وهكذا رأينا أولئك الكرام العظماء يعطون تلك العطايا الجزيلة للمحتاجين .

وإنه ينبغي لنا أن نعتزف برقي ذلك المجتمع الذي جرت فيه تلك العطايا الكبيرة ، حيث لم يُرَوَ بأنه قد ازدحم السائلون على أبواب أولئك المحسنين ، ولو أن تلك العطايا الكبيرة جرت من بعض المحسنين في عصرنا هذا لكان الرجل المحسن إليه يذهب ويدعو أقاربه ، وربما أهل قريته ليتعرضوا لذلك المحسن، وفرق كبير بين أن يفد إلى المحسن رجل في يوم من الأيام وبين أن يحتشد عند بابه عشرات من السائلين.

إن عدم رواية شيء من الإحراجات والمضايقات لأولئك المحسنين في ذلك العصر دليل على رقي المجتمع الإسلامي آنذاك .

من أخبار حكيم بن حزام رضي الله عنه :

هذا ومن الأجواد الكرماء المشهورين بالسخاء الصحابي الجليل حكيم بن حزام رضي الله عنه، ومن أخباره ما روي عن شعبة بن الحجاج قال : لما توفي الزبير لقي حكيم عبد الله بن الزبير فقال: كم

ترك أخي من الدين ؟ قال : ألف ألف ، قال : عليّ خمسمائة ألف^(١) .
ومن أخبار بذله في سبيل الله ما روي عن مصعب بن ثابت أنه
قال: بلغني والله أن حكيم بن حزام حضر يوم عرفة، ومعه مائة رقبة^(٢)
ومائة بدنة، ومائة بقرة ، ومائة شاة ، فقال: الكل لله^(٣) .
وكذلك ما روي من أنه باع دار الندوة من معاوية بمائة ألف ،
فقال له ابن الزبير : بعّت مكرمة قريش ، فقال : ذهبت المكارم يا ابن
أخي إلا التقوى ، إني اشتريت بها دارًا في الجنة ، أشهدكم أني قد
جعلتها لله^(٤) .

فهذه أخبار تدل على الزهد في الدنيا والكرم البالغ .
وقول حكيم « ذهبت المكارم يا ابن أخي إلا التقوى » تنبّه دقيق
إلى مقياس الكرامة في الإسلام حيث يرتفع المسلم بالتقوى ، لا بالمال

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٥٠ .

(٢) يعني من الممالك ليعتقهم .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٥٠ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣ / ٥٠ .

ولا بالشرف المبنيّ على الأعراف والعادات البشرية .

وكون حكيم حمل عن الزبير نصف دينه وهو خمسمائة ألف دليل على استعباده المال، وصرفه في وجوه المعروف التي ترفع ذكره عند الله تعالى وعند الناس ، وعدم استعباد المال إياه .

من أخبار سعيد بن العاص رحمه الله :

من الكرماء المشهورين سعيد بن العاص الأموي الذي اشتهر بالجوّد والسخاء فمن أمثلة جوده ما روي عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: خطب سعيد بن العاص أم كلثوم بنت عليّ بعد عمر^(١) ، وبعث إليها بمائة ألف ، فدخل عليها أخوها الحسين وقال: لا تزوّجيه ، فقال الحسن: أنا أزوجه ، واتّعدوا لذلك ، فحضروا ، فقال سعيد : وأين أبو عبد الله ؟ فقال الحسن : سأكفيك ، قال: فلعلّ أبا عبد الله كره هذا ، قال: نعم ، قال : لا أدخل في شيء يكرهه ، ورجع ولم يأخذ

(١) يعني أن عمر رضي الله عنه كان قد تزوجها وتوفي عنها وليست هذه الخطبة بعد وفاته وإنما هي بعد وفاة أبيها علي رضي الله عنه بزمن .

من المال شيئاً^(١) .

فهذا الخبر مثل من التواضع والسماحة وعدم الانتصار للنفس ،
فحينما علم سعيد بن العاص بأن الحسين يرفض تزويجه لم يتخذ منه
موقفا معاديا ، بل ترك ذلك الزواج الذي أغضب الحسين .
ومع ذلك فإنه لم يسترجع المهر الذي دفعه مع ضخامته ، وهذا
لون من ألوان الكرم الرفيع الذي تُبنى به الأجداد عادة ويرفع به
الذكر .

وقال عنه الحافظ ابن كثير : كان من سادات المسلمين والأجواد
المشهورين ، وقال : كان حسن السيرة جيد السريرة ، وكان كثيراً
ما يجمع أصحابه كل جمعة فيطعمهم ويكسوهم الخلل ، ويرسل إلى
بيوتهم بالهدايا والتحف والبرِّ الكثير ، وكان يَصُرُّ الصُّرر فيضعها بين
يدي المصلين من ذوي الحاجات في المسجد .

قال : وروينا أنه استسقى يوماً في بعض طرق المدينة فأخرج له

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٤٤٦ - ٤٤٧ .

رجل من دار ماء فشرب، ثم بعد حين رأى ذلك يعرض داره للبيع فسأل عنه : لم يبيع داره ؟ فقالوا : عليه دين أربعة آلاف دينار ، فبعث إلى غريمه فقال : هي لك علي ، وأرسل إلى صاحب الدار فقال : استمتع بدارك .

قال : وكان رجل من القراء الذين يجالسونه قد افتقر وأصابته فاقة شديدة فقالت له امرأته : إن أميرنا هذا يوصف بكرم فلو ذكرت له حالك فلعله يسمح لك بشيء ! فقال : ويحك لا تحلقي وجهي ، فألحَّت عليه في ذلك فجاء فجلس إليه ، فلما انصرف الناس مكث الرجل جالسا في مكانه، فقال له سعيد : أظن جلوسك لحاجة ؟ فسكت الرجل ، فقال سعيد لغلمانه ، انصرفوا، ثم قال له سعيد : لم يبق غيري وغيرك ، فسكت ، فأطفأ المصباح ثم قال : رحمك الله لست ترى وجهي فاذا ذكر حاجتك ، فقال : أصلح الله الأمير أصابتنا فاقة وحاجة فأحببت ذكرها لك فاستحييت ، فقال : إذا أصبحت فآلق وكيلى فلانا ، فلما أصبح الرجل لقي الوكيل فقال له الوكيل : إن الأمير قد أمر لك بشيء فأْتِ بمن يحمله معك ، فقال : ما عندي من

يحمّله ، ثم انصرف الرجل إلى امرأته فلامها وقال : حملتيني على بذل وجهي للأمير ، فقد أمر لي بشيء يحتاج إلى من يحمله ، وما أراه أمر لي إلا بدقيق أو طعام ، ولو كان مالا لما احتاج إلى من يحمله ولأعطانيه ، فقالت المرأة : فمهما أعطاك فإنه يقوتنا فخذ ، فرجع الرجل إلى الوكيل فقال له الوكيل : إني أخبرت الأمير أنه ليس لك أحد يحمله ، وقد أرسل بهؤلاء الثلاثة السودان يحملونه معك ، فذهب الرجل فلما وصل إلى منزله إذا على رأس كل واحد منهم عشرة آلاف درهم ، فقال للغلمان : ضعوا ما معكم وانصرفوا ، فقالوا : إن الأمير قد أطلقنا لك ، فإنه مابعث مع خادم هدية إلى أحد إلا كان الخادم الذي يحملها من جملتها ، قال : فحسن حال ذلك الرجل .

قال : وقال ابن معين وعبد الأعلى بن حماد: سأل أعرابي سعيد ابن العاص فأمر له بخمسمائة ، فقال الخادم : خمسمائة درهم أو دينار؟ فقال : إنها أمرتك بخمسمائة درهم ، وإذا قد جاش في نفسك أنها دنانير فادفع إليه خمسمائة دينار ، فلما قبضها الأعرابي جلس يبكي ، فقال له : مالك؟ ألم تقبض نوالك؟ قال : بلى والله ، ولكن أبكي على

الأرض كيف تأكل مثلك .

قال : وقال عبد الحميد بن جعفر : جاء رجل في حمالة أربع ديات سأل فيها أهل المدينة، فقيل له : عليك بالحسن بن علي ، أو عبد الله بن جعفر ، أو سعيد بن العاص ، أو عبد الله بن عباس ، فانطلق إلى المسجد فإذا سعيد داخل إليه ، فقال: من هذا ؟ فقيل : سعيد بن العاص، فقصده فذكر له ما أقدمه ، فتركه حتى انصرف من المسجد إلى المنزل فقال للأعرابي : أتت بمن يحمل معك ، فقال: رحمك الله إنما سألتك مالاً لا تمراً ، فقال : أعرف ، أتت بمن يحمل معك! فأعطاه أربعين ألفاً فأخذها الأعرابي وانصرف ولم يسأل غيره^(١) .

فهذه أمثلة عالية في الكرم يقدمها أبو عثمان سعيد بن العاص الأموي رحمه الله تعالى ، وهي تدل على سمو نفسه نحو معالي الأمور ، حيث سخر ماله لخدمة إخوانه المسلمين وقضى به حوائجهم، وإنه لما يلفت النظر خبره مع ذلك القارئ الذي أصابته الحاجة فمنعه الحياء

(١) البداية والنهاية ٨ / ٨٣ - ٨٦ .

من ذكر حاجته فكان من أبي عثمان موقف نبيل حيث أطفأ المصباح حتى لا يرى ذلك المحتاج وجهه وهو يعرض حاجته ، وهكذا تسمو بالكرام نفوسهم حيث يهيئون الظروف التي تُبقي العزة في نفوس المحتاجين ولا تعرضهم لذل المسألة ، وهذا يدل على التخلق بخلق الإيثار والبعد عن الأثرة والأنانية.

وفي خبره مع الأعرابي لون من ألوان الكرم حيث غير نيته من الدراهم إلى الدنانير لمجرد أن الخادم ظن أنه أراد الدنانير ، فهو في هذا لا يريد أن يكون أقل مما يظن الناس فيه ، وفي بكاء الأعرابي مثل من أثر الكرماء في حياة الناس .

وقال الحافظ ابن كثير : ولما حضرت سعيد الوفاة جمع بنيه وقال : لا يفقدن أصحابي غير وجهي ، وصلوهم بما كنت أصلهم به ، وأجروا عليهم ما كنت أجري عليهم ، واكفوهم مؤنة الطلب ، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه ، وارتعدت فرائضه مخافة أن يُردّ ، فوالله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعا لحاجته أعظم منة عليكم مما تعطونه ، ثم أوصاهم بوصايا كثيرة ، منها أن يوفوا

ماعليه من الدين والوعود ، وأن لا يزوجوا أخواتهم إلا من الأكفاء ، وأن يسودوا أكبرهم ، فتكفل بذلك كله ابنه عمرو بن سعيد الأشدق ، فلما مات دفنه بالبيع ، ثم ركب عمرو إلى معاوية فعزاه فيه واسترجع معاوية وحزن عليه وقال : هل ترك من دين عليه ؟ قال : نعم ، قال : وكم هو ؟ قال : ثلاثمائة ألف درهم ، فقال معاوية : هي علي ، فقال ابنه : يا أمير المؤمنين إنه أوصاني أن لا أقضي دينه إلا من ثمن أراضيه ، فاشترى منه معاوية أراضيه بمبلغ الدين ، وسأل منه عمرو أن يحملها إلى المدينة ، فحملها له ، ثم شرع عمرو يقضي ماعلى أبيه من الدين حتى لم يبق أحد ، فكان من جملة من طالبه شاب معه رقعة من أديم فيها عشرون ألفاً ، فقال له عمرو : كيف استحققت هذه على أبي ؟ فقال الشاب : إنه كان يوماً يمشي وحده فأحببت أن أكون معه حتى يصل إلى منزله ، فقال : ابغني رقعة من أدم ، فذهبت إلى الجزارين فأتيته بهذه فكتب لي فيها هذا المبلغ واعتذر بأنه ليس عنده اليوم شيء ، فدفعت إليه عمرو ذلك المال وزاده شيئاً كثيراً^(١) .

(١) البداية والنهاية ٨ / ٨٧ .

وهكذا ظل أبو عثمان سعيد بن العاص رحمه الله تعالى على كرمه
الفياض حتى وهو يوصي أولاده حينما حضرته الوفاة ، حيث
أوصاهم بأن يستمروا على صلة الناس الذين كان يصلهم ، ولقد بلغ
القمة في تمثيل الكرم حينما بين لأولاده بأن صاحب الحاجة الذي
يراهم أهلا لقضاء حاجته أعظم منة عليهم بهذه الثقة منهم عليه
بالعطية ، وفي هذا المعنى يقول أيضًا في وصية ابنه: يا بني أَجْرُ اللهِ
المعروف إذا لم يكن ابتداء من غير مسألة ، فأما إذا أتاك الرجل تكاد
ترى دمه في وجهه ، أو جاءك مخاطرا لا يدري أتعطيه أم تمنعه فوالله
لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته^(١) .

ولقد قام ابنه عمرو المعروف بالأشدرق بتنفيذ هذه الوصية خير
قيام، كما يدل على ذلك خبره مع ذلك الشاب الذي حمل وعدًا من أبيه .
فله در أبي عثمان ما أجمل سيرته في حياته ، وما أروع وصيته عند
مماته !!

(١) البداية والنهاية ٨ / ٨٦ .

من أخبار عبيد الله بن عباس رحمه الله :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر أبي الحجاج محمد بن الوليد الفزاري أن عبيد الله بن العباس خرج في سفر له ومعه مولى له ، حتى إذا كان في بعض الطريق وقع لهما بيت أعرابي ، قال : فقال لمولاه : لو أنا مضينا فنزلنا بهذا البيت وبتنا به ، قال : فمضى وكان عبيد الله رجلاً جميلاً ، جهيراً ، فلما رآه الأعرابي أعظمه وقال لامرأته : لقد نزل بنا رجل شريف ، وأنزله الأعرابي ، ثم إن الأعرابي أتى امرأته فقال : هل من عشاء لضيفنا هذا ؟ فقالت : لا ، إلا هذه الشؤبية التي حياة ابنتك من لبنها ، قال : لا بد من ذبحها ، قالت : أفتقتل ابنتك ، قال : وإن ، قال : ثم إنه أخذ الشاة والشفرة وجعل يقول :

يا جارتى لا توقظي البنية
إن توقظيها تنتحب عليه

وتنزع الشفرة من يديه

ثم ذبح الشاة فهيأ منها طعاماً ، ثم أتى به عبيد الله ومولاه فعشاهما ، وعبيد الله يسمع كلام الأعرابي لامرأته ومحاورتهما .
فلما أصبح عبيد الله قال لمولاه : هل معك شيء ؟ قال : نعم ،

خمسمائة دينار فَضُلْتُ من نفقتنا ، قال : ادفعها إلى الأعرابي ، قال : سبحان الله أتعطيه خمسمائة دينار وإنما ذبح لك شاة ثمن خمسة دراهم ، قال : ويحك ، والله هو أسخى منا وأجود ، إنما أعطينا بعض مانملك ، وجاد علينا وآثرنا على مهجة نفسه وولده .

قال : فبلغ معاوية ، فقال : لله در عبيد الله من أي بيضة خرج ، ومن أي عش درج^(١) .

وأمام هذا الخبر العجيب فإن المتأمل له لا يدري أيعجب من ذلك الأعرابي الذي ذبح شويته الوحيدة التي منها حليب ابنته إكراما لضيفه؟!!

أم يعجب من عبيد الله بن عباس حينما أعطى الأعرابي ذلك العطاء الجزيل؟!!

إنها مكارم خلدتها التاريخ ، وذهب ذلك المال الذي لو صرف في وجهة خاصة أو كُنز لما كان له ذكر ولا خبر ، وأعظم من ذلك ما

(١) تاريخ دمشق ٣٧/٤٨٣ - ٤٨٤ ، وانظر البداية والنهاية ٨/٩٠ .

سيترتب على إنفاقه من النعيم المقيم الخالد يوم القيامة، مع النية الخالصة في طلب رضوان الله جل وعلا والجنة .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر علي بن المنذر ابن فرقد مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عبيد الله بن عباس يسمى تيار الفرات ، وكان عبد الله بن عباس يسمى حكيم المعضلات، قال : فكان عبيد الله يطعم كل يوم ، ينحر غدوة حتى قدموا المدينة، قال : فقال له أبوه العباس : يا بني مالك تغدّي ولا تُعشّي، إذا غديت فَعَشِّ ، فقال عبيد الله لغلام له يقال له «بند» :
يا بند انحر غدوة وانحر عشية^(١) .

وأخرج الحافظ ابن عساكر أيضًا في أخبار عبيد الله بن عباس من خبر عبيد الله بن محمد العائشي قال : قدمت امرأة إلى البصرة في سنة شهباء ومعها ابنان لها ، فلم يأت عليها الحول حتى دفتتها ، فقعدت بين قبريهما فقالت :

(١) تاريخ دمشق ٣٧ / ٤٨١ .

فله عيناى اللتان تراهما قريبين منى والمزار بعيد
هما تركا عينيّ لآماء فيهما وشكاً سواد القلب فهو عميد
مقيان بالبيداء لا يبرحانها ولا يسألان الركب أين يريد

فقال لها : لو أتيت عبيد الله بن عباس فقصت عليه القصة ،
فأنته فقالت له : يا ابن عم رسول الله ﷺ إني أصبحت لأعد قريبن
يحميني ، ولا عند عشيرة تؤويني ، وإني سألت عن المرّجى سببه
المأمول نائله ، المعطى سائله ، فأرشدت إليك ، فاعمل بي واحدة من
ثلاث : إما أن تقيم أودي^(١) ، أو تحسن صلتى ، أو تردني إلى أهلي ،
فقال عبيد الله : كلُّ يفعل بك^(٢) .

وأخبار عبيد الله بن العباس رحمه الله ورضي عن أبيه في الكرم
كثيرة ، وهي تدل على أن هذا الخلق النبيل فيه طبع وسجية ، فهو
لا يترك البذل والسخاء وإن لاحت له بوادر الإقلال والحاجة .

(١) الأود العوج والمقصود أن تجبر كسري .

(٢) تاريخ دمشق ٣٧ / ٤٨٣ .

من أخبار عرابة الأوسي رحمه الله^(١) :

قال الحافظ ابن كثير : وقال الهيثم بن عدي : اختلف ثلاثة عند الكعبة في أكرم أهل زمانهم ، فقال أحدهم : عبد الله بن جعفر ، وقال الآخر : قيس بن سعد ، وقال الآخر : عرابة الأوسي ، فتماروا في ذلك حتى ارتفع ضجيجهم عند الكعبة ، فقال لهم رجل : فليذهب كل رجل منكم إلى صاحبه الذي يزعم أنه أكرم من غيره فلينظر ما يعطيه وليحكم على العيان ، فذهب صاحب عبد الله بن جعفر إليه ، فوجده قد وضع رجله في الغرز ليذهب إلى ضيعة له ، فقال له : يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل ومنقطع به ، قال : فأخرج رجله من الغرز وقال : ضع رجلك واستو عليها ، وخذ ما في الحقيية ، ولا تُخدعنَّ عن السيف فإنه من سيوف علي ، فرجع إلى أصحابه بناقة عظيمة ، وإذا في الحقيية أربعة آلاف دينار ، ومطارف من خز وغير ذلك ، وأجلُّ ذلك سيف علي بن أبي طالب .

(١) هو عرابة بن أوس بن قيطي الأوسي الأنصاري .

ومضى صاحب قيس بن سعد فوجده نائماً ، فقالت له الجارية :
ما حاجتك إليه ؟ قال : ابن سبيل ومنقطع به ، قالت : فحاجتك أيسر
من إيقاظه ، هذا كيس فيه سبعمائة دينار مافي دار قيس مال غيره
اليوم ، واذهب إلى مولانا في معادن الإبل فخذ لك ناقة وعبدا ،
واذهب راشدا ، فلما استيقظ قيس من نومه أخبرته الجارية بما صنعت
فأعتقها شكراً لها على صنيعها ذلك ، وقال : هلاً أيقظتني حتى أعطيه
ما يكفيه أبدا ، فلعل الذي اعطيتيه لا يقع منه موقع حاجته .

وذهب صاحب عرابة الأوسي إليه فوجده وقد خرج من منزله
يريد الصلاة وهو يتوكأ على عبيدين له - وكان قد كف بصره - فقال
له : يا عرابة ، فقال : قل ، فقال : ابن سبيل ومنقطع به ، قال : فخلني
عن العبيدين ثم صفق بيده باليمنى على اليسرى ، ثم قال : أوه أوه ،
والله ما أصبحت ولا أمسيت وقد تركت الحقوق من مال عرابة شيئاً ،
ولكن خذ هذين العبيدين ، قال : ما كنت لأفعل ، فقال : إن لم تأخذهما
فهما حران فإن شئت فأعتق وإن شئت فخذ ، وأقبل يلتمس الحائط
بيده ، قال : فأخذهما وجاء بهما إلى صاحبيه .

قال : فحكّم الناس على أن جعفر قد جاد بهال عظيم ، وأن ذلك ليس بمستنكر له، إلا أن السيف أجلُّها ، وأن قيسًا أحد الأجواد ، حكّم مملوكته في ماله بغير علمه واستحسن فعلها وعتقها شكرًا لها على ما فعلت ، وأجمعوا على أن أسخى الثلاثة عرابة الأوسي لأنه جاد بجميع ما يملكه ، وذلك جهد من مُقلٍّ^(١) .

وبعد : فهذا الخبر من أحسن الأخبار في مواقف الأجواد الكرماء ، فكل واحد من هؤلاء الثلاثة قد جاد بخير كثير . وقد اتفق المحكّمون على أن عرابة الأوسي كان أكرم الثلاثة ، مع أنه أقل منهم صدقة ، إلا أنه قد تصدق بهاله كله ، وذلك جهد المقل ، وهو أفضل الصدقة كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يارسول الله أي الصدقة أفضل ؟ قال : جهد المقل وابدأ بمن تعول^(٢) .

من أخبار علي بن الحسين رحمه الله :

أخرج الإمام أحمد من خبر شيبه بن نعام قال : كان علي بن

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) سنن أبي داود ٢ / ٣١٢ رقم ١٦٧٧ .

الحسين عليه السلام يُيَخَّل ، فلما مات وجدوه يعول مائة أهل بيت
بالمدينة .

وأخرج من خبر أبي حمزة ثابت الثمالي : أن علي بن الحسين كان
يحمل الجراب فيه الخبز ، ويقول: إن صدقة الليل تطفئ غضب الرب
عز وجل .

وأخرج من خبر محمد بن إسحاق قال : كان ناس من أهل
المدينة يعيشون ، ما يدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن
الحسين رحمه الله فقدوا ما كانوا يُؤْتُونَ به بالليل^(١) .

فهذه أخبار جلييلة عن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن
أبي طالب في مجال الكرم الذي قد ازدان بالإخلاص لله تعالى ، وذلك
بإخفاء الصدقة ، وإخفاء الصدقة أفضل من إعلانها لما جاء في قول
رسول الله ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم
لا ظل إلا ظله « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله

(١) الزهد/١٦٦ .

ماتنفق يمينه»^(١) .

وذلك في غير الحالات الخاصة التي يستحب فيها إعلان الصدقة
مثل ما إذا أصابت المسلمين جوائح وأراد الإنسان بإظهار الصدقة أن
يكون قدوة لغيره أو فيها إذا دعا الإمام للصدقة بصورة معلنة .
ولقد كان رحمه الله تعالى يحمل الطعام إلى الفقراء في الليل بنفسه
حتى يحافظ على إخفاء الصدقة ، وقد نجح في إخفائها حيث لم يكن
يعلم الفقراء بأنه هو الذي يمونها حتى توفي .
ولئن كان قد فات ابن الحسين ما كان يعمل له بعض الناس في
الدنيا من جاه وسمعة فلقد ظفر بجاه الآخرة وسمعتها ، وشتان
ما بين الدارين .

(١) صحيح البخاري، رقم ١٤٢٣ (٣/٢٩٢) .

من أخبار الليث بن سعد رحمه الله :

من مواقف الكرم ما ذكره الحافظ ابن كثير عن الإمام الليث بن سعد الفهمي أنه استهداه الإمام مالك شيئاً من العصفر لأجل جهاز ابنته ، فبعث إليه بثلاثين حملاً ، فاستعمل منه مالك حاجته وباع منه بخمسة دنانير وبقيت عنده منه بقية .

قال : وحج مرة فأهدى إليه مالك طبقاً فيه رطب ، فرد الطبق وفيه ألف دينار .

قال : وكان يهب للرجل من أصحابه من العلماء الألف دينار وما يقارب ذلك^(١) .

فهذه أخبار عالية في السخاء تدل على عظمة هذا الإمام وتقدمه في مجالات البذل والمعروف والإحسان ، وما أجمل المال الصالح للرجل الصالح الذي يقول به هكذا وهكذا حتى يفنيه في طاعة الله تعالى واكتساب الدرجات العلى في الجنة !

(١) البداية والنهاية ١٠ / ١٧١ .

من أخبار ابن شهاب الزهري رحمه الله :

من المشهورين بالسخاء الإمام محمد بن شهاب الزهري ، ومن أخبار كرمه ما رُوي عن الإمام الشافعي قال : عتب رجاء بن حيوة على الزهري في الإسراف ، وكان يستدين ، فقال: لا آمن أن يجبس هؤلاء القوم ما بأيديهم عنك فتكون قد حملت على أمانيك ، قال : فوعده الزهري أن يقصُر ، فمرَّ به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل ، فوقف به رجاء وقال: يا أبا بكر ما هذا بالذي فارقتنا عليه ، فقال الزهري : انزل فإن السخيَّ لا تؤدِّبه التجارب^(١) .

وذلك لأن الكرم فيه خلق أصيل ، فهو يشعر بمتعة كبيرة إذا أحسن إلى الناس وبذل لهم من ماله ، كما يشعر بانقباض في النفس إذا غيَّر عادته في ذلك ، هذا بالنسبة لهواية النفس ، فإذا أضيف إلى ذلك اعتبار ذلك من العمل الصالح الذي سيتقاضى عليه فاعله الأجر في الآخرة أضعافاً مضاعفة فإن فاعل ذلك يندفع بحماس ونشاط من

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٧ .

غير أن ينظر لما سترتب على إنفاقه في الدنيا، وإذا كان التاجر يغامر برأس ماله أحيانا رجاء الربح المحتمل في الدنيا فإن المنفق في سبيل الله تعالى يغامر بهاله رجاء ربح محقق في الآخرة .

من أخبار عبد الله بن المبارك رحمه الله :

من أخبار السخاء وبذل المعروف ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك المروزي ، قال ابن كثير في ترجمته : وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه : من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتني بنفقته حتى أكون أنا أنفق عليه ، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق ، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب ، وحسن الخلق والتيسير عليهم ، فإذا قضوا حاجتهم يقول لهم : هل أوصاكم أهلوكم بهدية ؟ فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمينية وغيرها ، فإذا جاؤوا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية ، فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبُيِّضت أبوابها ، ورُمِّم شعثها ، فإذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد

قدومهم ، ودعاهم فأكلوا وكساهم ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ، ثم يُقسِم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل ، وكانت سُفرتُه تُحْمَل على بعير وحدها وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ، ثم يطعم الناس وهو الدهر صائم في الحر الشديد^(١) .

وبعد : فهذا نموذج عالٍ للكرم والإحسان وبذل المعروف ، جمع فيه ابن المبارك بين بذل ماله الكثير في النفقة على الحجاج وبذل نفسه في خدمتهم وقضاء حوائجهم ، فالذي يحج معه يكون سعيداً لأنه يُكفَى همَّ إعداد النفقة وتأمين اللوازم الخاصة في السفر وشراء الهدايا، ثم إذا عاد إلى بيته يجده مجدداً مزيّناً بعده ، إلى جانب ما هو أهم من ذلك وهو الاستفادة من علمه وعبادته وزهده وورعه وأخلاقه .
وبهذه الأخلاق العالية من ابن المبارك وبما تحلّى به من العلم

(١) البداية والنهاية ١٠ / ١٨٤ - ١٨٥ .

النافع وتعليم الأمة والتربية والجهاد ساد مجتمعا كبيرا في زمنه ، وكان الناس يستقبلونه ويسرون معه في حشود كبيرة في أي بلد حلَّ فيه .
ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير أيضًا عن كرم الإمام عبد الله ابن المبارك قال: وسأله مرة سائل فأعطاه درهما ، فقال له بعض أصحابه : إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالوذج وقد كان يكفيه قطعة ، فقال : والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز ، فأما إذا كان يأكل الفالوذج والشواء فإنه لا يكفيه درهم ، ثم أمر بعض غلمانه فقال : رُدَّه وادفع إليه عشرة دراهم ^(١) .

وفي هذا يتبين الفرق الكبير بين فهم ابن المبارك وفهم الذين حاوروه في شأن ذلك السائل، فقد كانوا يرون أن الدرهم كثير عليه لأنه ليس بحاجة ، حيث إنه من قوم يأكلون أطيب الطعام، بينما فهم ابن المبارك أنه مادام كذلك فإن الدرهم لن يملأ عينه فأعطاه عشرة دراهم ، وهكذا تكون أذهان الكرماء لَمَّاحة لمعالي الأمور ، سبَّاقة إلى

(١) البداية والنهاية ١٠ / ١٨٥ .

اكتساب مودة الناس .

ومن أخباره في الإحسان ما ذكره القاضي ابن أبي يعلى من خبر علي بن المديني قال: كان عبد الله بن المبارك يتجر في البز ويقول: لولا خمسة ما تجرت: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السمك، وابن علية، وكان يخرج يتجر إلى خراسان فكلما ربح من شيء أخذ القوت للعيال ونفقة الحج والباقي يصل به إخوانه الخمسة^(١).

فهذه تضحية جليلة وكرم فياض من الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى، حيث كان يبذل من وقته في التجارة من أجل أن يصل إخوانه من العلماء.

ولقد كان في ذلك مثالا عاليا للزهد حيث يملك المال ولا يبقى منه إلا نفقته الضرورية وينفق بقيته على أولئك العلماء.

(١) طبقات الحنابلة ١/١٠٠ .

من أخبار أبي النجم الكردي رحمه الله :

من أخبار الأسخياء ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الأمير بدر ابن حسنويه أبي النجم الكردي أمير بلاد الدينور وهمدان قال : وكان يصرف كل جمعة عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل ، وفي كل شهر عشرين ألف درهم في تكفين الموتى .. وثلاثة آلاف دينار في كل سنة إلى الحدادين والحذائين لأجل المنقطعين من همذان وبغداد ، يصلحون الأحذية ونعال دوابهم ، ويصرف في كل سنة مائة ألف دينار إلى الحرمين صدقة على المجاورين ، وعمارة المصانع ، وإصلاح المياه في طريق الحجاز وحفر الآبار ، وما اجتاز في طريقه وأسفاره بهاء إلا بنى عنده قرية، وعمّر في أيامه من المساجد والخانات ما ينيف على ألفي مسجد وخان^(١) .

من أخبار الإمام الأوزاعي رحمه الله :

من أخبار الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي في الكرم

(١) البداية والنهاية ١١/٣٧٨ .

والإحسان إلى المسلمين ما ذكره الحافظ ابن كثير عنه قال : قالوا :
وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم ، وكان له في بيت المال
على الخلفاء إقطاع صار إليه من بني أمية ، وقد وصل إليه من خلفاء
بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحو من سبعين ألف دينار ، فلم
يمسك منها شيئاً ولا اقتنى شيئاً من عقار ولا غيره ، ولا ترك يوم مات
سوى سبعة دنانير كانت جهازه بل كان ينفق ذلك كله في سبيل الله
وفي الفقراء والمساكين^(١) .

فهذا الوصف المذكور للإمام الأوزاعي يدل على زهده في الدنيا
وسخائه المتواصل بالمال طيلة عمره ، فهو لم يدخر من ذلك المال
الكثير شيئاً ولم يُشيد به قصورا ولم يكون به مظاهر دنيوية ، وإنما كان
ينفقه في وجوه الخير ، ولقد كان راجح العقل صائب التفكير حينما
ادخر تجارته للآخرة ، وما أبعد الفرق بين عائدات الدنيا وعائدات
الآخرة !!

(١) البداية والنهاية ١٠ / ١٢٠ .

من أخبار أمير المؤمنين المهدي رحمه الله^(١) :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من أخبار الكرم النادرة ،
وذلك فيما جرى لأمر المؤمنين المهدي في ضيافته عند أحد الأعراب .
قال ابن كثير: وقدم أعرابي ومعه كتاب مختوم فجعل يقول : هذا
كتاب أمير المؤمنين إليّ ، أين الرجل الذي يقال له الربيع الحاجب؟
فأخذ الكتاب وجاء به إلى الخليفة ، وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب
فإذا هو قطعة أديم^(٢) فيها كتابة ضعيفة ، والأعرابي يزعم أن هذا هو
خط الخليفة، فتبسم المهدي وقال : صدق الأعرابي هذا خطي ، إني
خرجت يوماً إلى الصيد فضعت عن الجيش وأقبل الليل فتعودت
بتعويذ رسول الله ﷺ ، فَرَفَعَ لي نار من بعيد فقصدتها ، فإذا هذا الشيخ
وامراته في خباء يوقدان نارا ، فسلمت عليهما فردا السلام ، وفرش لي
كساء وسقاني مذقة من لبن^(٣) مشوب بالماء فما شربت شيئاً إلا وهو

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

(٢) أي من جلد .

(٣) المذقة اللبن الممزوج بالماء .

أطيب منه ، ونمت نومة على تلك العباءة ما أذكر أني نمت أحلى منها،
فقام إلى شويهة له فذبحها ، فسمعت امرأته تقول له : عمدت إلى
مكسبك ومعيشة أولادك فذبحتها ، هلكت نفسك وعيالك ، فما
التفت إليها ، واستيقظت فاشتويت من لحم تلك الشويهة وقلت له :
أعندك شيء أكتب لك فيه كتابا ؟ فأتاني بهذه القطعة فكتبت له بعود
من ذلك الرماد خمس مائة ألف وإنما أردت خمسين ألفا ، والله لانفذتها
له كلها ولو لم يكن في بيت المال سواها ، فأمر له بخمس مائة ألف
فقبضها الأعرابي ، واستمر مقبيا في ذلك الموضع في طريق الحاج من
ناحية الأنبار ، فجعل يقري الضيف ومن مر به من الناس ، فعُرف
منزله بمنزل مُضيف أمير المؤمنين المهدي ^(١) .

ففي هذا الخبر مثلان من السخاء قدّم أحدهما ذلك الأعرابي
الذي ذبح شاته لضيفه وهو لا يملك غيرها ، وحينما ملك ذلك المال
الكثير بعد ذلك لم يبق يثمر ذلك المال ويتاجر به وإنما رجع إلى خبائه

(١) البداية والنهاية ١٠/١٥٨-١٥٩ .

ذلك على طريق الحجاج فصار يبذل من ذلك المال في إكرام الضيوف،
وذلك لأن الكرم كان فيه سجية ، فما أن ملك ذلك المال حتى صرفه
فيما يُرضي طموحه في هذا الجانب .

والمثل الثاني فيما قدّمه أمير المؤمنين المهدي لذلك الأعرابي من
تلك المكافأة السخية التي فجّرت فيه ينابيع الكرم ودفعتّه إلى
الاستمرار في ذلك المعروف والإحسان .

من أخبار الإمام البخاري رحمه الله :

ممن اشتهروا بالكرم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل
البخاري ، ومن أخباره ما ذكره محمد بن أبي حاتم قال : وكان أبو عبد
الله يتصدق بالكثير يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث
فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين ، وأقل وأكثر من غير أن يشعر
بذلك أحد وكان لا يفارقه كيسه ، ورأيتّه ناوَل رجلاً صرة فيها ثلاثمائة
درهم ، وذلك أن الرجل أخبرني بعدد ما كان فيها من بَعْد ، فأراد أن
يدعو ، فقال أبو عبد الله : ارفق ، واشتغل بحديث آخر كيلا يعلم

بذلك أحد^(١) .

فهذا مثل على كرم أبي عبد الله البخاري ورغبته في تقديم العمل الصالح عن طريق الإنفاق، ومن إخلاصه لله تعالى أنه كان يحرص على إخفاء صدقته ، وبذلك يكون قد طبق علمه رجاء أن يكون من السبعة الذين يظلمهم الله تعالى تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .

ومن ذلك ما رواه محمد بن أبي حاتم عن سقاء الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، قال : كانت له قطعة أرض يكرها كل سنة بسبعمئة درهم ، فكان ذلك المكتري ربما حمل إلى أبي عبد الله قشاة أو قشأتين ، لأن أبا عبد الله كان معجبا بالقشاة النضيج ، وكان يؤثره على البطيخ أحيانا، فكان يهب للرجل مائة درهم كل سنة لحمله القشاة إليه أحيانا^(٢) .

ومن ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن كاتب الإمام البخاري

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٤٥٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٤٤٩ .

محمد بن أبي حاتم قال: وكنت اشتريت منزلا بستعمائة وعشرين درهما فقال لي - يعني الإمام البخاري - لي إليك حاجة تقضيها؟ قلت: نعم، ونعمي عين، قال: ينبغي أن تصير إلى نوح بن أبي شداد الصيرفي، وتأخذ منه ألف درهم، وتحمله إلي، ففعلت، فقال لي: خذه إليك، فاصرفه في ثمن المنزل، فقلت: قد قبلته منك وشكرته. وأقبلنا على الكتابة، وكنا في تصنيف «الجامع» فلما كان بعد ساعة، قلت: عرضت لي حاجة لا أجتري رفعها إليك، فظن أني طمعت في الزيادة، فقال: لا تحتشمني، وأخبرني بما تحتاج، فإني أخاف أن أكون مأخوذا بسببك، قلت له: كيف؟ قال: لأن النبي ﷺ آخى بين أصحابه. فذكر حديث سعد وعبد الرحمن. فقلت له: قد جعلتكم في حل من جميع ماتقول، ووهبت لك المال الذي عرضته علي، عني المناصفة. وذلك أنه قال: لي جوار وامرأة، وأنت عزب فالذي يجب علي أن أناصفك لنستوي في المال وغيره، وأربح عليك في ذلك، فقلت له: قد فعلت - رحمك الله - أكثر من ذلك إذ أنزلتني من نفسك ما لم تنزل أحدا، وحللت منك محل الولد، ثم حفظ علي

حديثي الأول وقال : ما حاجتك ؟ قلت : تقضيها؟ قال : نعم ، وأسْرُ بذلك . قلت : هذه الألف ، تأمر بقبوله ، واصرفه في بعض ماتحتاج إليه ، فقبله ، وذلك أنه ضمن لي قضاء حاجتي .

ثم جلسنا بعد ذلك بيومين لتصنيف « الجامع » وكتبنا منه ذلك اليوم شيئاً كثيراً إلى الظهر ، ثم صلينا الظهر ، وأقبلنا على الكتابة من غير أن نكون أكلنا شيئاً ، فرآني لما كان قُرب العصر شبه القلق المستوحش ، فتوهم فيّ ملالا . وإنما كان بي الحصر غير أنني لم أكن أقدر على القيام ، وكنت أتلوّى اهتماماً بالحصر ، فدخل أبو عبد الله المنزل ، وأخرج إلي كاغدة فيها ثلاث مئة درهم ، وقال : أما إذا لم تقبل ثمن المنزل ، فينبغي أن تصرف هذا في بعض حوائجك فجهدي ، فلم أقبل .

ثم كان بعد أيام ، كتبنا إلى الظهر أيضاً ، فناولني عشرين درهما ، فقال : ينبغي أن تصرف هذه في شراء الخضر ونحو ذلك ، فاشتريت بها ماكنت أعلم أنه يلائمه ، وبعثت به إليه وأتيت ، فقال لي : بيّض الله وجهك ، ليس فيك حيلة فلا ينبغي لنا أن نُعني أنفسنا ، فقلت له :

إنك قد جمعت خير الدنيا والآخرة ، فأبي رجل يبر خادمه بمثل ما تبرني ، إن كنتُ لا أعرف هذا فلست أعرف أكثر منه ^(١) .

وبعد : فهذا خبر نفيس يدل على بلوغ الإمام البخاري وتلميذه محمد بن أبي حاتم درجات عليا في مكارم الأخلاق ، فالإمام البخاري يسخو بالمال لتلميذه بما يزيد على قيمة بيت اشتراه ، وتلميذه يحتال في رد ذلك المبلغ بعدما شكر أبا عبد الله وأظهر قبوله إياه .

ثم يحاول أبو عبد الله أن يعطي تلميذه مرة أخرى مبلغا أقل لعله يرضى بقبوله ، ولكن تلميذه يأبى ويشعره بأن ما هو فيه من خدمته في مجال العلم أعظم عنده من الدنيا .

وحيثما أعطاه مبلغا من المال ليشتري شيئا من الخضرة اشترى به ما يلائم رغبة شيخه ، فلله در هذا التلميذ البار ، ما أعظم أدبه ، وما أسمى أخلاقه !!

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٥٠ - ٥٤٢ .

من أخبار الإمام الشافعي رحمه الله :

من ذلك ما رُوي عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي من أخبار الكرم وساحة النفس فمن ذلك ما ذكره عمرو بن سواد قال : كان الشافعي أسخى الناس على الدينار والدرهم والطعام ، فقال لي الشافعي : أفلستُ في دهري ثلاثة إفلاسات ، فكنت أبيع قليلي وكثيري، حتى حليّ بتي وزوجتي ، ولم أرهن قط ^(١) .
يعني أنه أفلس من كثرة إنفاقه على الفقراء وإلا فإنه كان من الزهاد ، وكانت نفقته على نفسه قليلة .

وقال الربيع : كان الشافعي ماراً بالحدائين فسقط سوطه فوثب غلام ومسحه بكمه وناوله، فأعطاه سبعة دنانير ^(٢) .
وهذا التصرف من هذا الغلام دليل على أدبه وسمو تربيته فهو لم يكتف بمناولة الإمام الشافعي عصاه بل مسح العصا بكمه ، وإن المجتمع الذي يربي صغاره على احترام الكبار وتوقيرهم، وخاصة

(١) سير أعلام النبلاء ٣٧/١٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٧/١٠ .

أهل العلم منهم يكون مجتمعًا راقياً صالحاً .

وما كافأه به الإمام الشافعي من ذلك المبلغ الكبير يُعدُّ حثاً بالغاً على فعل الخير وخدمة المسلمين ، وكم هي فرحة ذلك الغلام بحصوله على ذلك المبلغ ! وكم كان أثر ذلك فيه وفيمن حوله في الاندفاع نحو بذل المعروف والإحسان إلى المسلمين !

وقال الربيع : تزوجت فسألني الشافعي : كم أصدقتها قلت :

ثلاثين ديناراً ، عجّلت منها ستة ، فأعطاني أربعة وعشرين ديناراً^(١) .

وحكى الربيع : إن إنساناً ناول الشافعي رقعة يقول فيها : إنني

بقال رأس مالي درهم ، وقد تزوجت فأعني ، فقال ياربيع أعطه ثلاثين

ديناراً واعذّرني عنده ، فقلت : أصلحك الله إن هذا يكفيه عشرة

دارهم ، فقال : ويحك وما يصنع بثلاثين ؟ أفي كذا أم في كذا ؟ - يُعَدُّ

ما يصنع في جهازه - أعطه^(٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٣٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٣٨ .

وهذا نوع رفيع من الإحسان والمواساة ، فكم هي فرحة من أقدم على زواج وقد ضاقت به المسالك حينما يوفق بمن يعطيه المهر كله ! وأعظم من ذلك حينما يوفق بمن يعطيه أكثر من تكاليف المهر كما هو الحال في ذلك البقال .

وروى الزبير بن سليمان القرشي عن الشافعي قال : خرج هرثمة فأقرأني سلام أمير المؤمنين هارون وقال : قد أمر لك بخمسة آلاف دينار .

قال [يعني الزبير] : فحُمِلَ إليه المال ، فدعا بحجام فأخذ شعره فأعطاه خمسين دينارًا ، ثم أخذ رِقَاعًا فصَرَ صررًا وفرقها في القرشيين الذين هم بالحضرة ومن بمكة ، حتى مارجع إلى بيته إلا بأقل من مائة دينار^(١) .

وقال الربيع : أخبرني الحميدي قال : قدم الشافعي صنعاء فُضِرِبَتْ له خيمة ومعه عشرة آلاف دينار ، فجاء قوم فسألوه ، فما

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٣٨ .

قُلِعَت الخيمة ومعه منها شيء^(١) .

فهذه نماذج عالية في الكرم يقدمها الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، إلى جانب ما قدم للأمة من علم غزير وفهم ثاقب ، والكرم من الأخلاق السامية التي تبين معادن الرجال ، وهو مع الإخلاص دليل على قوة الإيمان ، لأن بذل المال - وهو من أعلى المحبوبات من أجل الله تعالى - شاهد على قوة الإيمان .

من أخبار أبي عبد الله الواقدي رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي من خبر القاضي أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي قال : أَضَقْتُ مرة من المرار وأنا مع يحيى بن خالد البرمكي ، وحضر عيد فجاءتني جارية فقالت : قد حضر العيد وليس عندنا من النفقة شيء ، فمضيت إلى صديق لي من التجار فعرفته حاجتي إلى القرض ، فأخرج إليّ كيساً مختوماً ، فيه ألف ومئتا درهم، فأخذته وانصرفت إلى منزلي،

(١) سير أعلام النبلاء ٣٨/١٠ .

فما استقررت فيه حتى جاءني صديق لي هاشمي فشكى إلي تأخر غلته
وحاجته إلى القرض ، فدخلت إلى زوجتي فأخبرتها فقالت : على أيّ
شيء عزمت ؟ قلت : على أن أقاسمه الكيس ، قالت ما صنعت شيئاً ،
أتيت رجلاً سوقة فأعطاك ألفاً ومائتي درهم ، وجاءك رجل له من
رسول الله ﷺ رحم ماسة تعطيه نصف ما أعطاك السوقة ! ما هذا
شيئاً ، أعطه الكيس كله ، فدفعته إليه ، ومضى صديقي التاجر إلى
الهاشمي فسأله القرض فأخرج الهاشمي إليه الكيس ، فلما رأى خاتمه
عرفه ، وانصرف إليّ فخبّرني الأمر ، وجاءني رسول يحيى بن خالد
يقول: إنما تأخر رسولي عنك لشغلي بحاجات أمير المؤمنين ، فركبت
إليه فأخبرته بخبر الكيس ، فقال: يا غلام هات تلك الدنانير ، فجاءه
بعشرة آلاف دينار فقال : خذ ألفي دينار لك ، وألفين لصديقك ،
وألفين للهاشمي ، وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم^(١) .

فهذه قصة عجيبة ظهرت فيها نماذج عالية من الكرم الفياض ،

(١) تاريخ بغداد ٣/ ١٩ - ٢٠ .

تردد فيها الكرم بين التاجر الذي بذل المال للواقدي مع حاجته إليه ،
والمرأة التي أبت أن يكون التاجر أكرم من زوجها، والواقدي الذي
بذل ذلك المال لمقترضه مع حاجته إليه ، ولقد كانت نتيجة ذلك
الكرم المتبادل أن حصل كل واحد من هؤلاء الكرماء على مكافأة
سخية من يحيى البرمكي وزير أمير المؤمنين هارون الرشيد .

ولقد كان أبو عبد الله الواقدي من الكرماء المشهورين يقول عن
نفسه : صار إليّ من السلطان ستمائة ألف درهم ماوجبت عليّ فيها
الزكاة ، ويقول عنه عباس الدوري : مات الواقدي وهو على القضاء
وليس له كفن فبعث المأمون بأكفانه ^(١) .

من أخبار ابن مهدي رحمه الله :

من أسخياء العلماء المشهورين الإمام القدوة أحمد بن مهدي ،
قال أبو نعيم الحافظ : كان صاحب ضياعٍ وثروة أنفق على أهل العلم
ثلاثمائة ألف درهم ^(٢) .

(١) تاريخ بغداد ٢٠/٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/٥٩٧-٥٩٨ .

وهكذا يسخو هذا العالم الجليل بهذا المبلغ الكبير على أهل العلم، والمال عادة من مطالب الإنسان ، ولكن حينما تسمو الأهداف وتعلو المقاصد فإن الحب ينبل عن المألوفات ويرتفع عما تعارف الناس عليه عادة، ليصل بصاحبه إلى خدمة الأهداف السامية بما يملكه من مال ، فيتحول المال إلى خادم مخلص دؤوب نحو الوصول إلى تحقيق أهداف صاحبه . فالمال أداة طيِّعة يستخدمها الكبار في تحقيق المآرب الكبيرة والمكارم العالية ، في الوقت الذي يتحول في أيدي الصغار إلى معبود أصم ، يدفع عابديه نحو المهالك ، ويحشرهم نحو الرذائل .

من أخبار سوار صاحب المهدي رحمه الله :

من أخبار السخاء والوفاء ما ذكره الحافظ ابن كثير قال : وعن سوار - صاحب رحبة سوار - قال : انصرفت يوما من عند المهدي فجئت منزلي فوضع لي الغداء فلم تُقبل نفسي عليه ، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني نوم ، فاستدعيت بعض حظاياي لأتلهي بها فلم تنبسط نفسي إليها ، فنهضت فخرجت من المنزل وركبت

بغلتي فما جاوزت الدار إلا قليلا حتى لقيني رجل ومعه ألفا درهم
فقلت : من أين هذه ؟ فقال : من مُلكك الجديد ، فاستصحبته معي
وسرت في أزقة بغداد لأتشاغل عما أنا فيه من الضجر ، فحانت صلاة
العصر عند مسجد في بعض الحارات ، فنزلت لأصلي فيه ، فلما
قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بشيبي فقال : إن لي إليك
حاجة ، فقلت : وما حاجتك ؟ فقال : إني رجل ضرير ولكني لما
شممت رائحة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة فأحببت أن
أفضي إليك بحاجتي ، فقلت : وماهي ؟ فقال : إن هذا القصر الذي
تجاه المسجد كان لأبي فسافر منه إلى خراسان فباعه وأخذني معه وأنا
صغير ، فافترقنا هناك وأصابني أنا الضرر ، فرجعنا إلى بغداد بعد أن
مات أبي ، فجئت إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئا أتبلغ به لعلي
أجتمع بسوار فإنه كان صاحباً لأبي ، فلعله أن يكون عنده سعة يجود
منها علي ، فقلت : ومن أبوك ؟ فذكر رجلا كان أصحاب الناس إلي ،
فقلت : إني أنا سوار صاحبُ أبيك ، وقد منعني الله يومك هذا النوم
والقرار والأكل والراحة حتى أخرجني من منزلي لأجتمع بك

وأجلسني بين يديك ، وأمرت وكيلى فدفعت له الألفى الدرهم التى معه، وقلت له : إذا كان الغد فأت منزلى فى مكان كذا وكذا ، وركبت فجئت دار الخلافة وقلت: ما أتحف المهدي الليلة فى السمر بأغرب من هذا .

فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جدا وأمر لذلك الأعمى بألفى دينار^(١) .

فهذه حادثة عجيبة فيها مثل من حكمة الله تعالى العالفة فى تدبفر أمور خلقه ، حيث تجتمع الأسباب الموصلة إلى مقاصدها من غير أن يكون لمن جرت على يديه أحيانا أى قصد فى ذلك، فهذا الغنى المحسن اجتمعت له تلك الأسباب التى أخرجته من بيته فى ساعة ما كان يخرج فيها ليلقاه ذلك الأعمى الفقير فيعرض عليه حاجته ، ويشاء الله تعالى أن يوافق ذلك المحسن أحد عماله بشيء من المال ليكون طعمة عاجلة لذلك الفقير .

(١) البداية والنهاية ١٠/١٥٩ .

وموقف في السخاء والوفاء وبذل المعروف من سوار صاحب
أمير المؤمنين المهدي رفع الله به حال ذلك الأعمى الفقير وسدَّ
حاجته .

من أخبار إبراهيم بن أدهم التميمي رحمه الله :

من أخبار السخاء ما ذكره الحافظ ابن كثير عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى حيث قال: وذكروا أنه - يعني ابن أدهم - حصد مرة بعشرين دينارًا فجلس مرة عند حجام هو وصاحب له ليحلق رؤوسهم ويحجمهم فكأنه تبرم بهم واشتغل بغيرهم ، فتأذى صاحبه من ذلك ، ثم أقبل عليهم الحجام فقال : ماذا تريدون ؟ قال إبراهيم : أريد أن تحلق رأسي وتحجمني ، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم العشرين دينارًا وقال : أردت أن لا تحتقر بعدها فقيرًا أبدا .

قال وقال مضاء بن عيسى : مفاق إبراهيم أصحابه بصوم

ولا بصلاة ولكن بالصدق والسخاء^(١) .

فهذا غيظ من فيض مما كان يتصف به إبراهيم بن أدهم رحمه

الله تعالى من السخاء ، وقد استخدم كرمه في هذه الحادثة لغرض

دعوي ، حيث رأى ذلك الحجام يحتقر الفقراء فأعطاه ذلك المبلغ

(١) البداية والنهاية ١٠/١٤٢ .

الكبير ليعلمه بأن هناك من الأغنياء من يظهرون بمظهر الفقراء زهدًا
في مظاهر الحياة الدنيا حتى لا يحتقر الفقراء بعد ذلك .

من أخبار بقيّ بن مخلد رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمة الإمام الحافظ بقيّ بن مخلد الأندلسي قال قال ابن لبابة الحافظ : كان بقي من عقلاء الناس وأفاضلهم ، وكان أسلم بن عبد العزيز يقدمه على جميع من لقيه بالمشرق ويصف زهده ويقول : ربما كنت أمشي معه في أزقة قرطبة فإذا نظر في موضع خال إلى ضعيف محتاج أعطاه أحد ثوبيه^(١) .

فهذا مثل من زهد الإمام بقي بن مخلد وكرمه ، وكونه يتصدق بثوب ، ليس كبيرا ولكن حينما يكون ذلك الثوب أحد ثوبيه اللذين يلبسهما وهو بحاجة إليهما فإن ذلك يكون كبيرا .

من أخبار محمد بن عباد المهلبي الأزدي رحمه الله :

مما رُوي من الكلام على خلق الكرم ما ذكره أبو العيّن قال : قال المأمون لمحمد بن عباد : أردت أن أوليك فمنعني إسرافك قال : منع الجود سوء ظن بالمعبود ، فقال : لو شئت أبقيت على نفسك ، فإن

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩٢ .

ماتنفقه ما أبعد رجوعه إليك قال : من له مولى غني لم يفتقر ، فقال
المأمون : من أراد أن يكرمني فليكرم ضيفي محمدا ، فجاءته الأموال ،
فما ذخرها درهما ، وقال : الكريم لا تُحَنِّكهُ التجارب ^(١) .

فهذه كلمات بليغة في الكرم تدل على عمق التوحيد ، فمحمّد بن
عباد المهلبى ينفق وهو يعلم أن الله تعالى سيخلف عليه ما أنفقه ولعله
يستشعر قول رسول الله ﷺ « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان
ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر :
اللهم أعط ممسكاً تلفاً » ^(٢) ، فهو يعلم أن المال مال الله جل وعلا ،
وأنه قد تكفل للمنفقين بالعوض ، ويرى أن الإمساك سوء ظن بوعده
الله تعالى ، فكان ينفق حتى يستدين من أجل ذلك فيهبى الله جل
وعلا من يسد عنه دينه ، كما روي أن المأمون قال له مرة : كم دينك
يا محمد ؟ قال : ستون ألف دينار فأعطاه مائة ألف دينار ^(٣) .

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٩٠ .

(٢) صحيح البخاري ، الزكاة ، رقم ١٤٤٢ (٣ / ٣٠٤) ، صحيح مسلم ، الزكاة رقم ٥٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٩٠ .

من أخبار دعلج السجستاني رحمه الله :

من الذين اشتهروا بالكرم المحدث الفقيه أبو محمد دَعْلَج بن أحمد بن دعلج السجستاني ، روى الخطيب البغدادي من خبر أحمد بن الحسين الواعظ قال : أُودِعَ أبو عبد الله ابن أبي موسى الهاشميُّ عشرة آلاف دينار لیتيم ، فضاقت يده فأنفقها ، وكبر الصبي وأُذن له في قبض ماله ، قال ابن أبي موسى : فضاقت عليَّ الأرض وتحيرت ، فبكرت على بغلتي وقصدت الكرخ فانتهدت بي البلغة إلى درب السلولي ، ووقفت بي علي باب دعلج ، فدخلت فصليت خلفه الفجر، فلما انفتل رحب بي ، وقمنا فدخلنا داره فقُدِّمت لنا هريسة، فأكلت وقصرت، فقال: أراك منقبضا، فأخبرته فقال: كل فإن حاجتك تُقضى ، فلما فرغنا استدعى بالذهب والميزان ، فوزن لي عشرة آلاف دينار، وقيمت أطيير فرحا، فوضعت المال على القربوس^(١) وغطيته بطيلساني ، ثم سلمت المال إلى الصبي بحضرة قاضي القضاة، وعظّم

(١) هو جزء من السرج .

الثناء علي ، فلما عدت إلى منزلي استدعاني أمير من أولاد الخليفة فقال :
قد رغبت في معاملتك وتضمينك أملاكي ، فضممتها فربحتُ في
ستتي ربحا عظيما وكسبت في ثلاث سنين ثلاثين ألف دينار، وحملت
لدعَلَج المال ، فقال : سبحان الله والله ما نويت أخذها ، حلَّ بها
الصبيان ، فقلت : أيها الشيخ أيش أصل هذا المال حتى تهب لي عشرة
آلاف دينار ؟ فقال : نشأت وحفظت القرآن وطلبت الحديث، وكنت
أَتَبَرَّزُ^(١) فوفاني تاجر من البحر فقال : أنت دعَلَج ؟ قلت : نعم . قال :
قد رغبت في تسليم مالي إليك مضاربة ، فسلم إليَّ برنامجات بألف
ألف درهم، وقال لي : ابسط يدك فيه ولا تعلمُ مكانا يُنْفَقُ فيه المتاع
إلا حملته إليه ، ولم يزل يتردّد إليَّ سنة بعد سنة يحمل إليَّ مثل هذا ،
والبضاعة تنمي ، ثم قال : أنا كثير الأسفار في البحر فإن هلكت فهذا
المال لك على أن تصدّق منه وتبني المساجد ، فأنا أفعل مثل هذا ، وقد

(١) يعني يتاجر في الثياب .

ثمّر الله المال في يدي، فاكنتم عليّ ما عشت^(١) .

وبعد : فهذه نماذج من الكرم الفياض ، فذلك التاجر الذي لم يُذكر اسمه قد فوض العالم دَعَلج السجستاني بالصدقة من ذلك المال الكثير الذي أعطاه إياه ليتاجر به ، وكان دَعَلج أميناً حيث عمل بوصية ذلك التاجر ولم يقصُر نفع المال على نفسه وأسرته بل بذله في وجوه الخير .

من أخبار الوزير ابن هبيرة رحمه الله :

من مواقف الوزير أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني في مجال الكرم ما ذكره الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي نقلاً عن ياقوت الحموي بإسناده : أن الوزير عُرِضت عليه جارية فائقة الحسن وظهر له في المجلس من أدبها وحسن كتابتها وذكائها وظرفها ما أعجبه، فأمر فاشترت له بمائة وخمسين ديناراً ، وأمر أن يُهيأ لها منزل وجارية، وأن يُحمل لها من الفرش والآنية

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٣٣ - ٣٤ .

والثياب وجميع ما تحتاج إليه ، ثم بعد ثلاثة أيام جاءه الذي باعها
وشكى إليه ألم فراقها ، فضحك وقال: لعلك تريد ارتجاع الجارية ؟
قال : إي والله يا مولانا وهذا الثمن بحاله لم أتصرف فيه، وأبرزه،
فقال له الوزير : ولا نحن تصرفنا في المثلن ، ثم قال لخدمه : ادفع
إليه الجارية وما عليها وجميع ما في حجرتها ، ودفع إليه الخرقه التي
فيها الثمن وقال: استعينا به على شأنكما ، فأكثرنا من الدعاء له،
وأخذها وخرج ^(١) .

فهذا مثل بليغ في الكرم والإيثار حيث تنازل الوزير ابن هبيرة
عن تلك الجارية التي اشتراها مع إعجابه بها ولم يكتف بذلك بل
تنازل عن ثمنها للبائع ، وزاده على ذلك ما أعطاهها بعد ملكه إياها،
وهذا الخبر يدل على مقدرة ابن هبيرة الفائقة على تحويل شهواته
الجسدية إلى الرغبات الأكيدة في تطهير نفسه والسمو بها نحو الفعال
الحميدة والأخلاق الكريمة .

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٢٨٢ - ٢٨٣ .

إن ما وقع فيه ذلك الرجل البائع من ألم الفراق أمر محزن ، ولقد كان قصارى ما يتمناه أن تعود إليه تلك الجارية مع إعادة ثمنها ولكنه فوجئ بكرم ابن هبيرة الفياض حيث عادت إليه وما حازته وثنمها ، وهذا يُعدُّ إسهامًا كبيرًا في سد حاجات المعوزين وتضميد جراحاتهم .

وقال الإمام أبو الفرج البغدادي : وحكي عن الوزير أنه كان إذا مد السباط فأكثر ما يحضره الفقراء والعميان ، فلما كان ذات يوم وأكل الناس وخرجوا بقي رجل ضرير يبكي ويقول : سرقوا مداسي وما لي غيره ، والله ما أقدر على ثمن مداس وما بي إلا أن أمشي حافيا وأصلي ، فقام الوزير من مجلسه ولبس مداسه وجاء إلى الضرير فوقف عنده وخلع مداسه والضرير لا يعرفه وقال له : البس هذا وأبصره على قدر رجلك ، فلبسه وقال : نعم ، لا إله إلا الله كأنه مداسي ومضى الضرير ، ورجع الوزير إلى مجلسه وهو يقول : سلمتُ منه أن يقول : أنت سرقته ^(١) .

(١) الذيل طبقات الحنابلة ٣ / ٢٨٣ .

فهذا مثل جليل في التواضع والكرم ، لقد كان أيسر من التنازل عن الحذاء أن يدفع الوزير لذلك الفقير مالا يشتري به حذاء ، ولكنه عزَّ عليه أن يمشي ذلك الفقير الأعمى حافيا ، خصوصا حينما ذكر تخرجه من الصلاة وقد مشي حافيا لاحتمال أن يطأ نجاسة وهو لا يدري ، ففضّل هذا الوزير النبيل أن يؤثر بنعليه ذلك الفقير .

من أخبار الوزير علي بن عيسى رحمه الله :

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي الحسن علي بن عيسى بن الجراح وزير المقتدر والقاهر من رواية أبي القاسم علي بن الحسن التتوخي عن أبيه عن جماعة : أن عطارًا من أهل الكرخ كان مشهورًا بالسنة ، ركبته ستمائة دينار دينًا ، فأغلق دكانه وانكسر عن كسبه ولزم منزله ، وأقبل على الدعاء والتضرع والصلاة ليالي كثيرة ، فلما كان من بعض تلك الليالي رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول له : اذهب إلى علي بن عيسى الوزير فقد أمرته لك بأربعمائة دينار، فلما أصبح الرجل قصد باب الوزير فلم يعرفه أحد ، فجلس لعل أحدًا يستأذن له على الوزير حتى طال عليه المجلس وهمَّ بالانصراف ، ثم إنه قال لبعض

الحجبة ، قل للوزير إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأنا أريد أن أقصه على الوزير ، فقال له الحاجب : وأنت صاحب الرؤيا إن الوزير قد أنفذ في طلبك رسلاً متعددة .

ثم دخل الحُجَّاب فأخبروا الوزير فقال : أدخلوه سريعاً ، فدخل عليه فأقبل عليه الوزير يستعلم عن حاله واسمه وصفته ومنزله ، فقال له الوزير: إني رأيت رسول الله ﷺ وهو يأمرني بإعطائك أربعمئة دينار ، فأصبحتُ لا أدري من أسأل عنك ، ولا أعرفك ولا أعرف أين أنت ، وقد أرسلت في طلبك إلى الآن عدة رسل فجزاك الله خيراً عن قصدك إياي .

ثم أمر الوزير بإحضار ألف دينار فقال : هذه أربعمئة دينار لأمر رسول الله ﷺ وستمئة هبة من عندي ، فقال الرجل : لا والله لا أزيد على ما أمرني به رسول الله ﷺ فإني أرجو الخير والبركة فيه ، ثم أخذ منها أربعمئة دينار ، فقال الوزير : هذا الصدق واليقين ، فخرج ومعه الأربعمئة دينار فعرض على أرباب الديون أموالهم فقالوا: نحن نصبر عليك ثلاث سنين وافتح بهذا الذهب دكانك ودم على كسبك ، فأبى إلا أن يعطيهم من أموالهم الثلث وفتح حانوته بالمائتي دينار الباقية ،

فلما حال عليه الحول حتى ربح ألف دينار^(١).

ففي هذا الخبر مثل من المعروف والإحسان الذي كان يتصف

به الوزير على بن عيسى بن الجراح .

وفيه مثل من رحمة الله جل وعلا بأوليائه المؤمنين الذي

يتضرعون إليه ويلجأون إليه وقت الشدائد ، ولا ينسون عبادته في

حال رخائهم ، فإن ما تم من تقدير الله تعالى هذه الرؤيا التي رآها هذا

الوزير والتي رآها صاحب الحاجة إنما هو أثر من آثار التوحيد

الخالص الذي كان يتصف به هذا العطار ، فإن القلوب كلها بيد الله

عز وجل يصرفها كيف يشاء .

وفيه مثل من القناعة وصدق اليقين ، حيث اكتفى ذلك العطار

بالأربعمائة التي أمره النبي ﷺ في المنام أن يأخذها من الوزير ورد بقية

الألف اعتماداً على أن البركة فيما نص عليه رسول الله ﷺ ، فبارك الله

تعالى له فيها ، وقضى منها دينه ، وكوّن له بها تجارة طيبة .

(١) البداية والنهاية ١١ / ٢٣١ - ٢٣٢ .

من أخبار عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي رحمه الله :

من أخبار السخاء عند العلماء ما ذكر الحافظ الضياء المقدسي عن الإمام الحافظ عبد الغني المقدسي : أنه كان سخياً جواداً لا يدخر ديناراً ولا درهما ، مهما حصّل أخرجه ، وقال : لقد سمعت عنه أنه كان يخرج في الليل بقفاف الدقيق إلى بيوت متنكرا في الظلمة ، فيعطيهم ولا يُعرف ، وكان يُفتح عليه بالثياب فيعطي الناس وثوبه مرّقع .

قال : وسمعت بدر بن محمد الجزري يقول : ما رأيت أحداً أكرم من الحافظ ، كنت أستدين ، يعني لأطعم الفقراء ، فبقي لرجل عندي ثمانية وتسعون درهما ، فلما تهيأ الوفاء أتيت الرجل فقلت : كم لك ؟ قال : ما لي عندك شيء ، قلت : من أوفاه قال : قد أوفى عنك ، فكان وفاه الحافظ وأمره أن يكتم عليه^(١) .

وهكذا قدم هذا الإمام الجليل نماذج عالية من السماحة والكرم،

(١) سير أعلام النبلاء ٤٥٧/٢١ .

وتفقد أحوال المحتاجين ، والوفاء عن المعسرين ، مع ما كان حريصًا
عليه من إخفاء عمله بعدًا عن الرياء وليكون أجره عند الله أعظم .

من مواقف العز بن عبد السلام رحمه الله^(١) :

قال الحافظ عبد الوهاب السبكي: وحكى قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة رحمه الله أن الشيخ (يعني العز بن عبد السلام) لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل ، فأعطته زوجته مصاغاً لها وقالت : اشتر لنا به بستاناً نصيِّف به ، فأخذ المصاغ وباعه وتصدق بثمانه ، فقالت : يا سيدي اشترت لنا؟ قال : نعم، بستانا في الجنة ،إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمانه ، فقالت: جزاك الله خيراً^(٢) .

وهكذا اشترى هذا العالم الرباني بستانا في الجنة بدلا من بستان في الدنيا ، وهذا يدل على اتصافه باليقين الراسخ حيث استحضر في الحال الحياة الآخرة ، ففضل تقديم العمل الصالح لها على متاع الدنيا الزائل ، وإذا كانت هذه المسارعة إلى الصدقة في مال زوجته فكيف

(١) هو أبو محمد عز الدين بن عبد السلام السلمي .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٥ / ٨٢ - ٨٣ .

الحال لو كان عنده مال خاص به ؟ وبمثل هذا العالم وتوجيهه الرشيد
تُحلُّ أزمات الأمة وتزول شدائدها .

ولقد كانت زوجته نعم المرأة الطائعة البارة حيث سعدت
بتصرفه ذلك في مالها ودعت له بالخير .

**توجيهات ومواقف
في
تقدير أهل الفضل**

لقد اقتدى الصحابة رضي الله عنهم برسول الله ﷺ في شكر أهل الفضل والثناء عليهم وتقديرهم، ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما أخرجه أبو عيسى الترمذي وأبو داود رحمهما الله من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قوما أبذل من كثير ، ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهني ، حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله ، فقال النبي ﷺ : لا، مادعوتهم الله لهم وأثنتم عليهم^(١) .

فهؤلاء المهاجرون يشعرون بفضل الأنصار عليهم رضي الله عنهم جميعا ، فيشكرونهم ويثنون عليهم أمام النبي ﷺ ، ومن شدة شعورهم بفضلهم عليهم خافوا أن يذهب الأنصار بالأجر كله ، ويبقوا هم بدون أجر ، وهذا يبين لنا اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بالثواب الأخروي ، فهم قد بذلوا ما في استطاعتهم من مساعدتهم

(١) سنن الترمذي ، رقم ٢٤٨٧ ، صفة القيامة (٤/٦٥٣) سنن أبي داود ، رقم ٤٨١٢ ، الأدب (٥/١٥٨) .

والثناء عليهم وشكرهم ، ولكنهم يخشون أنه مع ذلك ينقص أجرهم الأخرى ، فأبان لهم النبي ﷺ أن أجرهم لا ينقص ما قاموا بأمرين : الدعاء للمحسنين والثناء عليهم .

تقدير النبي ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

لقد كان رسول الله ﷺ قدوة هذه الأمة في مكارم الأخلاق ، ومما روي عنه في تقدير أهل الفضل قوله في أبي بكر الصديق رضي الله عنه « إن أمنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته » أخرجه الإمامان البخاري ومسلم ^(١) .

وقوله في عمر بن الخطاب رضي الله عنه « قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون ^(٢) فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم (٣٦٥٤) (١٢/٧) ، صحيح مسلم ،

فضائل الصحابة ، رقم ٢٣٨٣ (ص ١٨٥٥) .

(٢) أي ملهون يجري الصواب على ألسنتهم .

الخطاب منهم» أخرجه الإمامان البخاري ومسلم واللفظ لمسلم^(١) .
ولقد روي عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك أخبار كثيرة .
ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي الدرداء
رضي الله عنه قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً
بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته ، فقال النبي ﷺ أما صاحبكم فقد
غامر^(٢) ، فسلم وقال : يا رسول الله إني كان بيني وبين ابن الخطاب
شيء فأسرعت إليه ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي فأبى علي فأقبلت
إليك ، قال : يغفر الله لك يا أبا بكر (ثلاثاً) ، ثم إن عمر ندم فأتى
منزل أبي بكر فسأل : أثمَّ أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى إلى النبي ﷺ
فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر^(٣) ، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه
فقال : يا رسول الله والله أنا كنت أظلم (مرتين) ، فقال النبي ﷺ : إن

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٨٩ (٧/٤٢) ، صحيح مسلم ،

فضائل الصحابة ، رقم ٢٣٩٨ (ص ١٨٦٤) .

(٢) أي دخل في غمرة الخصومة .

(٣) أي يتغير ويتلون من الغضب .

الله بعثني إليكم فقلتم : كذبتَ وقال أبو بكر : صدقتَ ، وواساني
بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركولي صاحبي ؟ (مرتين) ، فما أُذني
بعدها^(١) .

وهذا الإعلان من النبي ﷺ لفضل أبي بكر رضي الله عنه مع
اعترافه بالخطأ دليل على اهتمام النبي ﷺ بتميز أهل الفضل والإشادة
بهم ليكونوا أعلام هداية في القدوة الحسنة ، فإن الأمة تقاد برجالها
الذين يحملون مبادئها ، وليست تقاد بمجرد المبادئ ، ولهذا وغيره من
المقاصد العالية ركز النبي ﷺ في الشناء على أناس معدودين من
الصحابة على رأسهم أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما .
وثمت أمر آخر في غاية الأهمية نلاحظه في هذا الخبر ولا بد من
الإشارة إليه إنصافاً لذلك الجيل الراشد واعترافاً بمدى السمو
الأخلاقي الذي بلغوه ، وذلك في الوضوح والصراحة ، ثم العفو
والتسامح .

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٦١ (٧/١٨) .

إن الأخوة التي بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم تنقص بهذا الخلاف والمغاضبة ، بل زادت قوة ومتانة بما يتبعها من العفو والتسامح ، بينما نجد أبناء الدنيا على غير هذه الشاكلة .. تحامل في القلوب ، وأحقاد وضغائن في الخفاء ، ومداراة وبشاشة في العلانية ، وظهور بوجه أمام بعض الناس وبوجه آخر أمام الآخرين ممن يخالفون الصنف الأول في المعتقد والرأي ، يحاولون بذلك كسب رضى الناس جميعا عنهم ، ولو كانوا متباينين في العقيدة التي يترتب عليها الحب والبغض أو يحاولون الكسب الدنيوي من وراء أعمالهم هذه ، وهؤلاء هم الذين عناهم النبي ﷺ بقوله « تجد من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » أخرجہ الإمامان البخاري ومسلم^(١) .

ومن ذلك قوله ﷺ لعمر « والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » .

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٠٥٨ ، الأدب (٤٧٤ / ١٠) ، صحيح مسلم ، كتاب البر ، رقم ٩٨ .

أخرجه الإمام مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله

عنه^(١) .

فما أعظمك يا عمر ! حيث كنت ترهب الشيطان وتلجئه إلى
تغيير طريقه خوفاً منك ، ولكن بأي شيء أخاف عمر الشيطان ؟
واضح أن ذلك بقوة إيمانه بالله تعالى وعظمة حضوره في قلبه ؛ حيث
لا يتمثل أمامه أي قوة مخيفة إلا قوة الله تعالى ، فابتعد الشيطان عن
طريقه لأنه ليس عنده أي أمل في التأثير عليه .

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن مردويه من حديث عبد الله بن
عباس رضي الله عنهما قال: قام رجل إلى أبي بكر الصديق رضي الله
عنه بعد رسول الله ﷺ فقال : يا خليفة رسول الله من خير الناس؟
قال: عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : ولأي شيء قدمته على
نفسك ؟ قال: بخصال ، لأن الله تعالى باهى به الملائكة ولم يباه بي ،

(١) صحيح مسلم ، رقم ٢٣٩٦ ، فضائل الصحابة / ٢ (ص ١٨٦٣) .

ولأن جبريل أقرأه السلام ولم يقرئني ، ولأن جبريل قال : يارسول الله
اشدد الإسلام بقول عمر ، القول ما قال عمر ، ولأن الله صدقه في
آيتين من كتابه ولم يصدقني ، قال : عاتب النبي ﷺ بعض نساءه
فأتاهم عمر فقال : لتنتهن عن رسول الله ﷺ أو ليُنزلن الله فيكن كتاباً
فأنزل الله تعالى ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُٖٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُٗٓ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ ﴾ الآية
[التحريم : ٥] ، ولأن عمر قال : يارسول الله إنه يدخل عليهن البر
والفاجر فلو ضربت عليهن الحجاب ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِذَا
سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ، ولأن
عمر قال: يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله
تعالى ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] .
قال : فلما قبض أبو بكر قام رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله
عنه فقال : يا أمير المؤمنين من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ قال :
أبو بكر الصديق ، فمن قال غيره فعليه ما على المفتري^(١) .

(١) كنز العمال ١٥/٢-٣ .

ففي هذا الخبر بيان اتصاف أبي بكر الصديق بصفتي التواضع والإيثار ، فعلى الرغم مما استقر في أذهان الصحابة رضي الله عنهم من أن أبا بكر هو أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ فإن أبا بكر يفضل عمر عليه رضي الله عنهما ، ويذكر شيئاً من فضائله التي تميز بها .
ونجد عمر من شدة حماسه لتفضيل أبي بكر على جميع أفراد الأمة بعد رسول الله ﷺ يهدد من فضله عليه بالجلد ثمانين جلدة وهو حد المفترى .

إن هذا الخبر وأمثاله يبين لنا شيئاً من الصفات التي تفوق بها الصحابة رضي الله عنهم ، من الإيثار، والتواضع وتقدير أهل الفضل .
ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ ابن الأثير من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: وفد ناس من أهل الكوفة وناس من أهل البصرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : فلما نزلوا المدينة تحدث القوم بينهم إلى أن ذكروا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، ففضل بعض القوم أبا بكر على عمر ، وفضل بعض القوم عمر على أبي بكر ، وكان الجارود بن المعلّى ممن فضل أبا بكر على عمر ، فجاء عمر ومعه دِرَّةٌ

[أي عصا] فأقبل على الذين فضلوه على أبي بكر فجعل يضربهم بالدرّة، حتى ما يتقى أحدهم إلا برجله ، فقال له الجارود : أفقُ أفقُ يا أمير المؤمنين فإن الله عز وجل لم يكن ليرانا نفضلك على أبي بكر ، أبو بكر أفضل منك في كذا وأفضل منك في كذا ، فسُرِّيَ عن عمر، ثم انصرف فلما كان من العشي صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ، فمن قال غير ذلك بعد مقامي هذا فهو مفتر عليه ما على المفترى^(١) .

وهكذا رأينا موقفا جليلا من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث غضب غضبا شديدا على من فضلوه على أبي بكر رضي الله عنه ، وقد حمّله ذلك على القيام بتأديبهم وهو في حال من التأثير الشديد من مقالاتهم ، وإنه حينما يقوم بذلك العمل لا يقوم به تمثيلا ولا تظاهرا بالتواضع .

إنه عاصف يعصر قلبه أن سمع من يفضله على أبي بكر ،

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ٢١٥-٢١٦ .

فظهرت آثار هذا العاصف المشاهدةً للناس بصورة التأديب التي قام
بها .

ولئن شاهد الناس منه شيئاً من مظاهر إجلاله لأبي بكر فإن
ما يُكِنُّ قلبه أبلغ من ذلك بكثير ، ولا أدل على ذلك من ظهور السرور
على وجهه حينما بين له المعلّى فضل أبي بكر عليه .

« أفق أفق يا أمير المؤمنين » كلمات شديدة قالها المعلّى لعمر ، فهل
كان عمر في غيبوبة !! الحقيقة أنه كان في حال من الغضب الشديد
الذي هيمن على مشاعره فعبر عنه بذلك التأديب الذي قام به ، ولقد
كان المعلّى بحاجة إلى هذا التعبير لأنه هو السلوك المناسب لرفع حالة
الغضب الشديد الذي هيَّج أمير المؤمنين عمر ، فهي كلمات تنبيه
قوية ليصغي عمر لما سيقوله له من بيان فضل أبي بكر عليه ، فلما سمع
عمر ذلك البيان زال غضبه واطمأنت نفسه ، فأين طلاب الدنيا
الذين يتسابقون على بناء أمجادهم الشخصية لسمعوا هذه الروائع
العظيمة من حياة الصحابة رضي الله عنهم !!

ومن ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أبي هريرة رضي الله

عنه قال قال عمر بن الخطاب : عليُّ أفضانا .

وأخرج من خبر سعيد بن المسيب قال: كان عمر يتعوذ بالله من

معضلة ليس لها أبو حسن^(١) .

وهكذا يقدر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل

الفضل ، ويظهر كفاءة الأكفاء فيما تميزوا به ، فلما كان أبو الحسن علي

بن أبي طالب رضي الله عنه متفوقا في العلم بالأمر الدقيقة ، وحل

المشكلات العويصة أشاد به عمر ، وكان يبحث عنه إذا نزل به شيء

من ذلك ، ويشفق من فقدته لعدم وجود من يسد مسده في ذلك .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث ثعلبة بن أبي

مالك : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم مروطا بين نساء أهل

المدينة ، فبقى مرط جيد ، فقال بعض مَنْ عنده : يا أمير المؤمنين أعط

هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت علي - فقال

عمر : أم سليط أحق - وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول

(١) طبقات ابن سعد ٢ / ٣٣٩ .

الله ﷺ - قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد^(١).

ففي هذا الخبر حفظ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حق أم سليط بنت عبيد بن زياد المازنية الأنصارية رضي الله عنها ، وقدّر لها موقفها مع المؤمنين المجاهدين يوم أحد ، ففضّلها بذلك الثوب المتميز ، وكونُ عمر يذكر هذا الموقف بعد سنوات من زمانه دليل على اهتمامه بما يقدمه المسلمون من أعمال البر والإحسان ، وخاصة فيما يتعلق بالجهاد ، وهذا أسلوب تربوي بناء ، فإن صاحب المعروف إذا قدّر له المسلمون أعماله يزداد حماسا وإقداما على المزيد من البذل والإحسان، ويسارع الآخرون في التنافس على أعمال الخير ، وإن كان الهدف الأساسي هو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة ، ولكن ثناء المؤمنين من عاجل بشرى المؤمن في هذه الحياة الدنيا.

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر أفلح مولى أبي أيوب قال: كان عمر رضي الله عنه يأمر بحلّل تُنسج لأهل

(١) صحيح البخاري ، رقم ٢٨٨١ ، الجهاد (٦/٧٩) وقوله " تزفر " يعني تحمل .

بدر يُتَنَوَّقُ^(١) فيها، فبعث إلى معاذ ابن عفراء رضي الله عنه الحلة فقال لي معاذ: يا أفلح بع لي هذه الحلة، فبعتها له بألف وخمسمائة، ثم قال: اذهب فابتع لي رقابا، فاشتريت له خمس رقاب، ثم قال: والله إن امرءاً اختار قشرتين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لَغَيِّنَ الرَّأْيِ^(٢) اذهبوا فأنتم أحرار .

فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه أنه لا يلبس ما يبعث به إليه، فاتخذ له حلة غليظة أنفق عليها مائة درهم، فلما أتاه بها الرسول قال: ما أراه بعثك إليّ! قال: بل والله إليك بعثني، فأخذ الحلة فأتى بها عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين بعثت إلي بهذه الحلة؟ قال: نعم، إنا كنا نبعث إليك حلة مما يتخذ لك ولإخوانك فبلغني أنك لا تلبسها، فقال: يا أمير المؤمنين إني وإن كنت لا ألبسها فإني أحب أن تأتيني من صالح ما عندك، فأعاد له حلته^(٣) .

(١) أي يتأنق بها ويتجمل .

(٢) أي ضعيف الرأي .

(٣) تاريخ المدينة المنورة / ٧٨١ - ٧٨٢ .

فهذا الخبر فيه موقفان :

الأول : تقدير أهل الفضل ، حيث اختص أمير المؤمنين أهل بدر بمزيد من التقدير والعناية ، وتقدير أهل الفضل يُعدُّ نوعاً من الشكر على الجميل والإحسان، يناله صاحب الفضل في الدنيا، إلى جانب ما يدخره الله تعالى له في الآخرة، وهو الأمر الأهم، كما أنه يُعدُّ تشجيعاً للمسلمين على المزيد من تقديم الأعمال الصالحة التي ينتفع بها المسلمون ويترتب عليها عز الإسلام ودولته .

الثاني : موقف جليل من معاذ ابن عفراء رضي الله عنه في الزهد في الدنيا، وإيثار العمل الصالح الذي يرجو ثوابه في الآخرة، ولقد قارن بين ثوبين يلبسهما وعملٍ صالحٍ يتمثل في عتق خمسة ممالك، فحكم على من يقدم الثوبين بأنه ضعيف الرأي، وهذا يدل على ضآلة الدنيا وضخامة الآخرة في عينه، فلهذا أقدم على ذلك العمل الصالح .
ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال :
«خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق، فلحقتُ عمرَ امرأةً شابةً فقالت: يا أمير المؤمنين ، هلك زوجي وترك صببيةً صغاراً

والله ما ينضجون كراعاً ولا لهم زرع ولا ضرع^(١) وخشيت أن تأكلهم الضبع^(٢)، وأنا بنت خفاف بن أياء الغفاري وقد شهد أبي الحديدية مع النبي ﷺ. فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير^(٣) كان مربوطاً في الدار فحمل عليه غرارتين ملاًهما طعاماً وحمل بينهما نفقة وثياباً، ثمناولها خطامه ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصراً حصناً زماناً فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفيء سهراننا فيه^(٤).

فهذا موقف لأمر المؤمنين عمر في تقدير أهل السابقة والفضل، فقد اهتم بتلك المرأة تقديراً لأبيها خفاف بن أياء الغفاري رضي الله عنه، وفي ذكر كونه من أهل الحديدية بيان لما استقر في الأذهان من

(١) أي ليس عندهم ما يكفي لحاجتهم، وليس لهم مورد من زراعة ولا ماشية.

(٢) أي السنة المجذبة.

(٣) أي قوي الظهر معد للحاجة.

(٤) صحيح البخاري، رقم ٤١٦٠، المغازي (٧/٤٤٥).

تقدير الذين حضروا بيعة الرضوان يوم الحديبية لأن الله تعالى قد رضي عنهم كما جاء في قوله سبحانه ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ...﴾ الآية [الفتح : ١٨] .

وفي قول عمر : « والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنا زمانا فافتتحاه» إشادة بالمجاهدين في سبيل الله تعالى وما لهم من فضل في حماية الأمة وتوسيع مصادر تمويلها .

وفي هذا الخبر تتكشف لنا بعض نواحي عظمة عمر رضي الله عنه، ومنها رحمته بالضعفاء ولينه لهم في حدود الحق، والعظاء هم الذين يتحسسون آلام الضعفاء فيقفون لمواساتهم .

ونجد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ينكر بشدة على رجل رد على ابن مسعود لما أمره بالالتزام بحكم شرعي وذلك فيما ذكر الإمام الذهبي من حديث أبي وائل أن ابن مسعود رأى رجلا قد أسبل، فقال: ارفع إزارك ، فقال: وأنت يا ابن مسعود فارفع إزارك ، قال: إنَّ

بِسَاقِيَّ حَمُوشَةً^(١) وأنا أؤم الناس فبلغ ذلك عمر، فجعل يضرب
الرجل ويقول: أتردُّ على ابن مسعود؟^(٢).

وفي هذا اهتمام كبير من عمر رضي الله عنه في حفظ مكانة علماء
الأمة ، ولا يمكن أن تستقيم أحوال المجتمع إلا بحفظ كرامة العلماء
الربانيين لأنهم قادة الأمة وموجهوها ، فإذا تجرأ عامة الأمة عليهم
انقطع خيط المهابة الذي يفرض وجود علاقة قوية بين العلماء وسائر
أفراد الأمة .

ونجد عمر بن الخطاب يقدر فضل ابن مسعود رضي الله عنهما
في حفظ القرآن، ومما يبين ذلك ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى
من حديث قيس بن مروان رحمه الله تعالى : أنه أتى عمرَ بن الخطاب
رضي الله عنه فقال : جئتُ يا أمير المؤمنين من الكوفة وتركت بها
رجلاً يُملي المصاحف عن ظهر قلبه، فغضب وانتفخ حتى كاد يملأ

(١) يعني أنه كان دقيق الساقين .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩١ - ٤٩٢ .

ما بين شعبي الرَّحْل ، فقال: ومن هو ويحك؟ قال: عبد الله بن مسعود ، فما زال يطفأ وَيُسْرَى عنه الغضب حتى عاد إلى حاله التي كان عليها ، ثم قال : ويحك والله ما أعلمه بقي من الناس أحد هو أحق بذلك منه، وسأحدثك عن ذلك، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يسمر عند أبي بكر رضي الله عنه الليلة كذلك في الأمر من أمر المسلمين، وإنه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجنا معه فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع قراءته، فلما كدنا أن نعرفه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»، قال: ثم جلس الرجل يدعو فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: «سَلْ تُعْطَهُ، سل تعطه»، قال عمر رضي الله عنه: قلت: والله لأغدونَّ إليه فلا بشرنَّه، قال: فغدوت إليه لأبشره فوجدت أبا بكر رضي الله عنه قد

سبقني إليه فبشره، ولا والله ما سابقته إلى خير قط إلا وسبقني إليه^(١) .
هذا وإذا قارنا بين فرع عمر حينما طرق مسامعه خبر من يملي
المصاحف من قلبه، وبين سكيتته ورضاه حين علم أن المعنيّ بذلك
هو عبد الله بن مسعود، يتبين لنا سمو منزلة ابن مسعود العلمية بين
الصحابة رضي الله عنهم .

ثم إذا رأينا ثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليه أمام كبار
الصحابة، ثم تذكر عمر لهذا الثناء، وروايته إياه ندرك مدى اهتمامهم
بتقدير أهل الفضل، وحفظ منزلتهم، والإشادة بها في المجتمع .

ومن ذلك ما ذكره الخطيب البغدادي بإسناده عن عدي بن حاتم
الطائي رضي الله عنه: أنه أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أناس
من طيء- أو قال من قومه- فجعل يفرض للرجال من طيء في ألفين
ألفين، قال: فاستقبلته فأعرض عني، فقلت: يا أمير المؤمنين أما تعرفني؟
قال: بلى إني والله لأعرفك، أسلمت إذ كفرُوا، وأقبلت إذ أدبرُوا،

(١) مسند أحمد ١/٢٥-٢٦ .

ووفيت إذ غدروا، وإن أول صدقة بيّضت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوه أصحابه صدقة طيء، جئت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) .

وهكذا ذكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضل عدي بن حاتم وسابقته في الإسلام رضي الله عنه بعد مرور سنين على موافقه المشرفة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ويوم أن ارتدت أو تمرت أكثر قبائل العرب بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، حيث حمل عدي قومه على طاعة أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فلم ينس له عمر هذا الفضل بل أثنى عليه علانية بما يستحق من التكريم والشكر ، وهكذا ينبغي لكل مسؤول أن يكون خبيراً بفضل أهل الفضل وأن يثني عليهم في الوقت المناسب .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : « كان عمر يقول: أبو بكر سيدنا، وأعتق

(١) تاريخ بغداد ١/ ١٩٠ .

سيدنا، يعني بلالا»^(١) .

فأما كون أبي بكر سيدهم فهذا معروف بأنه سيد المسلمين، ولكن الشيء الطريف والرائع أن يصف عمر بلالاً بأنه سيد المسلمين وهو قد كان مملوكاً فأعتقه أبو بكر ، فهذا تواضع كبير من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه واعتراف منه بفضل بلال في الدين ، وهذا من عظمة الإسلام؛ حيث يرتفع الذين كانوا مملوكين بإيمانهم وتقواهم ليكونوا سادة عظماء الأحرار ، وبهذه الصورة المشرقة لتطبيق المسلمين للإسلام ارتفع الذين كانوا موثلاً المهانة والذلة ليكونوا من عظماء الرجال وسادة المسلمين ، فأصبحوا يحملون أفكاراً سامية ، وينطلقون في سلوكهم من معنويات قوية ، فبذلك بذلوا طاقتهم العالية في خدمة هذا الدين والدفاع عنه .

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٧٥٤، فضائل الصحابة / ٢٣ / (٧ / ٩٩) .

من مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

من ذلك اعترافه بفضل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه مع ما سبق بينهما من خلاف، وقد أخرج الخبر في ذلك الإمام الطبري من حديث أبي حبيبة مولى طلحة قال: دخل عمران بن طلحة على عليّ بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَيَّ سُرُرٍ مُّنتَقِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧] ورجلان جالسان على ناحية البساط فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانًا؟ فقال علي: قوماً أبعد أرضٍ وأسحقها، فمن هم إذن إذا لم أكن أنا وطلحة^(١) .

فقد بين علي فضل طلحة رضي الله عنهما، وإنما يُعرف فضل الإنسان بما يقدّم من عمل يُرجى به حسن العُقْبَى في الآخرة، فهما أخوان تتلمذا في مدرسة النبوة ، ولئن كان باعد بينهما اجتهادهما في آخر حياتهما حيث اختلف رأيهما في تطبيق الإسلام فإن أُخُوَّتَهُمَا

(١) تفسير الطبري ٣٧/١٤ .

الإيمانية باقية راسخة مادامت قلوبهما تسير نحو هدف واحد هو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة .

ولقد استبعد اثنان من الجاهلين أن يتقابل المسلمون في ميدان القتال ثم يكون مصيرهم في الآخرة إلى الجنة فزجرهما علي رضي الله عنه لكون الزجر أجدى في مقام الجدل المبني على اتباع الهوى، ومن أجل ذلك لم يورد خبر شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لطلحة بالجنة مع وضوحه لكون الرجلين المعترضين يعلمان ذلك ، ولكنها من أهل الأهواء المنحرفة .

وفي موقف علي رضي الله عنه هذا درس للمسلمين في حفظ حقوق إخوانهم، فالخلاف الشديد الذي دار بينه وبين إخوانه لا يعني تغير قلوبهم، بل كل واحد منهم يرى للآخر فضله وإن خالفه في الاجتهاد .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أبي السفر قال: رُئيَ على علي - رضي الله عنه - بُردٌ كان يكثر لبسه، ف قيل له: يا أمير المؤمنين إنك تكثر لبس هذا البرد ! قال: إنه كسانيه خليلي وصفيي

وصديقي وخاصتي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، إنه عمر
ناصرَ الله فنصحهُ الله تعالى ، ثم بكى ^(١) .

نعم ، بكى رضي الله عنه من شدة تأثره لما ذكر خليله عمرَ رضي
الله عنه الذي اكتسب محبة معاصريه بعدله وحكمته وتواضعه وزهده
في الدنيا ، وسائر صفاته الحميدة .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أبي جحيفة
قال: دخلت على علي - رضي الله عنه - فقلت ياخير الناس بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: فقال: مهلا ياأبا جحيفة، أو لا
أخبرك بخير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر
وعمر ، ويحك ياأبا جحيفة لايجتمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في
قلب مؤمن، ويحك ياأبا جحيفة لايجتمع بغضي وحب أبي بكر وعمر
في قلب مؤمن ^(٢) .

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٣٦٣ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/٢٠١ ، وانظر كنز العمال ١٥/١٦ .

ففي هذا الخبر يبين علي رضي الله عنه فضل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على سائر الناس بعد رسول الله ﷺ ، ويبين أن حبه ملازم لحبيهما، وأن من أبغضهما فقد أبغضه، ومن أبغضه فقد أبغضهما، ذلك لأنهم إخوة في الله متحابون، ويسر كل واحد منهما ما يسر صاحبيه ويسوؤه ما يسوؤهما .

ومن ذلك ما أخرجه اللالكائي والشيرازي وأبو الحسن البغدادي وابن منده وابن عساكر من خبر سويد بن غفلة قال: مررت بقوم يذكرون أبا بكر وعمر ويتتقصونها ، فأتيت عليا فذكرت له ذلك فقال لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل، أخوا رسول الله ﷺ ووزيراه .

قال: ثم صعد المنبر فخطب خطبة بليغة فقال: ما بال أقوام يذكرون سيدي قريش وأبوي المسلمين بما أنا عنه متنزه ومما يقولون بريء وعلى ما يقولون معاقب، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لا يحبها إلا مؤمن تقي ولا يبغضها إلا فاجر ردي ، صحبا رسول الله ﷺ بالصدق والوفاء ، يأمران وينهيان ويعاقبان ، فما يجاوزان فيما

يصنعان رأي رسول الله ﷺ، ولا يرى رسول الله ﷺ كرايها رأيا، ولا يجب كحبها حبا، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهما راض، والناس راضون، وولى أبا بكر الصلاة، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم وواه المسلمون ذلك، وفوضوا إليه الزكاة لأنهما مقرونتان، وكنت أول من لبى له من بني عبد المطلب وهو لذلك كاره، يود أن بعضنا كفاه فكان والله خير من بقي، أرأفه رأفة، وأرحمه رحمة، وأكيسه ورعا، وأقدمه إسلاما، شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم بميكائيل رأفة ورحمة، وبإبراهيم عفوا ووقارا، فسار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبض رحمة الله عليه.

قال: ثم ولى الأمر من بعده عمر بن الخطاب، واستأمر في ذلك الناس، فمنهم من رضي ومنهم من كره، فكنت ممن رضي، فو الله ما فارق عمر الدنيا حتى رضي من كان له كارها، فأقام الأمر على منهج النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه، يتبع آثارهما كما يتبع الفصيل أثر أمه، وكان والله خير من بقي، رفيقا رحيفا، وناصر المظلوم على الظالم، ثم ضرب الله بالحق على لسانه حتى رأينا أن ملكا ينطق

على لسانه، وأعز الله بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدين قواما،
وقذف في قلوب المؤمنين الحب له، وفي قلوب المنافقين الرهبة منه،
شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبريل فظا غليظا على الأعداء،
وبنوح حَنِقًا ومغتاظًا على الكافرين، فمن لكم بمثلهما؟ لا يُبَلِّغُ مبلغها
إلا بالحب لهما، واتباع آثارهما، فمن أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما
فقد أبغضني وأنا منه بريء ، ولو كنت تقدّمتُ في أمرهما^(١) لعاقبت
أشد العقوبة، فمن أُتيت به بعد مقامي هذا فعليه ما على المفترى، ألا
وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، ثم الله أعلم بالخير أين
هو، أقول قولي هذا ويغفر الله لي ولكم^(٢) .

فهذه خطبة بليغة بين فيها علي بن أبي طالب أفضلية الشيخين أبي
بكر وعمر رضي الله عنهم، وذكر شيئا من فضائلهما، وهذا موقف
يذكر له في الوقت الذي غالى في حبه وتفضيله بعض التابعين، فقال

(١) يعني لو كنت أنذرت مَنْ فعل ذلك .

(٢) كنز العمال ١٦/٥ - ١٨ ، تاريخ دمشق ٤٤/٣٦٦ .

كلاماً فصلاً في هذا الموضوع ووضع الأمور في نصابها .
ومن ذلك ما أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى من حديث
عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : «وضع عمر بن الخطاب على
سريره فتكفّفه الناس^(١) يدعون له ويشنون ويصلون عليه قبل أن يُرفع
وأنا فيهم ، قال : فلم يرُعني^(٢) إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي ،
فالتفتُ إليه فإذا هو عليّ ، فترحم على عمر وقال : ما خلّفت أحداً
أحبّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وإيم الله إن كنت لأظن أن
يجعلك الله مع صاحبك ، وحسبت أني كثيراً أسمع رسول الله ﷺ
يقول : جئت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ،
وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، فإن كنت لأرجو - أو قال لأظن - أن
يجعلك الله معهما^(٣) يعني في القبور .

(١) يعني أحاطوا به وذلك بعد وفاته .

(٢) يعني لم أفاجأ .

(٣) صحيح البخاري ، رقم ٣٦٨٥ ، فضائل الصحابة باب ٦ (٧ / ٤١) ، صحيح

مسلم ، رقم ٢٣٨٩ ، فضائل الصحابة / ٢ (ص ١٨٥٨) .

فهذا ثناء بالغ من علي بن أبي طالب على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما واعتراف منه بفضله الديني ، وبيان منه بأنه جدير بأن يُدفن بجوار صاحبيه رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه ، لأنه يأتي في المنزلة الدينية بعد أبي بكر ، وفي هذا ردُّ بليغ على الذين غلّوا في تولي علي بن أبي طالب وفضلوه على أبي بكر وعمر ، كما أن فيه بياناً منه بأن من يريد أن يتولاه فإن عليه أن يتولى أبا بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث سويد بن غفلة قال قال علي : يا أيها الناس إياكم والغلو في عثمان ؛ تقولون : حرق المصاحف ، والله ما حرقها إلا على ملاء من أصحاب محمد ﷺ ، ولو وليت مثل ما ولي لفعلت مثل الذي فعل .

وأخرج أيضاً من حديث سويد بن غفلة عن علي قال : اختلف الناس في القرآن على عهد عثمان ، قال : فجعل الرجل يقول للرجل : قراءتي خير من قراءتك ، قال : فبلغ ذلك عثمان فجمعنا أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إن الناس قد اختلفوا اليوم في القراءة وأنتم بين

ظهرا نبيهم ، فقد رأيت أن أجمعهم على قراءة واحدة ، قال: فأجمع رأينا مع رأيه على ذلك، قال: وقال علي: لو وليت مثل الذي ولي لصنعت مثل الذي صنع .

وأخرج أيضا من حديث كليب الجرمي قال : كنا مع علي فالتفت إلى محمد بن حاطب فدعاه فتحول إليه فقال: إن قومي إذا أتيتهم يقولون : ما قول صاحبك في عثمان ؟ فسبّه الذين حوله ، فرأيت جبين علي يرشح كراهية لما يحيؤون به ، فقال محمد بن حاطب: كفوا ، فو الله ما إياكم أسأل، فقال علي: أخبرهم أن قولي في عثمان أحسن القول ، إن عثمان كان من الذين اتَّقَوْا ﴿ وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ [المائدة: ٩٣] .

وفي هذه الأخبار بيان اهتمام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ببيان فضل أهل الفضل والعدل في الحكم عليهم ، فلما كان الناس في عهده قد غلوا في انتقاد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وجعلوا بعض فضائله مثالب ونقائص بين أن ما قام به من حرق بعض المصاحف وجمع الناس على قراءة واحدة يُعدُّ من مناقبه لا من مثالبه ، وأن ما قام

به من ذلك كان إجماعاً من الصحابة رضي الله عنهم وأنه لو كان هو الوالي في ذلك الوقت لفعل مثل فعله ، وبهذا الكلام النيّر والحكم العادل أسكت أولئك الساعين في الفتنة الطاعنين في عثمان رضي الله عنه .

وفي هذه الأخبار دلالة واضحة على اهتمام الصحابة رضي الله عنهم باتفاق كلمة المسلمين والقضاء على أسباب الخلاف بينهم ، فقد أقدموا على فعل هذا الأمر الكبير وهو حرق المصاحف من أجل ذلك الهدف السامي .

من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

أخرج أبو بكر الخطيب البغدادي من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال: لما كان من بعض همج الناس ماكان^(١) جعل رجل يسأل عن أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ ، فجعل لايسأل أحدا إلا دله على سعد بن مالك ، قال فقليل له : إن سعدا رجل إذا أنت رفقت

(١) يعني في الفتنة التي قتل فيها عثمان رضي الله عنه .

به كنت قَمِينًا أن تصيب منه حاجتك، وإن أنت خرقت به كنت قَمِينًا أن لا تصيب منه شيئًا، فجلس أياما لا يسأله عن شيء حتى استأنس به وعرف مجلسه، ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ الآية [البقرة: ١٥٩] قال فقال سعد : هات ما قلت: لاجرم والذي نفس سعد بيده لا تسألني عن شيء أعلمه إلا أنبأتك به، قال: أخبرني عن عثمان، قال: كنا إذ نحن جميع مع رسول الله ﷺ كان أحسننا وضوءًا ، وأطولنا صلاة وأعظمنا نفقة في سبيل الله تعالى^(١) .

فهذا مثل من حفظ الصحابة رضي الله عنهم حقوق إخوانهم بعد موتهم، فقد اختلف الناس من التابعين في شأن عثمان بن عفان رضي الله عنه فكثر القدح فيه ممن لم يعاصروه إلا في خلافته أو بعدها، فركزوا على مارأوه مثالب، وغضوا الطرف عن فضائله الجمّة

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٤٤٧ .

ومناقبه الحميدة، وكان بعضهم يأتي إلى من بقي من كبار الصحابة
فيسأله عن عثمان، ربما للتثبت في أمره، وربما لمحاولة الحصول على نقد
من صحابي كبير، ليطير به في الآفاق، ويعمر به قلوب أصحاب
الفتن، لكن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ليس ممن يغط
أصحاب الحقوق فضلهم، وليس ممن تُعمر به مجالس الفتن، بل هو
خريج المدرسة النبوية التي يحافظ أفرادها على أعراض المسلمين أكثر
مما يحافظون على أموالهم وجاههم، فكان منه هذا الجواب السديد
الذي يُعدُّ حجرا في حلوق الراتعين في الفتن الشاغلي أوقاتهم
وجهودهم في تلمس العيوب والنقائص لأعلام المسلمين الذين بهم
انتشر الإسلام وبهم استقرت دولته .

من مواقف كعب بن مالك رضي الله عنه :

أخرج الإمام أبو داود من حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك
وكان قائد أبيه بعدما ذهب بصره عن أبيه كعب بن مالك أنه كان إذا
سمع النداء يوم الجمعة ترحَّم لأسعد بن زرارة قال: فقلت له : إذا
سمعت النداء يوم الجمعة ترحَّمت لأسعد بن زرارة ، قال: لأنه أول

من جَمَعَ بنا في هَزْمِ النَّبِيِّ^(١) من حرة بني بياضة في نقيع يقال له نقيع الخَضَمَات ، قلت : كم أنتم يومئذ؟ قال : أربعون^(٢) .

هذا وإن تذكُر كعب بن مالك لفضل أبي أمامة أسعد بن زرارة رضي الله عنهما بعد ذلك العهد الطويل دليل على صدق الوفاء، والقيام بحق الشكر على الجميل، ولقد كانت مبادرة أبي أمامة في تطبيق شعائر الإسلام في مجتمع لم يألفها شجاعة عالية تَنَمُّ عن إيمان راسخ ووعي تام بأهداف الإسلام العليا، فلهذا استحق من كعب بن مالك هذا الدعاء الذي واطب عليه سنوات عديدة وكان مظهرًا من مظاهر الشكر والثناء .

فالذين يبادرون إلى إقرار سنن الإسلام وتطبيقها في مجتمع لا يقبلها ابتداءً لهم أجر عظيم، كما جاء في قول رسول الله ﷺ « من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها،

(١) يعني في مكان بني النبي، والهزم المكان المنخفض .

(٢) سنن أبي داود / كتاب الصلاة، باب الجمعة في القرى، حديث رقم ١٠٦٩ .

ولا ينقص من أجورهم شيء»^(١) .

هذا وإن بروز هذا المشهد في ذهن كعب بن مالك مع هذا العمر
المديد دليل على تمكن هذا الخلق الرفيع من نفسه، وهو مثل صادق
على عظمة النبي ﷺ ونجاحه الكبير في تربية ذلكم الجيل الراشد .

من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه :

هناك موقف كريم لأبي الدرداء رضي الله عنه أشاد فيه بفضل
بعض علماء الصحابة، وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري من حديث
علقمة قال: قدمت الشام فصليت ركعتين، ثم قلت اللهم يسّر لي
جليسا صالحا، فأتيت قوما فجلست إليهم، فإذا شيخ قد جاء حتى
جلس إلى جنبي، قلت: من هذا؟ قالوا: أبو الدرداء، فقلت: إني دعوت
الله أن يسر لي جليسا صالحا فيسرك لي، قال: من أنت؟ قلت: من أهل
الكوفة، قال: أوليس عندكم ابن أم عبد صاحب التعلين والوساد
والمطهرة؟ أفياكم الذي أجاره الله من الشيطان، يعني على لسان نبيه

(١) صحيح مسلم، رقم ١٠١٧، العلم ١٥/٢٠٥٩).

ﷺ؟ أوليس فيكم صاحب سر النبي ﷺ الذي لا يعلم أحد غيره؟^(١) .
وقوله « أليس فيكم ابن أم عبد » يعني عبد الله بن مسعود رضي
الله عنه ووصفه المذكور في الخبر كناية عن قربه من النبي ﷺ وقيامه
بخدمته وذلك يعني كثرة تحصيله العلمي منه، وقوله ﷺ أفياكم الذي
أجاره الله من الشيطان؟ يعني عمار بن ياسر رضي الله عنه، وصاحب
السر هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لأن رسول الله ﷺ أسر إليه
بأسماء المنافقين .

وهكذا يعرف الصحابة رضي الله عنهم فضل إخوانهم فيثنون
عليهم أمام المسلمين بذكر مناقبهم ، وهذه سنة حسنة ينبغي أن تنتشر
بين العلماء ، وذلك بأن يحاول العالم تثبيت مكانة العلماء الآخرين في
بلادهم عن طريق نشر فضائلهم في قومهم ليعودوا لعلمائهم وهم
يحملون عنهم سمعة حسنة ، وهذا له نفعه ووقعه في النفوس ، خاصة
إذا صدر من العالم الكبير لمن هو دونه .

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٧٤٢ ، فضائل الصحابة (٧ / ٩٠) .

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

ومن أمثلة تذكر حقوق أهل الفضل وأدائها في الوقت المناسب ما أخرجه الإمام الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه أتى عبد الله بن عباس بالبصرة وقد أمّره عليها علي رضي الله عنه، فقال: يا أبا أيوب إني أريد أن أخرج لك من مسكني كما خرجت للنبي ﷺ، فأمر أهله فخرجوا وأعطاه كل شيء أغلق عليه الدار، فلما كان انطلاقه قال: حاجتك؟ قال: حاجتي عطائي وثمانية أعبد يعملون في أرضي، وكان عطاؤه أربعة آلاف، فأضعفها له خمس مرات، فأعطاه عشرين ألفاً وأربعين عبداً^(١).

وهكذا تذكر ابن عباس ما قام به أبو أيوب من إنزال النبي ﷺ في بيته يوم الهجرة والقيام على خدمته والعناية به، فأراد أن يكافئه على هذا الفضل لما قدر على ذلك، وهو نوع رفيع من الوفاء، وبراعة في

(١) المعجم الكبير ٤/١٤٨، رقم ٣٨٧٦.

اختزان المعاني السامية في الذاكرة وقد مرَّ عليها قرابة أربعين عاما، ثم
إبداؤها عند اللزوم لبناء الحاضر عليها ، وإنما يعرف قيمة أهل الفضل
ويتذكر أخبارهم أهل الفضل والوفاء .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث طارق بن
شهاب قال: قلت لابن عباس: أيُّ رجل كان عمر؟ قال: كان كالطير
الحذر الذي كأن له بكل طريق شركاً^(١) .

ففي هذا الخبر يصف عبد الله بن عباس أمير المؤمنين عمر رضي
الله عنهم بالنباهة واليقظة والفراسة، فهو بذلك يدرك الأخطار
المحدقة بالأمة وما يتوقع أن يكون من تخطيط الأعداء، ويتصور
المشكلات التي قد تحدث فيضع الحلول المناسبة لها بفكره ، فإذا
حدثت بوادرها سارع إلى حسم القضايا قبل أن تستفحل، ويشبه هذا
الوصف قول عائشة رضي الله عنها في عمر رضي الله عنه : كان والله
أحودياً نسيج وحده ، قد أعدَّ للأمور أقرانها، كأنها خلق للإسلام .

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٣١٢ .

من مواقف معاوية رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة: صف لي علياً : فقال: أو تعفيني؟ قال: بل صفه . قال: أو تعفيني؟ قال: لأعفيك. قال أما إذا فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه ، وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ماخشن، ومن الطعام ماخشب^(١)، كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويتدنا إذا أتينا، ويأتينا إذا دعواناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لانكلمه هيبة، ولانبتديه لعظمه، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويجب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد بالله لقد رأيت في بعض مواقفه وقد أرخى الليل

(١) الجشب من الطعام : الغليظ الخشن ، وقيل : غير المأدوم .

سُجوفه و غارت نجومه، وقد مَثَّل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ
تململ السليم^(١)، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعُه وهو يقول: يادنيا
يادنيا أبي تعرّضت أم لي تشوّفت؟ هيهات هيهات غُرّي غيري، قد
بَتُّك^(٢) ثلاثاً لارجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك
كبير، آه من قلة الزاد وبعُد السفر، ووحشة الطريق .

قال : فذرفت دموع معاوية رضي الله عنه حتى خرّت على لحيته
فما يملكها ، وهو ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء ، ثم قال
معاوية رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه
ياضرار قال: حزن من ذُبِح ولدها في حجرها فلا ترقأ^(٣) عبرتها ،
ولا يسكن حزنها^(٤) .

فهذا وصف بليغ من ضرار الكِنَاني لأَمير المؤمنين علي بن أبي

(١) السليم يعني المريض فهو من أسماء الأضداد .

(٢) أي طلقتك .

(٣) أي لا تجف .

(٤) صفوة الصفوة ١/ ٣١٥-٣١٦ .

طالب رضي الله عنه، حيث وصفه ببعده النظر، والقوة في الحق،
والفصاحة والبيان، والعدل في الحكم، وغزارة العلم والتقيد
بالحكمة، والزهد في الدنيا ومظاهرها ، والأنس بذكر الله تعالى
ومناجاته، والبكاء من خشيته جل وعلا، واستدامة التأمل والتفكير
في أمور الدنيا والآخرة، والتواضع لإخوانه المؤمنين ، وتعظيم أهل
التقوى، والانتصار للضعفاء حتى يأخذوا حقوقهم، والقوة على أهل
الباطل حتى يرتدعوا عن باطلهم، وقوة الاتصال بالله سبحانه وكثرة
العبادة .

فهذه صفات عظيمة قلما تجتمع لإنسان واحد، وهي تدل على
تفوق علي رضي الله عنه في أمور الدنيا والدين .

وفي الخبر موقف لمعاوية رضي الله عنه حيث بكى من خشية الله
تعالى، ووافق ضرارا على تلك الصفات العالية التي وصف بها عليا
رضي الله عنه مع ماسبق بينهما من خلاف، وفي هذا الخبر وأمثاله رد
على الأخبار التي تفيد بأن معاوية أمر بسب علي على المنابر، وهذه
الأخبار ظاهرة البطلان لأنها تتنافى تماما مع أخلاق معاوية الذي

اشتهر بالحلم والسماحة والسياسة الحكيمة، فإنه ليس من الحكمة أن يُصدر هذا الأمر الذي سيثير عليه غضب الأمة الإسلامية في وقت كان يحاول بكل وسيلة اجتذاب قادتها وحكمائها .

من مواقف أبي موسى الأشعري رضي الله عنه :

في باب الثناء على العلماء من أقرانهم تُذكر هذه الحادثة التي جرت بين أبي موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فقد أخرج الإمامان أحمد والبخاري وغيرهما من حديث هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت^(١) فقال: للابنة النصف وللأخت النصف، وأنتِ ابن مسعود سيتابعني، فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، أقضي بما قضى النبي ﷺ: للابنة النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فللأخت ، فأتينا أبا موسى وأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لاتسألوني مادام هذا الخبر فيكم^(٢) .

(١) يعني عن قسمة الميراث بينهم .

(٢) مسند أحمد ١/٤٦٣ ، صحيح البخاري ، رقم ٦٧٣٦ ، الفرائض (٢/١٧) .

وهذا موقف جليل من أبي موسى رضي الله عنه حيث خالفه في الحكم عبد الله بن مسعود فلم يغمطه حقه، ولم ينتقص من قدره، بل أحال الناس عليه في الفتيا اعترافاً بقدره العلمي، وهكذا يجب أن تكون العلاقة بين علماء الدين حتى تبقى منزلتهم عالية في النفوس ويحترمهم الناس.

وفي هذا بيان لحياة الصحابة رضي الله عنهم القائمة على الحب والإخاء، والاعتراف لأهل الفضل، والترفع عن الأنانية.

من مواقف حذيفة رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: لأن أعلم أن فيكم مائة مؤمن أحبُّ إليَّ من حمر النعم وسودها، فقال أصحاب النبي ﷺ: ما تهاجرنا بيننا، ولا تشاتمنا بيننا ولا تفرقنا، قال: هل فيكم من لا يخاف في الله لومة لائم؟ ثم بكى، ثم قال: لا أعلمه إلا عمر بن الخطاب فكيف أنتم لو فارقكم؟!^(١).

في هذا الخبر يبين لنا حذيفة رضي الله عنه صفة من الصفات التي تميز بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وهي قول الحق والعمل به في جميع الظروف والأحوال، وعدم خشية الناس، وهذا مقام من مقامات الدين العظيمة، وهو دليل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين، وبه تصلح أمور الأمة، ويستسلم الناس للحق طوعاً أو كرهاً.

ويقصد حذيفة بذلك الكمال في هذه الصفة، وإلا فإن الصحابة

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٣٣٢.

يتصفون بهذه الصفة بِنَسَبٍ متفاوتة، ولكنهم لا يصلون في ذلك إلى مستوى عمر ولا إلى قريب منه رضي الله عنهم أجمعين .

ومن ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث شقيق بن سلمة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال : « بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال: أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ، قال: هات، إنك لجرئ، قال قال رسول الله ﷺ: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال: ليس عن هذا أسألك ولكن التي تموج كموج البحر، فقال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح؟ قال: بل يكسر، قال عمر: إذا لا يُغلق أبداً، قلت: أجل، قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غدٍ ليلة، وذلك أني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، فهَبْنَا أن نسأله من الباب، فأمرنا

مسروقا فسأله فقال: مَنْ الباب؟ قال: عمر^(١).

ففي هذا الحديث بيان لمنزلة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في الإسلام، فهو الباب الذي كان يحجز بين المسلمين والوقوع في الفتن، وهذا لا يعني أن كل الصحابة والتابعين قد وقعوا في الفتنة بعد عمر، بل إن أكثر الصحابة وبعض التابعين ظلوا على استقامتهم وزهدهم في الدنيا حتى بعد وفاته، ولكن المعتبر هو العرف الاجتماعي الذي يسيّر الناس نحو سلوك معين وإن لم يقتنع به بعضهم، والرأي العام الذي يشكّل تصورات الناس وأفكارهم، فقد كانت الاستقامة على الدين والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة هي المفاهيم السائدة قبل وفاة عمر، وكان الناس يتسابقون في إظهار حياة التقشف في الملابس والمأكل وغير ذلك من أمور الدنيا، وإن كان بعضهم في قرارة نفسه يودُّ أن يعيش حياة أكثر رخاء ونعيمًا، فلما توفي عمر أصبح هناك انفتاح نحو الدنيا من الذين لم يكونوا قبل ذلك مقتنعين بحياة الزهد والتقشف.

(١) صحيح البخاري، رقم ٧٠٩٦، الفتن (٤٨/١٣)، ورقم ٣٥٨٦ (٦/٦٠٣).

صحيح مسلم رقم (١٤٤) الإيمان (ص ١٢٨).

وكانت طاعة الإمام والولادة هي المنهج السائد قبل وفاة عمر رضي الله عنه سواء كان ذلك عن رضى أو عن كراهية، فلما توفي عمر كثر الطعن على الإمام والولادة حتى أدى ذلك إلى قيام الثورة المعروفة على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، ثم إلى وقوع القتال المعروف في عهد علي رضي الله عنه .

موقف للشفاء بنت عبد الله رحمها الله :

ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث سليمان ابن أبي حثمة قال: قالت الشفاء بنت عبد الله:- ورأت فتيانا يقصدون في المشي^(١) ويتكلمون رويدا فقالت:- ما هذا ؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا^(٢) .

نعم فليست العبادة بتصنع الوقار، وإظهار النفوس في حال التخشع المفتعل، بل هي بالاستقامة على منهج الله تعالى الكامل الذي

(١) يعني يمشون ببطء .

(٢) تاريخ الإسلام ٢٨٨/٤٤ .

تصبح فيه العلانية صورة من السريرة .

وقد روي نحو هذا عن عائشة رضي الله عنها .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر المسور بن

مخرمة رضي الله عنه قال: كنا نلزم عمر بن الخطاب نتعلم منه الورع^(١) .

وهكذا يكون الربون قدوة للناس بسمتهم ووقارهم

وسلوكلهم، قبل أن يكونوا كذلك بوعظهم وتذكيرهم .

من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر حسن بن صالح

قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون: فلان،

وقال قائلون : فلان فقال عمر بن عبد العزيز : أزهّد الناس في الدنيا

علي بن أبي طالب^(٢) .

فهذه كلمة حق من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله

تعالى في وسط كان يكرهها، حيث كان أغلب بني أمية يكرهون أمير

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٢٨٨ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٢/٤٨٩ ، وانظر البداية والنهاية ٨/٥ .

المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد صدق عمر بن عبد العزيز في ذلك فلقد كان علي يشبه عمر بن الخطاب في الزهد ولكن المجتمع الذي عاش فيه قد اختلف وتمكنت الدنيا من نفوس كثير من الناس، فلذلك لم يستطع أن يعمم حياة الزهد على أمرائه كما كان يفعل عمر وأصبح غريبا في مجتمعه .

إجلاله سعيد بن المسيب :

قال ابن عبد الحكم : وأرسل عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة رسولا إلى سعيد بن المسيب رحمه الله يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتي أميرا ولا خليفة ، فأخطأ الرسول فقال له : الأمير يدعوك فأخذ نعليه وقام إليه من وقته، فلما رآه قال له : عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا فإننا لم نرسله ليدعوك ، ولكنه أخطأ إنما أرسلناه ليسألك ، ولم ير سعيد أنه يسعه التخلف عنه^(١) .

وهذا موقف عظيم من عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تعظيم

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٦ .

علماء الدين ورعاية حقهم، فالعلم يُؤتى إليه ولا يأتي، والعلماء يُقصدون، ولا يُقصدون غيرهم، لأن العلم لا يؤثر ولا يُعطي نتائجه المطلوبة إلا إذا تواضع له طالبوه، وأصبح جَوْه مُفَعَّمًا بالحب والاحترام لحملة العلم.

ولقد كان عمر موفقا حينما اعتذر للعالم الرباني سعيد بن المسيب وأصر على أن يذهب إليه رسوله ليسأله وهو في مجلسه احتراماً له والتماساً لبركة العلم إذا أحيط بما يلزم له من ظروف وأسباب.

كما كان سعيد بن المسيب موفقا حينما استجاب لدعوة عمر وهو الذي لم يستجب لدعوة أحد قبله ولا بعده.. كان موفقا لأنه أظهر توقير الوالي العادل وتفخيم أمره، وفي ذلك ما فيه من عون على الاستقامة على العدل، ودفع الناس إلى طاعته وتثبيت أمره في الولاية.

تقديره ولد قتادة بن النعمان :

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : وأُصيب يومئذ^(١) عين قتادة بن النُّعمان حتى وقعت على وَجَّتِهِ . قال قتادة بن النعمان:

(١) يعني يوم معركة أحد .

فجئت رسول الله ﷺ فقلت : أي رسول الله ، إنَّ تحتي امرأةً شابةً جميلةً أحبّها وتُحِبُّني وأنا أخشى أن تقذّر مكان عيني . فأخذها رسول الله ﷺ فردّها فأبصرت وعادت كما كانت ، فلم تضرب عليه ساعةً من ليل ولا نهار ، وكان يقول بعد أن أسنَّ: هي والله أقوى عينيّ! وكانت أحسنّها^(١) .

وقال الحافظ ابن حجر : أخرج الدارقطني وابن شاهين من طريق عبد الرحمن بن يحيى العذري عن مالك عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أصيبت عينه يوم أحد فوقعت على وجنته فردها النبي ﷺ فكانت أصح عينيه . قال : وأخرجه الدارقطني والبيهقي في الدلائل من طريق عياض بن عبد الله بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري وذكر نحوه^(٢) . وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر

(١) مغازي الواقدي ١/٢٤٢ .

وأخرجه ابن هشام مختصراً - سيرة ابن هشام ٣/٣٣ - .

(٢) الإصابة ٣/٢١٧ ، رقم ٧٠٧٨ .

ابن عبد العزيز فقال له : من أنت ؟ فقال مرتجلا :
أنا ابن الذي سألت على الخدّ عينه فرُدّت بكفّ المصطفى أحسن الرّدِّ
فَعَادَت كَمَا كَانَت لِأَوَّلِ أَمْرِهَا فَيَا حُسْنَ عَيْنًا وَيَا حُسْنَ مَارَدًا
فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك :

تلك المكارم لاقعبان من لبن شيبا بهاء فعادا بعد أبوالا
ثم وصله فأحسن جائزته رضي الله عنه ^(١) .

وولد قتادة هذا لم يُذكر اسمه في هذه الروايات ، لكن جاء في
رواية ذكرها الحافظ ابن حجر: قال عاصم : فحدثت به عمر بن
عبد العزيز ، فذكر البيت الذي تمثل به عمر ^(٢) ، وهذا يعني أن عاصم
بن عمر بن قتادة المؤرخ المشهور هو صاحب القصة ، ويكون قد
انتسب إلى جده.

ففي هذا الخبر موقف لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله

(١) البداية والنهاية ٣٥/٤ ، وانظر عيون الأثر ١٤/٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز
لابن الجوزي / ١٩٦ .

(٢) الإصابة ٢١٧/٣ ، رقم ٧٠٧٨ .

تعالى في إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما عرف نفسه بما حدث لأبيه رضي الله عنه في هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ، وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز في المجال الأخلاقي، وذلك بتقدير أهل الفضل والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين، فإن ما حدث لقتادة رضي الله عنه من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله في القتال وتعرضه للمهالك، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية .

ولقد كان ولده بارعًا حينما صور هذا المشهد بدينك البيتين من الشعر اللذين ارتجلهما في الرد على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما سأله عن اسمه ، وكان عمر أيضا بارعًا في جوابه واستشهاده ببيت الشعر الذي استشهد به .

تقديره زياد مولى ابن عياش :

إن من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في التواضع وتقدير العلماء ماجاء في رواية ابن عبد الحكم أنه قال: وقدم عليه زياد مولى ابن عياش وأصحاب له ، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم ، فدخل عليه فنسي أن يسلم عليه بالخلافة، ثم ذكر فقال :

السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : والأولى لم تضرنني ، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض وقال: إني أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد، فلما قضى زياد ما يريد خرج ، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم ، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه أن يكون يُفتح لمثله بيت المال ويسلِّطُ عليه - وهو به غير عارف - ففعل الخازن ما أمر به ، فدخل زياد فأخذ لنفسه ولأصحابه بضعا وثمانين درهما، أو قال : بضعا وتسعين درهما ، فلما رأى ذلك الخازن قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال^(١) .

ففي هذا الخبر صور من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله وتقديره للعلماء الربانيين، فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة وهو أعلى لقب عند المسلمين ، والمناصب لها فتنة يقع في حبالها من اغتروا بالجاه والمنزلة الدنيوية ، أما أقوياء الإيمان فإن شخصيتهم لا تتغير

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٥٣ ، وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه

- الزهد / ٢٩٩ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦١ .

بعد المنصب بل يظنون على ما هم عليه من التواضع ، وربما زادوا تواضعا في مقابلة احترام الناس لهم .

ثم هو ثانيًا نزل عن مكانه حتى لا يعلو ذلك العالم الرباني زياد ابن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ، وكون ذلك العالم من الموالي لا ينزل من قدره عند عمر فإن العبرة بالعلم والتقوى لا بشرف النسب .

وموقف كريم لذلك العالم الرباني حيث لم يأخذ من بيت المال إلا ذلك القدر الزهيد مع أنه قد مُكِّن منه ، وهذا مثال رفيع من أمثلة الزهد والورع .

وحينها تكون النفوس كبيرة والعقول راجحة فإنها تعفُّ عن متاع الدنيا الذي يتنافس عليه الصغار ، وتطمح ببصرها نحو نعيم الآخرة الخالد الذي يتنافس فيه الكبار .

إكرامه من ينتسبون إلى علي رضي الله عنه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب قال : حدثني يزيد بن عمر بن

مورق قال: كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس، فتقدمت إليه فقال لي: ممن أنت؟ قلت من قريش، قال من أي قريش؟ قلت من بني هاشم. قال من أي بني هاشم؟ قال فسكت فقال من أي بني هاشم؟ قلت مولى علي. قال من علي: فسكت، قال: فوضع يده على صدري وقال: وأنا والله مولى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ثم قال: حدثني عدة أنهم سمعوا النبي ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه» ثم قال: يامزاحم كم تعطي أمثاله؟ قال: مائة أو مائتي درهم، قال أعطه خمسين دينارًا، وقال ابن أبي داود: ستين دينارًا لولايته علي بن أبي طالب، ثم قال: الحق ببلدك فسيأتيك مثل ما يأتي نظراءك^(١).

وهذا موقف يذكر لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حيث حفظ حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأكرم وفادة ذلك الرجل وفضله على غيره في العطية لكونه مولى لعلي، وفي هذا

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٦٤، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٢.

الخبر تصوير للإرهاب الذي بثه بنو أمية في قلوب الناس فيما يتعلق بعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه وذريته ، حيث لم يجراً ذلك المولى على ذكر انتسابه إليه في بادئ الأمر .

من مواقف الحسن البصري رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر هشام بن حسان قال: بينا نحن عند الحسن البصري إذ أقبل رجل من الأزارقة فقال : يا أبا سعيد ماتقول في علي بن أبي طالب ؟ قال: فاحمرت وجنتنا الحسن وقال: رحم الله علياً ، إن علياً كان سهماً لله صائباً في أعدائه، وكان في محلة العلم أشرفها وأقربها إلى رسول الله ﷺ، وكان رهبانيّ هذه الأمة، لم يكن لمال الله بالسروقة، ولا في أمر الله بالنؤومة، أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه، فكان منه في رياضٍ مونقة، وأعلام بيّنة ، ذلك علي بن أبي طالب يألُكع^(١) .

فهذا موقف جيد من الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله

(١) البداية والنهاية ٨ / ٥ .

تعالى، حيث صرح بفضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمام رجل من الخوارج، الذين كانوا من أعدائه، والتصريح بفضائل الصحابة أمام من يعادونهم نوع من الجهاد ، لأن من فعل ذلك قد يتعرض للأذى .

من مواقف محمد بن علي بن الحسين رحمه الله :

قال عروة بن عبد الله: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف فقال: لا بأس به، قد حلّى أبو بكر الصديق سيفه. قال: قلت: وتقول الصديق؟ قال : فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال: نَعَمْ الصديق ، نعم الصديق، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولا في الدنيا والآخرة .

وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : يا جابر! بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبونا ويتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أني أمرتهم بذلك، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد بيده - يعني نفسه - لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالني شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما، وأترحم عليهما ، إن أعداء الله

لغافلون عن فضلها وسابقتها، فأبلغهم أني بريء منهم وممن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقال: من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة .

وقال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾

[المائدة: ٥٥] الآية . قال: هم أصحاب محمد ﷺ، قال : قلت:

يقولون: هو علي قال : علي من أصحاب محمد ﷺ»^(١) .

فهذا كلام جليل من الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين

في الاعتراف بالفضل لأهل الفضل، والكلام في إثبات عدالة

الصحابة رضي الله عنهم وبيان فضلهم يُعدُّ من الأعمال الصالحة التي

يثاب عليها فاعلمها، وخاصة إذا صدر ذلك من علماء آل البيت، حيث

نسب إليهم المبتلون كلاما في التنقيص من قدر الصحابة هم منه

برءاء .

إن محبة أي إنسان تعني أن يصدر من محبته ما يهواه ويلائمه،

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٢٣ .

ليكون قد حقق متطلبات الحب، وإن الذي يهواه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذريته أن تتحقق محبة الصحابة رضي الله عنهم في قلوب المسلمين وأن يُعرف فضل أهل التقدم منهم، أما دعوى التناقض بين محبة علي وآله ومحبة بقية الصحابة فهي دعوى باطلة، قد فنّدها عليّ كما سبق، وهذا أحد أحفاده محمد بن علي يرد على هذه الدعوى ويبطلها .

موقف للأئمة أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد رحمهم الله :

ذكر الإمام الذهبي عن محمد بن إسحاق بن راهويه قال: حدثني أبي قال: قال لي أحمد بن حنبل: تعال حتى أريك من لم يُر مثله، فذهب إلى الشافعي، قال أبي: وما رأى الشافعي مثل أحمد بن حنبل، ولولا أحمد وبذُل نفسه لذهب الإسلام - يريد المحنة -^(١) .

فهذا مثل جليل في تقدير أهل الفضل، فقد كان الإمام أحمد يكثر من الثناء على الإمام الشافعي، ويرى أنه يتفوق على غيره

(١) سير أعلام النبلاء ١١/١٩٦ .

يعني امتحان الناس بالقول بخلق القرآن .

بالتوسع في فهم معاني النصوص الشرعية ، فلذلك أطنب في الثناء عليه، ومن ذلك ما ذكره علي بن أحمد بن النضر الأزدي قال: سمعت أحمد بن حنبل ، وسئل عن الشافعي فقال: لقد مَنَّ الله علينا به ، لقد كنا تعلمنا كلام القوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالي فما رأينا منه إلا كل خير^(١).

وقوله « لقد تعلمنا كلام القوم » يشير به إلى فقه الفقهاء في المسائل التي دونوها حسب فهمهم من الكتاب والسنة والقياس عليهما فيما لانص فيه .

وهذا الثناء يبين قوة إيمان الإمام أحمد وتجرده من حظ النفس، فالإمام الشافعي معاصر له ، وقد وفد إلى بغداد بعلمه المتميز الذي لا يقاربه فيه أحد من علماء عصره ، فلم يكن في قلب أحمد ابن حنبل ذرة من الحسد له ، بل رفع من ذكره ولازمه وأخذ العلم عنه حتى

(١) سير أعلام النبلاء ٥٨/١٠ .

عابه أحد أهل العلم في لزوم ركابه فقال له : لو علمت علمه للزمت
الركاب الآخر .

وكما كان الشافعي متفوقا في هذا الجانب فإن أحمد بن حنبل كان
متفوقا في جوانب أخرى، أبرزها التوسع في رواية السنة النبوية، كما
كان صاحب الموقف العظيم في الدفاع عن عقيدة السلف الصالح
رضوان الله عليهم والثبات عليها، وبهذا أثنى عليه الحافظ إسحاق بن
راهويه.

وهكذا يضرب علماء الإسلام أمثلة عالية في مكارم الأخلاق في
مجال تقدير أهل الفضل وتمجيد ذكركم .

ومن ذلك ما روي عن محمد بن أبي بشر قال: أتيت أحمد بن
حنبل في مسألة فقال : ائت أبا عبيد فإن له بيانا لا تسمعه من غيره،
فأتيته فشفاني جوابه، فأخبرته بقول أحمد فقال: ذاك رجل من عمال الله
نشر الله رداء عمله وذخر له عنده الزُّلفى ، أما تراه محببا مألوفاً،
مارأت عيني بالعراق رجلا اجتمعت فيه خصال هي فيه، فبارك الله له
فيما أعطاه من الحلم والعلم والفهم ، فإنه لَكَمَّا قيل :

يَزِينُكَ إِمَّا غَابَ عَنْكَ فَإِنَّ دَنَا رَأَيْتَ لَهُ وَجْهًا يَسُرُّكَ مَقْبَلًا
يَعْلَمُ هَذَا الْخَلْقَ مَا شَدَّ عَنْهُمْ مِنْ الْأَدَبِ الْمَجْهُولِ كَهْفًا وَمَعْقَلًا
وَيُحْسِنُ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ إِذَا رَأَى مَضِيئًا لِأَهْلِ الْحَقِّ لَا يَسَامُ الْبَلَا
وَإِخْوَانَهُ الْأَدْنُونَ كُلَّ مَوْفِقٍ بِصِيرٍ بِأَمْرِ اللَّهِ يَسْمُو عَلَى الْعَلَا^(١)

ففي هذا الخبر مثل من آداب أهل العلم وتقدير أهل الفضل، فهذان الإمامان الجليلان كل واحد منهما أثنى على الآخر بما فيه من خصال الخير، فالإمام أحمد قد تواضع وبرئ من حظ النفس حينما أحال من سألته في تلك المسألة العلمية على أبي عبيد القاسم بن سلام. وفي المقابل كان أبو عبيد منصفًا عارفاً بفضل أهل الفضل، فقد أطنب في الثناء على أبي عبد الله أحمد بن حنبل، ولم يقل فيه إلا حقا وصدقا، فإن مآثر هذا الإمام قد بلغت المشرق والمغرب في زمنه، وما يزال ذكره حسنا وسمعته عالية.

ومما جاء في إبراز أهل الفضل والتقدم في العلم ما روي عن

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٠٠-٢٠١.

عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: ياأبة من الحفاظ ؟ قال ياأبني شباب كانوا عندنا من أهل خراسان، وقد تفرقوا قلت: من هم ؟ قال: محمد ابن إسماعيل ذاك البخاري، وعبيد الله بن عبد الكريم ذاك الرازي، وعبد الله بن عبد الرحمن ذاك السمرقندي، والحسن بن شجاع ذاك البلخي ، قال: فقلت : ياأبة من أحفظ هؤلاء ؟ قال: أما أبو زرعة فأسردهم ، وأما محمد فأعرفهم، وأما الدارمي فأتقنهم وأما ابن شجاع فأجمعهم للأبواب^(١) .

وهذا كلام جليل من الإمام أحمد في حق هؤلاء الأربعة الحفاظ الكبار، الذين أصبح لهم شأن كبير في الحياة العلمية آنذاك، وخاصة في بلاد خراسان وما وراء النهر .

وقد نال هؤلاء كلهم شهرة علمية ماعدا محمد بن شجاع البلخي وقد أبان السبب في ذلك محمد بن عقيل، وذلك فيما ذكر أبو عمرو محمد البيكندي قال : فحكيت هذا - يعني كلام الإمام أحمد -

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ١٨٨ - ١٨٩ .

لمحمد بن عقيل فأطرى ذكر الحسن بن شجاع، فقلت له : لم يشتهر
كما اشتهر هؤلاء؟ قال : لأنه لم يُمتَّع بالعمر^(١) .

والعمر كان عاملاً مهمّاً في اشتهار العالم آنذاك لأن مرحلة
الطلب طويلة، ولا يكاد العالم يعطي علمه ويؤلف إلا في سن الكهولة.
فأما الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، فمن المعروف في ذلك
العهد وبعده بأنه أفضل هؤلاء، وقد حاز التميز في كل الخصال التي
ذكرها الإمام أحمد ولكن الإمام أحمد أراد أن يذكر أهم صفة تميز بها
كل واحد ، وقد اشتهر في التصنيف في السنة كما هو واضح من كتابه
«الجامع الصحيح» وفي الجرح والتعديل كما هو واضح في كتابه
«التاريخ الكبير» .

وأما الإمام أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي فقد اشتهر
في علم الجرح والتعديل ، وأقواله مبثوثة في كتب هذا الفن ومن
أبرزها «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم .

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/١٨٩ .

وأما الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي فقد
اشتهر بتدوين السنة وكتابه في السنن مشهور معروف .
وهذا لا يعني خلو ذلك العصر من الحفاظ غير هؤلاء بل هناك
حفاظ كثيرون من أمثال الحافظ أبي حاتم الذي كان قرين الحافظ أبي
زرعة في الجرح والتعديل ، والحافظ أحمد بن عبد الله العجلي ، والحافظ
محمد بن واره ، وأمثالهم كثير .
وإنما ذكر الإمام أحمد أبرز الحفاظ الذين لازموا في أثناء طلب
العلم .

موقف لعمر بن علي الفلاس رحمه الله :

أخرج الخطيب البغدادي من خبر محمد بن أبي حاتم الوراق
قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: ذاكرني أصحاب عمرو بن علي
بحديث فقلت: لا أعرفه، فسروا بذلك، وساروا إلى عمرو بن علي
فقالوا: ذاكرنا محمد بن إسماعيل البخاري بحديث فلم يعرفه، فقال

عمرو بن علي: حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث^(١) .
فهذا موقف جليل للحافظ عمرو بن علي الفلاس حيث لم يغتنم
هذه الفرصة للتشهير بالإمام البخاري حينما أبدى عدم معرفته بذلك
الحديث الذي طرحه عليه تلاميذ الفلاس، بل تصرف بضد ذلك
حينما أثنى على البخاري في العلم ثناء عظيمًا، فحكم على أي حديث
لا يعرفه البخاري بأنه ليس بحديث مُعتدُّ به ، وهذه شهادة قيمة من
حافظ كبير .

وهذا السلوك من الحافظ الفلاس يُعدُّ قمة في البعد عن الأنانية،
والتجرد من حظ النفس ، والاعتراف بالفضل لأهله .

موقف سهل بن عبد الله التستري رحمه الله :

رُوي عن القاضي الخليل بن أحمد السجزي قال : سمعت أحمد
بن محمد بن الليث قاضي بلدنا يقول : جاء سهل بن عبد الله التستري
إلى أبي داود السجستاني ، فقيل : يا أبا داود هذا سهل بن عبد الله

(١) تاريخ بغداد ١٨/٢ .

جاءك زائرا ، فرحب به وأجلسه، فقال سهل : ياأبا داود لي إليك حاجة ، قال:وماهي؟قال: حتى تقول: قد قضيتها مع الإمكان، قال: نعم ، قال:أخرج إلي لسانك الذي تحدث به أحاديث رسول الله ﷺ حتى أقبله ، فأخرج إليه لسانه فقبله^(١) .

فهذا مثل عالٍ من إكرام أهل العلم وتقديرهم الذي هو مبني على تعظيم سنة رسول الله ﷺ .

وإن هذا التقدير البالغ والاحترام الكبير لأصحاب الحديث الذي عمرت به تلك العصور الزاهرة من أهم أسباب ازدهار التحديث، وإقبال طلاب العلم على دراسة السنة النبوية ، فقد أصبح أهل الحديث هم علية القوم في كل بلد ، وهم الذين يشار إليهم بالبنان، ويغبطهم على السمعة العالية الكبراء من أهل السمعة الدنيوية .

ولقد أصبح الخُلم الكبير في تلك العصور للآباء والأمهات في

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢١٣ ، وفيات الأعيان ٢/٤٠٤ .

مستقبل أبنائهم أن يكونوا من المحدثين حتى يجوزوا على تلك السمعة العالية ، ولذلك كانوا يحملون أبناءهم من الصغر على حفظ القرآن الكريم ، ثم على السماع من شيوخ الحديث .

موقف للأمير نوح بن نصر رحمه الله :

ذكر الحافظ الذهبي من خبر أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا أحمد الحافظ^(١) يقول: حضرت مع الشيوخ عند أمير خراسان نوح بن نصر ، فقال: من يحفظ منكم حديث أبي بكر رضي الله عنه في الصدقات ؟ فلم يكن فيهم من يحفظه ، وكان عليّ خُلِقَانٌ وأنا في آخر الناس ، فقلت لوزيره : أنا أحفظه ، فقال: هاهنا فتى من نيسابور يحفظه ، فقدمت فوقهم ، ورَوَيْتُ الحديث ، فقال الأمير : مثل هذا لا يُضَيِّعُ ، فولاني قضاء الشاش^(٢) .

وهكذا ارتفع هذا الفتى بسبب حفظه حديث أبي بكر رضي الله عنه في الصدقات ، وقد أصبح فيما بعد من الحفاظ المشهورين .

(١) هو الإمام محمد بن محمد بن أحمد النيسابوري (الحاكم الكبير) .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٣٧٢ - ٣٧٣ .

وهذا السؤال من ذلك الأمير نوح بن نصر يُعَدُّ اهتماماً منه
بالعلم وأهله ، ولما برز هذا الشاب في حفظ ذلك الحديث الطويل
قدَّرَه ذلك الأمير وولاه القضاء .

وهكذا يرفع العلم أقواماً وإن كانوا صغاراً لا يُؤَبِّههم وذلك
عند من يقدرون العلم وأهله .

موقف للأمير إسماعيل بن أحمد الساماني رحمه الله :

من أمثلة تقدير أهل الفضل والعلم ما ذكره الوزير أبو الفضل
محمد بن عبيد الله البلعمي : سمعت الأمير إسماعيل بن أحمد يقول:
كنت بسمرقند ، فجلست يوماً للمظالم وجلس أخي إسحاق إلى
جنبني إذ دخل أبو عبد الله محمد بن نصر، فقامت له إجلالاً للعلم، فلما
خرج عاتبني أخي وقال : أنت والي خراسان تقوم لرجل من الرعية ؟
هذا ذهاب السياسة .

قال : فبتُّ تلك الليلة وأنا متقسِّم القلب، فرأيت النبي ﷺ في المنام ،
كأنِّي واقف مع أخي إسحاق، إذ أقبل النبي ﷺ فأخذ بعُصدي ، فقال لي :
ثبَّتْ ملكك وملك بنيك بإجلالك محمد بن نصر ، ثم التفت إلى إسحاق

فقال : ذهب ملك إسحاق وملك بنيه باستخفافه بمحمد بن نصر^(١) .
وهكذا أنقذ الله تعالى بهذه الرؤيا المباركة الأمير إسماعيل بن أحمد
ابن أسد بن سامان من تلك الحيرة التي تردد فيها بين الاستمرار في
احترام العلماء ، وهو الذي تميل إليه نفسه الطيبة، وبين التمسك
بالمظاهر المصطنعة التي يقصد بها إظهار هيبة السلطة، فتبين له من
هذه الرؤيا أن التواضع للعلماء هو السياسة الحكيمة وهو الذي يعطي
ولي الأمر قوة تُبقي على ولايته وتحبب الرعية إليه .
وإن هذا هو الموافق لتوجيهات النبي ﷺ في مثل قوله « إن من
إجلال الله تعالى إكرامَ ذي الشئبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي
فيه ولا الجافي عنه ، وإكرامَ ذي السلطان المقسط »^(٢) .
وإذا كان إجلال عالم الدين إجلالا لله تعالى فإنه سبحانه يوفق
من صدر منه إلى الخير، ويقيه الشر، ويثبت له أمره إن كان من الولاة.
وإذا نظرنا إلى الأمر من ناحية السياسة الإنسانية الاجتهادية فإن

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٨ - ٣٩ .

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب رقم ٤٦٧٦ باب ٢٣ .

علماء الدين لهم مكانة عالية في نفوس المسلمين ، فمن أعزهم كان عزيزا عندهم ، ومن أذلهم كان محتقرا مكروها لديهم، ولهذا فإنه بَغَضَ النظر عن المعنى الأول الذي هو الأهم ، فإن ذلك الوالي كان أعلى في فهم السياسة من أخيه .

موقف للإمام محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله :

قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي : لما رحلت بابني^(١) إلى العراق صحبني جماعة من الغرباء، فسألوني : أي حديث عند أحمد ابن حنبل أغرب ؟^(٢) فكنت أقول: إذا دخلنا عليه سألته عن حديث تستفيدونه، فلما دخلنا عليه سألته عن حديث يحيى بن سعيد عن عثمان بن غياث عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر .. حديث الإيمان^(٣) .

فقال : يا أبا عبد الله ليس هو عندي عن يحيى بن سعيد،

(١) يعني ابنه يحيى بن محمد الذهلي وهو من الحفاظ وقد ورث المكانة العلمية بعد أبيه في نيسابور .

(٢) أي غير مشهور بإسناد معين وإن كان متنه مشهوراً .

(٣) يعني حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان إلخ .

فخجلت وقمنا ، فأخذ أصحابنا يقولون : إنه ذكر الحديث غير مرة ،
ثم لم يعرفه أحمد ، وأنا ساكت لا أجيبهم .

قال : ثم قدمنا بغداد فدخلنا على أحمد فرحب بنا وسأل عنا ، ثم
قال : أخبرني يا أبا عبد الله أي حديث استفدت من مسدد عن يحيى بن
سعيد ؟ فذكرت له حديث الإيوان ، فقال أحمد : حدثناه يحيى بن
سعيد ، ثم أخرج كتابه وأملى علينا ، فسكت محمد بن يحيى ولم يقل :
سألناك عنه ، فتعجب أصحابه من صبره .

قال : فأخبر أحمد بأنه كان سألته عن الحديث قبل خروجه إلى
البصرة ، فكان أبو عبد الله إذا ذكره يقول : محمد بن يحيى العاقل^(١) .

فهذا مثل رفيع في الأدب مع العلماء ، فمحمد بن يحيى الذهلي
كان قد اهتز موقفه لما عرض ذلك الحديث على الإمام أحمد بن حنبل
فأجابه بأنه ليس من حديثه ، واختلال السمعة العلمية أمام إمام كبير
كأحمد بن حنبل يُعدُّ هبوطاً في المستوى العلمي في الحفظ ، فكان

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٢٧٨ - ٢٧٩ .

المظنون بالذهلي أن ينتهز فرصة تحديث الإمام أحمد به في المرة الثانية ليذكره بذلك الموقف ، ولكن لما كان في ذلك شيء من التهوين من سمعة العلماء أعرض عن ذلك .

وموقف جليل من الإمام أحمد حينما أشاد بمحمد بن يحيى لما علم بذلك الموقف ولقبه بالعاقل .

ولئن كان الإمام أحمد قد نسي ذلك الحديث في ذلك الموقف مع قوة حفظه وسعة علمه فإن ذلك لا يهون من سمعته العلمية فلكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة .

موقف للأمير طاهر بن عبد الله رحمه الله :

مما جاء في تقدير أهل الفضل واحترام أهل العلم ماجاء في قول جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ : مارأيت في المحدثين أهيب من محمد ابن رافع ، كان يستند إلى شجرة الصنوبر في داره، فيجلس العلماء بين يديه على مراتبهم، وأولاد الطاهرية ومعهم الخدم^(١)، كأن على رؤوسهم

(١) يعني أولاد الأمير ابن طاهر .

الطير ، فيأخذ الكتاب ويقرأ بنفسه ، ولا ينطق أحد ولا يتبسم إجلالا له ، وإذا تبسم واحد أو راطن صاحبه قال : وصلى الله على محمد ، ويأخذ الكتاب ، فلا يقدر أحد يراجعه أو يشير بيده ، ولقد تبسم خادم من خدم الطاهرية يوما فقطع ابن رافع مجلسه ، فانتهى الخبر بذلك إلى طاهر بن عبد الله فأمر بقتل الخادم ، حتى احتلنا لخلاصه^(١) .

فهذا مثل من إجلال الأمير طاهر بن عبد الله للعلم وأهله ، وإن كان قد بالغ في العقوبة ، ولعله لم يكن يريد تنفيذ ذلك وإنما أراد تثبيت هيبة ذلك العالم الجليل في نفوس الناس .

إن إجلال علماء الدين دليل على تعظيم الدين نفسه ، وذلك دليل على قوة الإيمان بهذا الدين .

وما كان من محمد بن رافع من الحزم والشدة في ضبط الدرس يُعدُّ إجلالا لحديث رسول الله ﷺ ، وليس من باب الكبر وإثبات الشخصية ، فلقد قال عنه الإمام البخاري : كان من خيار عباد الله .

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٢١٦ .

موقف للحافظ محمد بن بشار رحمه الله :

وذلك فيما أخرجه الخطيب البغدادي عن محمد بن أبي حاتم قال: سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول : لما دخلت البصرة صرت إلى مجلس محمد بن بشار ، فلما خرج وقع بصره عليّ فقال: من أين الفتى ؟ قلت : من أهل بخارى ، قال: كيف تركت أبا عبد الله ؟ فأمسكت ، فقال له أصحابه : رحمك الله هو أبو عبد الله ، فقام وأخذ بيدي وعانقني ، وقال: مرحباً بمن أفتخر به منذ سنين^(١) .

فهذه لفظة كريمة من الحافظ محمد بن بشار المعروف بـ « بندار » حيث احتفى بالإمام أبي عبد الله البخاري وأكرمه وهو في طبقة تلاميذه، وهذا من تقدير أهل الفضل لأهل الفضل، وإنما يقدر أهل الفضل والتقدم الكبارُ العظماء ولا يحتقرهم إلا حاسد أو جاهل .
وموقف لأبي عبد الله البخاري حينما سأله بندار عن البخاري وهو لا يعرف أنه الذي أمامه حيث سكت أبو عبد الله ولم يظهر منه

(١) تاريخ بغداد ١٧/٢ .

الفخر والاعتداد بالنفس ، وكان رحمه الله تعالى من رجاحة عقله شديد الحياء والبعد عن الشهرة ، كما قال عنه محمد بن سلام لجلسائه:
أترون البكر أشد حياء من هذا؟^(١) .

وموقف آخر للحافظ بندار مع أحد أقارب الإمام البخاري يقول محمد بن يوسف : لما دخلت البصرة صرت إلى بندار فقال لي : من أين أنت ؟ قلت : من خراسان ، قال: من أيها ؟ قلت : من بخارى، قال : تعرف محمد بن إسماعيل ؟ قلت : أنا من قرابته، فكان بعد ذلك يرفعني فوق الناس^(٢) .

فهذا مثل من إجلال أهل الفضل والعلم ، فقد حاز محمد بن يوسف على التقدم في مجلس بندار لكونه من قرابة أبي عبد الله البخاري، وهذا يبين لنا شيئاً من فضل الإمام البخاري وتقدمه في نظر العلماء .

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٨/١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٢٢/١٢ .

موقف للحسين بن أحمد بن فطيمة رحمه الله :

ذكر الحافظ الذهبي في رواية له عن أبي المظفر عبد الرحيم بن عبد الكريم ابن الحافظ أبي المظفر منصور بن محمد السمعاني أنه قال عن الإمام الحسين بن أحمد بن فطيمة الخُسر وجردي: كثيرُ السماع حسن السيرة مليح المجالسة، مارأيت أخف روحاً منه، مع السخاء والبذل ، سمعت منه الكثير، وكتب لي أجزاء، ومن العجب أنه قُطعت أصابعه بكرمان من عِلَّة، فكان يأخذ القلم ويترك الورق تحت رجله ويمسك القلم بكفِّيه، فيكتب خطأ مليحاً سريعاً، يكتب في اليوم خمس طاقات خطأً واسعاً، تفقه بمرور على جدِّي أبي المظفر .

قال السمعاني: خرجت نحو «أصبهان»، فتركت القافلة ومضيت إلى «خُسر وجردي» مع رفيق لي راجلين، فدخلنا داره، وسلمنا على أصحابه فما التفتوا علينا، ثم خرج الشيخ فاستقبلنا فأقبل علينا وقال: لِمَ جئتم ؟ قلنا: لنقرأ عليك جزأين من معرفة الآثار للبيهقي،

فقال: لعلكم سمعتم الكتاب من الشيخ عبد الجبار^(١) وفاتكم هذا القدر؟ قلنا: بلى، وكان الجزآن فوتًا لعبد الجبار، فقال: تكونون عندي الليلة فإن لي مُهمًّا، أريد أن أخرج إلى «سَتْرَوار» فإن ابني كتب إليّ أن ابن أستاذه جائي في هذه القافلة، فأريد أن أسلم عليه وأسأله أن يقيم عندي أيامًا، وسَمَّاني^(٢)، فتبسّمت، فقال لي: تعرفه؟ قلت: هو بين يديك، فقام ونزل وبكى، وكاد أن يقبل رجليّ، ثم أخرج الكتب والأجزاء، ووهبني بعض أصوله، فكنت عنده ثلاثة أيام^(٣).

وهكذا رأينا معاملة هذا العالم الجليل مع حفيد شيخه، وهذا سلوك كريم في احترام العلماء والوفاء لأهل الفضل، فقد كان على استعداد للخروج إلى قرية أخرى لاستقبال حفيد أستاذه مع فارق السن بينهما إجلالا لأستاذه الإمام أبي المظفر السمعي وحفظا لحقه، ثم لما علم بأنه من يخاطبه بكى من تذكُّر أستاذه والفرح بلقاء حفيده،

(١) يعني أبا محمد عبد الجبار بن محمد الخواري المنيعي .

(٢) يعني ذكر اسم ابن أستاذه فإذا هو الذي يخاطبه .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/٦١ - ٦٢ .

وكانت منه تلك المظاهر العالية من الحفاوة والإكرام .
وهذا مثل من أمثلة كثيرة تبين لنا رابطة المحبة القوية بين
الشيخ وتلاميذهم .

ومما جاء في هذا الخبر وصف هذا العالم الجليل بأنه لما قُطِعَتْ
أصابعه أصبح يمسك القلم بكفيه ويكتب خطأ مليحاً سريعاً، وهذا
دليل على علو همة هذا العالم وطموحه نحو المعالي ، فلم يعذر نفسه
بفقد أصابعه ، بل مرّن كفيه حتى أصبحتا تقومان بمهمة الأصابع،
وهذا دليل على أن الإنسان لديه طاقة عالية للعمل ، ولكنه يكتبها
بالتكاسل أحياناً والاعتماد على غيره أحياناً أخرى .

موقفان لأبي عمر محمد بن يوسف القاضي وأبيه رحمهما الله :

مما جاء في تقدير أهل الفضل والعلم وجزاء ذلك ما رُوي من أن
الإمام أبا إسحاق الحربي لما دخل على إسماعيل القاضي بادر أبو عمر
محمد بن يوسف القاضي إلى نعله فأخذها فمسحها من الغبار، فدعا له
وقال : أعزك الله في الدنيا والآخرة ، فلما توفي أبو عمر رُوي في النوم
فقيل : ما فعل الله بك ؟ قال: أعزني في الدنيا والآخرة بدعوة الرجل

الصالح^(١) .

فهذا الخبر قد اشتمل على تواضع كريم من أبي عمر محمد بن يوسف القاضي حيث بادر إلى نعل الإمام إبراهيم الحربي فمسحها من الغبار ، وهذا دليل على المكانة الكبرى في قلوب أهل العلم للعلماء الربانيين .

ولقد كان هذا العمل البسيط سببا في حصول أبي عمر على العز في الدنيا والآخرة استجابة لدعوة العالم الرباني الصالح أبي إسحاق الحربي ، كما تفيده تلك الرؤيا المباركة ، وهذا يدل على أن دعوة أبي إسحاق قد صدرت من قلبه ، رحمهم الله تعالى جميعا .

وموقف آخر ليوسف القاضي والد أبي عمر يرويه الحسن بن قريش فيقول : حضرتُ إبراهيم الحربي وجاء يوسف القاضي ومعه ابنه أبو عمر : فقال له : يا أبا إسحاق لو جئناك على مقدار واجب حقك لكانت أوقاتنا كلها عندك ، فقال : ليس كل غيبة جفوة ولا كل

(١) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٥٧ - ٣٥٨ .

لقاء مودة وإنما هو تقارب القلوب^(١) .

فهذه كلمات جليلة معبرة من العالم يوسف القاضي في حق الإمام إبراهيم الحربي ، تدل على مكانته العالية في قلبه، وإجابةً سديدة من أبي إسحاق الحربي وضع فيها الأمور مواضعها حيث بين أن العبرة بتقارب القلوب لا بكثرة الزيارات ، وإن كانت الزيارات سببا في توثيق الصلات ، وتقوية الروابط القلبية .

موقف لأبي مسلم الكجّي رحمه الله :

من أمثلة تقدير أهل العلم والفضل ما ذكره جعفر بن محمد الطَّبَّسي قال : كنا ببغداد ومعنا عبد الله مستملي صالح جزرة ، فقيل لأبي مسلم الكجّي : هذا مستملي صالح ، قال : ومَنْ صالح؟ فقيل : صالح الجزري ، قال : ويُحكّم ، ما أهونه عليكم ! ألا تقول : سيد المسلمين ، وكنا في أخريات الناس فقدّمنا ، فقال : كيف أخي وكبيرتي؟ ماتريدون ؟ فقلنا : أحاديث محمد بن عرعة وحكايات

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٨ .

الأصمعي ، فأملى علينا عن ظهر قلب ، وكان ضريرا مخضوب
اللحية^(١) .

فهذا موقف كريم من الحافظ أبي مسلم الكجي حيث حفظ حق
العالم الجليل الحافظ صالح جزرة ، فوصفه بأنه سيد المسلمين، وهذا
الوصف له سابقة من أقوال الصحابة رضي الله عنهم في وصف
العلماء، فقد قال عمر بن الخطاب عن أبي بن كعب رضي الله عنهما: إنه
سيد المسلمين، والسيادة تعني التقدم والرئاسة ، فسيد القوم هو
رئيسهم المقدم فيهم ، والعلماء هم سادة المسلمين لأن مهمة جميع
المسلمين في هذه الحياة هي تطبيق شريعة الله تعالى وعمران الأرض
بها، والذين لهم حق الإشراف على هذا التطبيق وتوجيه المسلمين نحو
التطبيق الصحيح هم علماء الدين .

(١) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٤٢٥ .

موقف إبراهيم الحربي رحمه الله :

قال ابن بشكوال : نقلت من كتاب ابن عتاب : كان إبراهيم الحربي رجلا صالحا من أهل العلم ، بلغه أن قوما من الذين كانوا يجالسونه يفضلونه على الإمام أحمد بن حنبل، فوقفهم على ذلك فأقروا به ، فقال : ظلمتموني بتفضيلكم لي على رجل لا أشبهه ولا أحق به في حال من أحواله ، فأقسم بالله لا أسمعكم شيئا من العلم أبدا، فلا تأتوني بعد يومكم^(١) .

فهذا موقف كريم للعالم الجليل إبراهيم الحربي ، فقد غضب حينما فضلوه على الإمام أحمد ابن حنبل، وبيّن فضله عليه، فهذا يدل على تواضعه وعدم اغتراره بثناء الناس عليه، والعاقل هو من عرف قدر نفسه ، ووزنها بما يعلم منها لا بما يقول الناس عنه .

وهؤلاء الطلاب لعل لهم بعض العذر فيما ذهبوا إليه وذلك أن الناس عادة تميل نفوسهم إلى العالم المعاصر لهم، لمباشرتهم معرفة

(١) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٦٤ .

فضائله ، ولفضله المباشر عليهم ، وقد يكون ذلك أبلغ في نفوسهم من قراءة تاريخ من مضى ولو كان قريبا من زمنهم .

ولئن كان مايتصف به إبراهيم الحربي من تواضع كبير ، ومايعتقده من تقدم الإمام أحمد عليه في كل أحواله قد حمله على الغضب مما قاله تلامذته ، فلقد بالغ في عقوبة هؤلاء التلاميذ وماكان ينبغي له أن يجرمهم من علمه إلى الأبد ، رحمهم الله جميعا .

موقفان للإمامين علي بن المديني والبخاري رحمهما الله :

ذكر الإمام الذهبي من خبر أحمد بن عبد السلام قال: ذكّرنا قول البخاري لعلي بن المديني يعني : مااستصغرت نفسي إلا بين يدي عليّ ابن المديني ، فقال علي : دَعُوا هذا فإن محمد بن إسماعيل لم ير مثل نفسه^(١) .

وهذا مثل من السمو الأخلاقي في الأدب العلمي يقدمه هذان الإمامان الكبيران حيث ذكر كل واحد منهما الآخر بما هو أهله، ولم

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٢٠ ، تاريخ بغداد ٢/١٨ .

يغتر ابن المديني بثناء البخاري عليه مع أن الشاء منه يعني ارتفاع من
أثنى عليه وتميزه ، لأن الشاء من الكبير كبير .

موقف لإسماعيل بن أبي أويس رحمه الله :

ذكر الإمام الذهبي من خبر الإمام البخاري أنه قال : اجتمع أصحاب الحديث فسألوني أن أكلم إسماعيل بن أبي أويس ليزيدهم في القراءة ، ففعلت ، فدعا إسماعيل الجارية وأمرها أن تُخْرِج صرة دنانير ، وقال : يا أبا عبد الله فرّقها عليهم .

قلت : إنما أرادوا الحديث ، قال : قد أجبتك إلى ماطلبت من الزيادة ، غير أنني أحب أن يُضَمَّ هذا إلى ذلك ليظهر أثرك فيهم^(١) .
ففي هذا الخبر بيان اهتمام أهل الحديث بهذا العلم الشريف . فقد استشفعوا بأبي عبد الله البخاري إلى إسماعيل بن أبي أويس ليزيدهم في الحديث ، وفي هذا دلالة على مكانة الإمام البخاري .
وفيما قام به الحافظ ابن أبي أويس من توزيع الدنانير على يد أبي عبد الله البخاري مثلاً من تقدير أهل الفضل وحفظ مكانتهم .

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٩/١٢ .

من مواقف الحافظ عبد العظيم المنذري رحمه الله :

يقول الحافظ عبد الوهاب السبكي : ولما استقر مقامه [يعني الشيخ العز بن عبد السلام] بمصر أكرمه حافظ الديار المصرية وزاهاها عبد العظيم المنذري، وامتنع من الفتيا وقال: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين عليه^(١).

فهذا مثل جيد في احترام العلماء بعضهم بعضا وتقدير أهل الفضل منهم والتقدم ، وهذا يبين لنا أن الحافظ المنذري من العلماء الربانيين المتقين ، ولو أنه كان من علماء الدنيا لدب إلى قلبه الحسد ولحاول التنقيص من شأن العز بن عبد السلام .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٥ / ٨١ .

فهرس المصادر والمراجع

- أسد الغابة في معرفة الصحابة / لعز الدين علي بن محمد الشيباني «ابن الأثير» / الناشر: انتشارات إسماعليات في طهران.
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب / لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري / الناشر: مصطفى محمد بمصر .
- الإصابة في تمييز الصحابة/ للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر» / الناشر: مطبعة مصطفى محمد في مصر .
- البداية والنهاية/ للحافظ أبي الفداء ابن كثير/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت .
- تاريخ الإسلام / للحافظ محمد بن أحمد الذهبي / الناشر : دار الكتاب العربي .
- تاريخ بغداد/ للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي / الناشر: دار الكتاب العربي في بيروت .
- تاريخ دمشق/ للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله «ابن عساكر»/ الناشر: دار الفكر .

- تاريخ الطبري / للمؤرخ محمد بن جرير الطبري / الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
- تاريخ المدينة المنورة / لأبي زيد عمر بن شبة النميري / تحقيق : فهيم محمد شلتوت .
- تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي / للحافظ محمد المباركفوري / الناشر : المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
- جامع العلوم والحكم / للحافظ عبد الرحمن «ابن رجب» الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت .
- جمع الفوائد / لمحمد بن محمد بن سليمان / الناشر : عبد الله بن هاشم اليماني - المدينة المنورة .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء / للحافظ أبي نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني / الناشر: مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة في مصر .
- الدرر الكامنة / للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر» / الناشر: دار الجيل في بيروت .
- الدر المنثور / للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي /

- الناشر: أمين دمج - بيروت .
- دلائل النبوة / للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني /
الناشر: عالم الكتب - بيروت .
- الذيل على طبقات الحنابلة / للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن
أحمد «ابن رجب» / الناشر: دار المعرفة في بيروت .
- الزهد / للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني / الناشر: دار
الكتب العلمية في بيروت .
- سنن الترمذي / للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي /
الناشر: المكتبة الإسلامية .
- سنن أبي داود / للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني
الأزدي / الناشر: محمد علي السيد - حمص .
- سنن الدارمي / للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي /
الناشر: دار الريان في القاهرة، ودار الكتاب العربي في بيروت .
- سنن ابن ماجه / للحافظ محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجه» /
الناشر: دار إحياء الكتب العربية .

- سنن النسائي / للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي / الناشر: المكتبة التجارية الكبرى في مصر .
- سير أعلام النبلاء / للحافظ محمد بن أحمد الذهبي / الناشر: مؤسسة الرسالة في بيروت .
- سيرة عمر بن عبد العزيز / لأبي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم / الناشر: دار العلم للملايين .
- سيرة عمر بن عبد العزيز / للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي / الناشر: دار الفكر .
- صحيح البخاري / للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري / الناشر: المطبعة السلفية ومكنتها في القاهرة .
- صحيح مسلم / للإمام مسلم بن الحجاج القشيري / الناشر: دار إحياء التراث العربي .
- صفة الصفوة / للحافظ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي / الناشر: دار المعرفة في بيروت .
- طبقات الحنابلة / للقاضي محمد بن أبي يعلى / الناشر: دار المعرفة

- في بيروت.
- طبقات الشافعية الكبرى / للحافظ عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي / الناشر: دار المعرفة في بيروت .
 - الطبقات الكبرى / لمحمد بن سعد بن منيع / الناشر: دار صادر في بيروت.
 - الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية / للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي «ابن القيم» / الناشر : مكتبة النهضة الحديثة - بمكة المكرمة .
 - عيون الأثر / للحافظ محمد ابن سيد الناس / الناشر : دار المعرفة - بيروت .
 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري / للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر العسقلاني» الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها في مصر .
 - الفتح الرباني / لأحمد بن عبد الرحمن البنا/ الناشر: دار الحديث في القاهرة .

- القاموس المحيط / لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي /
الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت .
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال / لعلاء الدين علي المتقي
البرهان فوري / الناشر: دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد.
- لسان العرب / لأبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور / الناشر:
دار صادر - بيروت .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي /
الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت .
- مجموع فتاوى ابن تيمية / جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن
قاسم / مطابع الرياض .
- المختار المصون من أعلام القرون / للدكتور محمد بن حسن بن
عقيل موسى / الناشر: دار الأندلس الخضراء - جدة .
- مدارج السالكين / للإمام محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية /
الناشر: مطبعة السنة المحمدية - القاهرة .
- المستدرک علی الصحیحین / للحافظ أبي عبد الله الحاكم

- النيسابوري / الناشر : مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب .
- مسند أحمد / للإمام أحمد بن حنبل الشيباني / الناشر: المكتب الإسلامي ودار صادر - بيروت .
- مسند الطيالسي / للحافظ سليمان بن داود الجارود/ الناشر: الطبعة المنيرية بالأزهر .
- المسند / للحافظ أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي/ الناشر: عالم الكتب - بيروت ، مكتبة المثنى - القاهرة .
- المصنف / للحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني/ الناشر: المجلس العلمي في الهند .
- المعجم الأوسط / للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني/ الناشر : مكتبة المعارف - الرياض .
- معجم البلدان / لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي/ الناشر : دار صادر ودار بيروت - بيروت .
- المعجم الكبير / للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني/ الناشر : وزارة الأوقاف - العراق .

- المغازي / لمحمد بن عمر الواقدي / الناشر: عالم الكتب - بيروت .
- منتخب كنز العمال / للعلامة على المتقي الهندي / الناشر: المكتب الإسلامي ، دار صادر - بيروت .
- موارد الظمان / للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي / الناشر: المطبعة السلفية ومكبتها - القاهرة .
- الموطأ / للإمام مالك بن أنس / الناشر: دار إحياء التراث العربي .
- النهاية في غريب الحديث والأثر / للحافظ أبي السعادات «ابن الأثير» / الناشر: دار إحياء الكتب العربية .
- الوافي بالوفيات / لصلاح الدين خليل الصفدي / الناشر: فرانز شتايز بفيسادن .
- وفيات الأعيان / لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان / الناشر: دار صادر - بيروت .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
١٣	مواقف وعبر في الحلم والعمو
١٥	مثل من حلم رسول الله ﷺ
٢١	من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما
٢٥	من مواقف عثمان رضي الله عنه
٢٦	من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه
٢٧	من مواقف معاوية رضي الله عنه
٣٦	من مواقف الأحنف بن قيس
٤٣	من مواقف هشام بن عبد الملك
٤٥	من مواقف أبي جعفر المنصور
٥٠	من مواقف يحيى بن هبيرة
٥٣	توجيهات ومواقف في التواضع والرحمة
٥٥	أمثلة من تواضع النبي ﷺ ورحمته

الصفحة	الموضوع
٧٧	من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما
٧٨	من مواقف عمر رضي الله عنه
٩١	من مواقف عثمان رضي الله عنه
٩٢	من مواقف علي رضي الله عنه
٩٤	من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه
٩٦	من مواقف عبد الله بن سلام رضي الله عنه
٩٧	من مواقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه
٩٨	من مواقف المقداد بن عمرو رضي الله عنه
١٠١	من مواقف حذيفة بن اليمان رضي الله عنه
١٠٤	من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه
١١١	من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنه
١١٢	من مواقف سعيد بن المسيب
١١٦	من مواقف عمر بن عبد العزيز
١٣٢	من مواقف مُطَرِّف بن عبد الله

الموضوع	الصفحة
من مواقف محمد بن سيرين	١٣٢
من مواقف سليمان بن مهران	١٣٤
من مواقف سفيان الثوري ومالك بن أنس	١٣٥
من مواقف عبد الله بن المبارك	١٣٦
من مواقف أمير المؤمنين المأمون	١٣٨
من مواقف يزيد بن هارون	١٣٨
موقف لإسماعيل بن عُلَيَّة	١٤٠
موقف لقتيبة بن سعيد	١٤١
موقف لأحمد بن حنبل	١٤١
من مواقف إسحاق بن راهويه وإسماعيل بن أبي إدريس ..	١٤٢
من مواقف أبي عبد الله البخاري	١٤٣
من مواقف ابن هبيرة	١٤٤
توجيهات ومواقف في الصبر على المكروه	١٥١
نماذج من صبر النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم	١٥٣

الموضوع	الصفحة
موقف لأبي طلحة وأم سليم رضي الله عنهما	١٦٥
من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه	١٦٨
من مواقف عبد الله بن حذافة رضي الله عنه	١٧٩
من مواقف عروة بن الزبير	١٨٧
من مواقف إبراهيم الحربي	١٨٩
من مواقف ابن تيمية	١٩١
مواقف وعبر في مجال الكرم	١٩٥
مثل من كرم رسول الله ﷺ	١٩٧
من أخبار طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه	١٩٩
من أخبار عثمان بن عفان رضي الله عنه	٢٠٣
من أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٢٠٥
من أخبار أبي طلحة رضي الله عنه	٢٠٧
من أخبار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه	٢١١
من أخبار الزبير بن العوام رضي الله عنه	٢١٢

الموضوع	الصفحة
من أخبار عمرو بن العاص رضي الله عنه	٢١٢
من أخبار عائشة رضي الله عنها	٢١٤
من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه	٢١٥
من أخبار عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما	٢١٦
من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما	٢١٧
من أخبار الحسن بن علي رضي الله عنهما	٢١٨
من أخبار حارثة بن النعمان رضي الله عنه	٢٢٠
من أخبار معاذ بن الحارث رضي الله عنه	٢٢١
من أخبار سعد بن عباد و ابنه قيس رضي الله عنهما	٢٢٣
من أخبار عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما	٢٢٦
من أخبار حكيم بن حزام رضي الله عنه	٢٣٣
من أخبار سعيد بن العاص	٢٣٥
من أخبار عبيد الله بن عباس	٢٤٣
من أخبار عرابة الأوسي	٢٤٧

الصفحة	الموضوع
٢٤٩	من أخبار علي بن الحسين
٢٥٢	من أخبار الليث بن سعد
٢٥٣	من أخبار ابن شهاب الزهري
٢٥٤	من أخبار عبد الله بن المبارك
٢٥٨	من أخبار أبي النجم الكردي
٢٥٨	من أخبار الأوزاعي
٢٦٠	من أخبار أمير المؤمنين المهدي
٢٦٢	من أخبار البخاري
٢٦٧	من أخبار الشافعي
٢٧٠	من أخبار الواقدي
٢٧٢	من أخبار ابن مهدي
٢٧٣	من أخبار سوار صاحب المهدي
٢٧٧	من أخبار ابن أدهم
٢٧٩	من أخبار بقي بن مخلد

الموضوع	الصفحة
من أخبار محمد بن عباد	٢٧٩
من أخبار دعلج السجستاني	٢٨١
من أخبار الوزير ابن هبيرة	٢٨٣
من أخبار الوزير علي بن عيسى بن الجراح	٢٨٦
من أخبار عبد الغني المقدسي	٢٨٩
من أخبار العز بن عبد السلام	٢٩١
توجيهات ومواقف في تقدير أهل الفضل	٢٩٣
تقدير النبي ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما	٢٩٦
من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما	٣٠٠
من مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٣١٦
من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه	٣٢٥
من مواقف كعب بن مالك رضي الله عنه	٣٢٧
من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه	٣٢٩
من مواقف ابن عباس رضي الله عنهما	٣٣١

الصفحة	الموضوع
٣٣٣	من مواقف معاوية رضي الله عنه
٣٣٨	من مواقف حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما
٣٤١	من مواقف الشفاء بنت عبد الله
٣٤٢	من مواقف عمر بن عبد العزيز
٣٤٣	إجلاله سعيد بن المسيب
٣٤٤	تقديره ولد قتادة بن النعمان
٣٤٧	تقديره زياد مولى ابن عياش
٣٤٩	إكرامه من ينتسبون إلى علي رضي الله عنه
٣٥١	من مواقف الحسن البصري
٣٥٢	من مواقف محمد بن علي بن الحسين
٣٥٤	موقف لابن حنبل وابن راهويه وأبي عبيد
٣٦٠	موقف لعمر بن علي الفلاس
٣٦١	موقف لسهل بن عبد الله التستري
٣٦٣	موقف لنوح بن نصر

الصفحة	الموضوع
٣٦٤	موقف لإسماعيل الساماني
٣٦٦	موقف لمحمد بن يحيى الذهلي
٣٦٨	موقف لطاهر بن عبد الله
٣٧٠	موقف لمحمد بن بشار
٣٧٢	موقف للحسين ابن فطيمة
٣٧٤	موقفان لمحمد بن يوسف القاضي وأبيه
٣٧٦	موقف لأبي مسلم الكجي
٣٧٨	موقف لإبراهيم الحربي
٣٨٠	موقفان لابن المديني والبخاري
٣٨١	موقف لإسماعيل بن أبي أويس
٣٨٢	من مواقف الحافظ عبد العظيم المنذري
٣٨٣	فهرس المصادر والمراجع
٣٩١	فهرس الموضوعات

